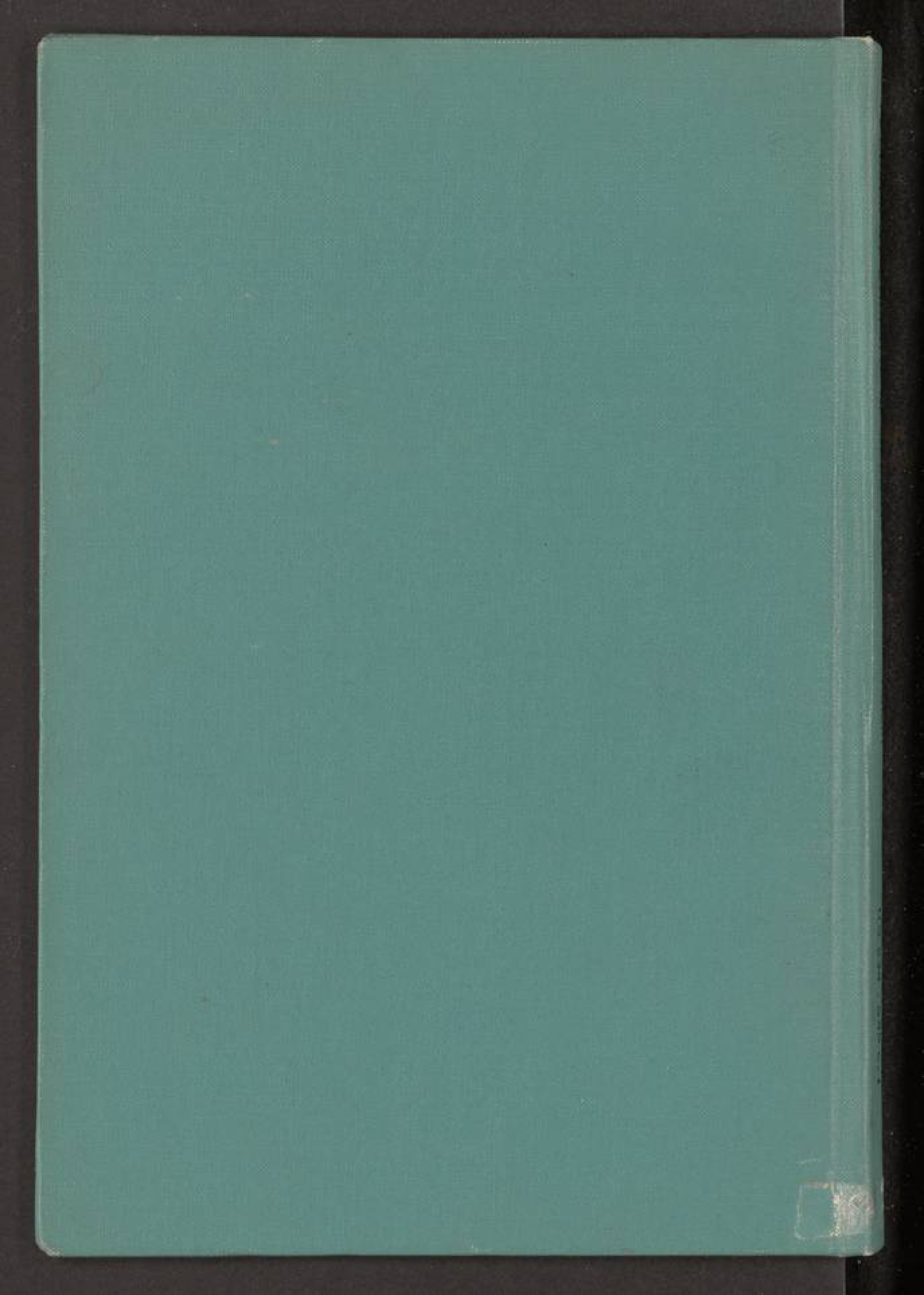




DATE DUE
BOBST
FEB 14, 1979
BOBST
JUN 14, 1979
RECEIVED
MAY 1979

فى قصور الخلفاء العباسيين

دراسة تاريخية وقصصية للعصر العباسى الأول ، وما كان فيه من دسائس ومؤامرات ، جرت فى قصور الخلفاء ، وانعكس أثرها على الدولة

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه فى الفلسفة من جامعة كمبردج
مدرس تاريخ الحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد
القاهرة

مطبعة مخيمر
٢٩ شارع الجيش ت ٤٧١٩٢
١٩٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب للمؤلف

١ – كيف تكتب بحثا أو رسالة :

دراسة منهجية لكتابة الأبحاث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى بالقاهرة الثمن ٢٠ قرشا

٢ – تاريخ التربية الإسلامية :

عرض شامل لمؤسسات التعليم عند المسلمين حتى منتصف القرن السابع الهجرى ، وصورة صادقة لحياة المدرسين المالية والاجتماعية ، وملابس المدرسين ، ونقابة المدرسين ، والشهادات الدراسية ، والعقوبات ، والجوائز والمكافآت . . . ثم لحياة التلاميذ ، وفكرة تكافؤ الفرص عند المسلمين ، وتوجيه التلاميذ حسب مواهبهم وفلسفة النظم التعليمية بما فى ذلك نظام الحلقة ، والأوقاف على التعليم ، ومراحل التعليم ، والداخلية فى المعاهد الإسلامية . . ثم الكلام عن نظام الملك الوزير السلجوقى وعن المدارس النظامية وبالكتاب فصل عن المذهب الإسماعيلى : مبادئه وطرق الدعاية له

الناشر : دار الكشاف ببيروت (فرع القاهرة : ٣٧ شارع عبد العزيز)

الثمن ١٠٠ قرش

٣ – History of Muslim Education.

الأصل الإنجليزى للكتاب السابق وهو الذى حصل به المؤلف على درجة الدكتوراه من جامعة كمبردج . الناشر : دار الكشاف الثمن ١٠٠ قرش

٤ – فى قصور الخلفاء العباسيين :

وهو هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية شارع محمد بك فريد بالقاهرة الثمن ٤٠ قرشا

٥ – تاريخ الحضارة الإسلامية :

كتاب فى ثلاثة أجزاء يبحث الجزء الأول فى الحياة السياسية عند المسلمين حتى سقوط بغداد والثانى فى الحياة الاقتصادية والثالث فى الحياة الاجتماعية . (يظهر قريبا)



تحوى هذه الخريطة أهم الأمكنة والبلدان التى ورد لها ذكر فى هذا الكتاب

فهرس الموضوعات

الموضـوع | صفحـة

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الموضوع | صفحة

مقدمة

هناك شبه وثيق بين القصور التى حظيت بحكم استبدادى ، وهذا الشبه بيِّن على الرغم من اختلاف الزمان والمكان ، ومن أهم العناصر التى تبرز فى هذه القصور أن سادتها من الحاكمين لا يعنون إلا بتثبيت عروشهم ولا يتحرجون من أجل ذلك أن يَسجنوا ، وأن يفتكوا بالأبرياء ، وأن يذيقوا رعاياهم البؤس والعذاب الأليم .

ومما تمتاز به هذه القصور أيضا أنها تحوى دائما أناساً لا همّ لهم إلا الدسُّ والإيقاع ، وتضم جماعات تكيد كل جماعة للأخرى . وأن تيارات الدسائس والمؤامرات بها تشيع وتنساب دون توقف أو نكوص .

ومن العناصر الهامة فى هذه القصور ، الأثرة الحادة التى توحى للحاكم أنه كل شىء ، وأن الدولة مِلْكٌ له ، خلقت للذته وإسعاده فى حياته ، ثم يورثها أبناءه بعد موته ؛ وهذه الأثرة لا تقتصر على الخلفاء والملوك ، وإنما تنتقل إلى البطانة والحاشية ؛ فيعمل كل فرد فى القصور على أن يأخذ لنفسه وذويه أكبر قسط من النفع والمتاع .

ويندر أن يدخل الحب والتعاطف هذه القصور أو هذه الأوكار كما يحسن أن تسمى ، ويغلب أن تكون العلاقة بين الحاكم وآله مطبوعة بالطابع العدائى الكريه .

والمجون والخلاعة ، والانحلال الخلقى بأبشع صوره ، مظهر هام من مظاهر هذه الحياة ، وما أيسر على سادة القصور ، أن ينسوا شعوبهم ومسئولياتهم ، بل أن ينسوا أنفسهم وكرامتهم ، ليستجيبوا لداعى الهوى ، ولينغمسوا من الأخمص إلى المفرق بين الكاس والطاس ، والعود الألحان ، والجوارى والقيان .

وأخيرا وليس آخرا – كما يقولون – فإن سادة هذه القصور يسرهم أن يبنوا مجدهم على أشلاء الأعداء والأشباع جميعا .

وقد أتيح لى – كباحث فى التاريخ – أن أعيش فى مجموعتين من هذه القصور فرّقت بينهما مئات السنين ، وجَمَّعت بينهما الملامح والمميزات التى لا تتخلف ، ولا تختلف .

وكانت المجموعة الأولى قصور العباسيين ؛ فقد كان ضمن عملى بجامعة القاهرة أن أقوم بتدريس تاريخ الدولة العباسية ، فعرضت لقصور العباسيين بالدراسة والتحليل ، ولم أقنع بما عنى به أغلب المؤرخين من دراسة الحياة الظاهرة كمجالس الأدب والشراب والغناء . . . وإنما أضفت إلى ذلك بحث التيارات الخفية فى هذه القصور ، وما كان يدب فى نفوس أصحابها من انفعالات ، وما كان يدور فى تلك القصور من دسائس ومؤامرات .

أما المجموعة الثانية فهى قصور أسرة محمد على فى مصر ، وقد ظهر لى من قراءة تاريخ اسماعيل وتوفيق ومن مشاهداتى للحياة المصرية فى عهدى فؤاد وفاروق أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن قصور هؤلاء ليست إلا صورة صادقة لقصور أولئك ، تجمع هذه وتلك الملامح سالفة الذكر ، وأغلب الظن أن هذه المجموعة من القصور هى التى أوحت لى بدراسة التيارات الخفية فى المجموعة الأولى ، وليسمح لى القارىء أن أصدقه القول ، وأن أنقل له أحاسيسى ؛ وبخاصة أنها أصبحت تاريخا ومن الواجب علينا أن ندوّن التاريخ ؛ لقد كنت أقوم بتدريس هذه المادة فى عهد فاروق ، وكان طلابى ونحن نكشف الستار عن قصور العباسيين يدركون أن فى ذلك إزاحة للستار عما يجرى فى قصور فاروق ، ويحسون أن ما نقوم به إن هو إلا صورة من الكفاح غير المسلح ، الذى قام به الشعب المصرى ضد الملك السابق ، هذا الكفاح الذى أسهم فيه الجامعيون بنصيب كبير .

وكنت أعدّ هذه الدراسة لتكون كتاباً ، رجاء أن يذيع الهدف الذى كنت أتطلع إليه ، ولكن حدثت المعجزة وسقط الطاغية على يد الأبطال الأحرار ، ولذلك أخرجه ليكون تاريخاً يكشف عن حياة المجموعة الأولى من القصور ، أما المجموعة الثانية ، فقد عرف العالم عنها منذ ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ الشىء الكثير ، وسيستطيع القارىء فى يسر وسهولة أن يربط بين هاتين المجموعتين .

وهذا البحث اتجاه جديد فى دراسة التاريخ ، فلم توجه العناية فيه إلى الخلفاء أو أعمالهم ، وإنما إلى الدولة وما كان فيها من حركات ، والقصور وما كان فيها من نشاط ، وأرجو أن تصادف هذه الطريقة رضا القراء .

ولم أطل فى وصف المعارك الحربية ، وتنقلات الجيوش ، وما فعله القلب والميمنة والميسرة . . . فذلك مما لا يُعنى به المؤرخون المحدثون الذين يتجهون فى دراستهم إلى ما ترتب على النصر أو الهزيمة من نتائج أثرت فى دراسة الحضارة ، تلك الدراسة التى يمنحها المؤرخون المحدثون أهمية كبيرة ، ويعدونها التراث الباقى للعهود الماضية ، وقد أوليتُ هذه الحضارة نصيبها من العناية، وجعلتها تشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة .

وكثيراً ما قابلت روايات متعددة متناقضة عن حادثة واحدة فكنت أعنى باستعراض هذه الروايات ونقدها ، وأختار أدقها مشيراً إلى سواه وإلى أوجه النقد فيه ، وفى خلال مئات الاقتباسات التى سقتها هنا مسندة إلى مراجعها ، سيجد القارىء إننى حاولت جاهدا أن أحسن عرضها ، وأن أقدم لها ، وأنقدها ، وأعلق عليها ، كما حاولت أن أربط بينها رجاء أن تبدو كأنها خطت بقلم مؤرخ واحد لم يقتبسها من عشرات المراجع .

ومراجع هذا الكتاب هي : (١) كتب التاريخ كالطبري وابن الأثير والعبر لابن خلدون ، والمعارف ، والإمامة والسياسة لابن قتيبة ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ، وغيرها ، وقد اعتمدت عليها في سرد الأحداث التاريخية ، (٢) وكتب التراجم والأدب ، وقد اسهمت في هذا الكتاب بنصيب كبير ، وكان عليها المعول فيما ورد فيه من نقد ومقارنة ، ومن تصوير للحضارة الإسلامية في تلك الحقبة ، لهذا سيقابل القارىء من حين إلى آخر اقتباسات من الأغاني والعقد الفريد والكامل والأوراق للصولي وديوان المعاني لأبي هلال العسكري والمستطرف للابشيهي ومحاضرات الأدباء ... (٣) والفصل الرابع استمد مادته من كتب علم النفس ؛ مما كتبه Adler و Hadfield وغيرهما . كما احتاجت الموازنة التي عقدتُها في هذا الفصل إلى مجموعة كبيرة من كتب الموازنات كالمحاسن والأضداد للجاحظ ، والمحاسن والمساوىء للبيهقي ، وثمرات الأوراق لابن حجه الحموي . وغيرها مما ورد ذكره في مكانه .

وكان استاذي بجامعة كمبردج يذكر لنا أن الباحث في التاريخ ينبغي أن يحاول أن يبعث الروح من جديد فيما يعرض من أحداث ، حتى يبدو التاريخ وقد دبت فيه الحياة مرة أخرى ، وذلك بالمقارنة ، وعرض الماضي الذي يمكن أن يُنتفع به في الحاضر والمستقبل ، وصياغة التاريخ في قالب جذاب من ناحية الأسلوب ، ومن ناحية اختيار المشكلات التي تستهوي القارىء لتكون إطارا يوضع التاريخ في ثناياه ، ولست أدري إلى أي مدى قد نجحت في تحقيق هذه الغاية ؛ ولكن الذي أقرره أنني حاولت وثابرت وبذلت الجهد .

وقد جرت المؤامرات والدسائس التي ذكرت هنا بإيعاز الخلفاء المسلمين، أو في ظلهم، ولذلك كان من الضروري أن نوضح نقطة هامة؛ هي أن الإسلام شيء وهؤلاء المسلمون شيء آخر؛ ومصادر التشريع الإسلامي وأولها القرآن الكريم تنحى باللائمة وتزجر بعنف من اغتاب أونمّ، ومن مشى بالسعاية والوشاية، وتهدده بالثبور والبوار: قال تعالى: «ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه»[1] وقال «يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين»[2] وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة نمام) وقال: (الساعي غاش وإن قال قول المنتصح) وقال عمرو بن عبيد لرجل يستمع إلى آخر يغتاب: ويلك!! نزّه أذنك عن استماع الخنا، كما تنزه لسانك عن النطق به.

اما إزهاق الأرواح البريئة وقتل الناس بدون حق، فقد وقف منه القرآن موقفا حازما، يحذر من يحاول أن يقترف هذا الإثم وينذره، قال تعالى«ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذاباً عظيما[3]».

وعلى هذا فمن قام بالوشاية أوشجعها، أو قتلَ النفس الحرام بدون حق، فهو إنما يفعل ذلك متمرداً على الدين الحنيف وعلى تعاليمه السمحة،

«١» سورة الحجرات الآية رقم ١٢
«٢» سورة الحجرات الآية رقم ٦
«٣» سورة النساء الآية رقم ٩٣

وهذا هو تاريخ حقبة من الزمن مضت منذ أكثر من ألف عام ، وها نحن أولاء نردد هذا التاريخ فيما نكتب وفيما نحاضر ، فنسجل للمحسن إحسانه ، وللمسيء إساءته ، ونشيد بالأيادى والمنن التى قدمها الحاكمون إلى شعوبهم ، ونلوم وننقد من أساء إلى قومه أو سعى فيهم بالفساد ، فليدرك صانعو التاريخ فى العالم كله أن التاريخ لا ينسى ، وأنه يقظ يدوّن عليهم كل ما يفعلون دون أن يشعروا ، ويسجل أفعال الخير والشر دون أن ينتبهوا ، وسيعرض التاريخ صفحتهم هذه على الأمم والأجيال القادمة بما فيها من محاسن ومساوىء .

وليدرك صانعو التاريخ كذلك أنهم لن يفلتوا من عقاب التاريخ إن أساءوا ، وهم إن أفلتوا من عقاب الناس ، فإن أبناءهم وأحفادهم سيحملون هذا العقاب مراً قاسياً ؛ وقد عوقب مروان بن محمد الخليفة الأموى الأخير بذنب لم يجنه هو ، وإنما جناه سابقوه من خلفاء الأمويين الذين كانوا إلى الانحلال اقرب ، وتحمل الخلفاء العباسيون الذين جاءوا بعد الواثق تبعة الخطأ الذى وقع فيه جدهم المعتصم ، وتحمل فاروق وزره ووزر آبائه واجداده .

وبعد ، هذا جهد متواضع جداً أقدمه لعشاق الدراسات الإسلامية راجياً أن أكون قد وفقت بعض الشيء فيما ذهبت إليه .

وما التوفيق إلا بالله عليه أتوكل وإليه أنيب .

المعادى فى ٦ يناير ١٩٥٤

أحمد جاب الله شلبى
مدرس التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الفصل الأول

الهيكل التاريخي العام لأحداث العصر العبّاسي الأوّل

أولا :

لمحة سريعة عن قيام الدولة العباسية

حتى أوائل سنة ١٣٢ هـ لم تكن قد ظهرت الكلمتان « العباسيون » و « العلويون » فى أفق التاريخ ظهوراً واضحاً ، بل كان هناك تعبير واحد يشمل هؤلاء وأولئك ، ذلك هو « بنو هاشم » أو « الهاشميون » أو « آل البيت » ، وكان هؤلاء يكافحون معاً ، ويناوئون بنى أمية متساندين ، رجاء أن ينتزعوا لأنفسهم الخلافة ، التى اعتقدوا أنها حق لهم اغتصبه الأمويون .

وكان العنصران اللذان يتكون منهما « الهاشميون » يختلفان اختلافاً بيّناً ؛ فالعلويون فيهم طيبة وصفاء ، يعتقدون أن الخلافة حقهم ، وأن الناس جميعاً يسعون ليردوها إليهم ، وأما العباسيون فكان فيهم دهاء وسياسة ؛ كانوا يوهمون العلويين بأنهم يعملون لهم ، ولكنهم فى الواقع كانوا يعملون لأنفسهم ، يضعون فى أيديهم زمام الموقف ، ويديرون لأنفسهم دفة الكفاح .

أما الهتاف الذى كانت تسمعه الجماهير فهو أن الدعوة الجديدة تسير باسم الرضا من آل محمد [١] ، وهو - كما يبدو - اصطلاح عام يشمل العباسيين والعلويين ، ولكن الجماهير كانت تعتقد أنه علوى ، كما كان العلويون يعتقدون ذلك ، وعلى هذا كان ظاهر الحركات للعلويين ، وكانت بواطنها ، وإدارة

(١) أى من يختار للخلافة من آل محمد عقب انتصار دعوة الهاشميين .

شئونها ، وإمدادها بالدهاء والتوجيه ، يسيطر عليه العباسيون ؛ كما كان من نتائج ذلك أن دفع العلويون بكثير من سادتهم وزعمائهم ضحايا فى ذلك الميدان ، خرّ فيه الحسين بن على ، كما سقط فيه زيد حفيد الحسين ، ثم يحيى ابن زيد سالف الذكر ؛ ولم يكتف الأمويون بقتل زيد وابنه يحيى ، بل مثّلوا بجثتيهما ، وأحرقوهما ، حتى صارتا رماداً تذروه الرياح .

وإلى طيبة العلويين ، وعدم توافر الدهاء السياسى فيهم ، أضعف صفوفهم كثرةُ الخلاف بين زعمائهم ، وانشقاقُ الأتباع على هؤلاء الزعماء ، انشقاقاً أدى إلى قيام فرق كثيرة خرجت من أصل واحد ، كان قبلا مرهوب الجانب ، عزيز السلطان ؛ وقد ظهر الخلاف فى صفوف بنى على منذ عهدهم المبكر ، فبعد استشهاد الحسين فى موقعة كربلاء غير المتكافئة ، اختلف العلويون فى قضية الإمامة ؛ أتنتقل بعده إلى محمد بن على وهو ابن الحنفية وليس بابن فاطمة ، أم إلى على زين العابدين بن الحسين ، ويصف التاريخ محمداً هذا بأنه أقوى من الحسن والحسين خلقاً ، وله حزب قوى يظاهره ويقدمه للامامة وهم الكيسانية ..... وهؤلاء يعتقدون أن الأئمة أربعة ، وهم على وبنوه الثلاثة ، الحسن والحسين ومحمد [1] » .

وقال كثيّر عزة فى ذلك :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبتــه كربلاء

(١) دوايت دونلدش : عقيدة الشيعة ص ١١٣

وسبط لا تراه العين حتى يقود الخيل يتبعها اللواء

تغيب لا يُرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء[1]

... وهكذا تقسم العلويون بعد مصرع الحسين قسمين : قسم اتبع محمد بن على وقسم مال إلى على زين العابدين ، وكان مما أضعف شوكة القسم الثانى جنوحُ زين العابدين إلى الهدوء ومسالمته الأمويين الذين غصبوا الخلافة من مستحقيها ، وبعد موت على زين العابدين تقسم أتباعه قسمين مع ولديه محمد الباقر وزيد ، كما كان فى أولاد الحسن بن على من ينافس أولاد عمهم الحسين فى طلب ذلك الأمر ، وعلى هذا أصبح معسكر العلويين كثير الزعماء مختلف الآراء ، وكان من أقوى جماعات العلويين هذه الجماعة التى دانت بالولاء لمحمد بن الحنفية ، ثم لابنه أبى هاشم من بعده .

وهناك مركز هاشمى آخر كان يعمل أيضا ليثير السخط على الأمويين ، وليقوض عرشهم ، وله إدارة تمتاز بالدقة والكياسة والفطنة والدهاء ، ذلك المركز هو « الحميمة » ، وكان يستغلُّ ضحايا العلويين ودماءهم وهو يهدم البيت الحاكم ، ويعمل على أن تتداعى دعائمه ، وتنهار أركانه .

ومن الحميمة خرج الفرع الهاشمى الذى أطلق عليه فيما بعد « العباسيون » ومن هنا لزم أن نمنحه مزيدا من العناية والإيضاح :

كان على بن عبد الله بن العباس مسالما للأمويين وصديقا لهم ، لا يطلب شيئا لنفسه ، وكان يميل إلى الزهد والعبادة ، وقد أقطعه الوليد بن عبد الملك بلدة الحميمة من أرض الشام ، بالقرب من دمشق ، فانتقل لها من الحجاز ، وأقام بها هو وأسرته ؛ ولم يكن موقع الحميمة ، ولا أخلاق على بن عبد الله

---

(١) الأغانى ٨ : ٣١

ابن العباس ، بما يوحى بأن الحميمة تعمل جاهدة لقلب نظام الحكم ، ونقل السلطان من أسرة إلى أسرة ، ولذلك لم يحفل الأمويون كثيرا بمراقبتها ، وإقامة الأرصاد حولها ؛ وكانت الحميمة فى الواقع ساكنة هادئة ، كما كان على بن عبد الله جديرا بالثقة التى أولاها له الأمويون ، أما محور النشاط والحركة والفكر ، فمحمد بن على بن عبد الله بن العباس ، الذى عرف بأنه راجح العقل ، كثير الفطنة ، كبير الوعى ، وقد انتفع بحوادث التاريخ ؛ فرأى أن الفشل الذريع كان دائما نصيب العلويين الذين قادوا الجيوش وهبوا لجاهة فى وجه الأمويين مطالبين بالخلافة ، كما رأى أن أتباعهم طالما تخلوا عنهم فى أثناء المعركة لعدم تعمق الفكرة فى نفوسهم ، ورأى كذلك أن البلاد الإسلامية ليست سواء فى الاستجابة لدعوة الهاشميين .

وانتهى محمد بن على من دراسته وتفكيره إلى وضع الأسس الآتية ليسير عليها :

أولا : أن تكون الدعوة للرضا من آل محمد ، وهو بهذا لا يغضب أولاد عمه من العلويين ، ثم هو لا يربط الدعوة بفرد معين ، حتى لا تضعف إذا مات أو اغتيل ، بل تظل الدعوة فى طريقها إلى الأمام ، وإن قتل فرد أو أفراد من الزعماء أو الأتباع .

ثانيا : ألا يقوم الهاشميون بثورة لقلب نظام الحكم قبل أن يمهدوا لها ، ويعدوا العدة لقيامها ، بإثارة الناس ضد الحكم القائم الغاشم ، وتهيئة النفوس للدعوة الجديدة .

ثالثا : أن يكوّن محور (الحميمة — الكوفة — خراسان) فتكون الحميمة مكان الإعداد والتنظيم والائتمار ، وتكون الكوفة نقطة الاتصال

يلتقى فيها الذين يحملون الأوامر والتوجيهات من الحميمة ، مع الدعاة الذين عادوا من خراسان لينقلوا إلى القادة نتائج كفاحهم ، وليتلقوا التعليمات الجديدة ، أما مقر العمل فليكن خراسان ، وهو اختيار ناجح كل النجاح ؛ فخراسان تدين بالوراثة فى السلطان أو نظرية الحق الملكى المقدس كما يسميها المحدثون من الباحثين (The Divine Rights) ، وهى تريد أن تثأر لكرامتها وسلطانها التليد الذى حطمه الأمويون، وتسعى جاهدة فى استعادة مجدها السالف بعد أن صيرهم الأمويون موالى لا يرقون إلى رتبة العرب الذين كانوا إلى عهد قريب أجلافا غلاظا ، وقد وصف محمد بن على بن عبدالله لدعاته الولايات الاسلامية وميولها وصفاً دقيقاً فى العبارة التالية :

أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف، تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليسوا يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى أمية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وأصوات هائلة . . . . وبعد فانى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق [1] .

وقبل أن نسير فى وصف هذه الحركة ، يجدر بنا أن نقرر أن عاملين كبيرى الأهمية حدثا حوالى التقاء القرن الأول الهجرى والقرن الثانى ،

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ٢٩٣ — ٢٩٤

وكان لها أثر حسن فى بدء حركة النضال بدءاً قوياً من جهة ، وفى تقوية جانب الحميمة من جهة أخرى :

العامل الأول : هو خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) التى أشاعت العدالة وملأت النفوس اطمئناناً ، وهيأت للمعارضة أن تتكلم دون خوف من إراقة الدماء أو إزهاق الأرواح .

العامل الثانى : هو أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم طائفة الكيسانية أبرز الفرق العلوية المناضلة للأمويين ، قصد دمشق وافداً على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فبرّه هشام ووصله ، ثم رأى من فصاحته وسمو مكانته وعلمه ماحسده عليه وخوّفه منه ، فبعث إليه وهو فى طريقه إلى المدينة مَن وضع له السم فى لبن ، فلما أحس بالألم عدل إلى على بن عبد الله ابن العباس بالحميمة فأعلمه أنه ميت ، وأوصى إليه ، وكان فى صحبته جماعة من الشيعة فسلمهم إليه وأوصاه فيهم ثم مات [١] .

وليس الذى يهمنا فقط أن الحميمة كسبت عدداً من المناضلين لينضموا إلى صفوف رجالها ، وليكونوا هم وأتباعهم الكثيرون فى خراسان والعراق قوة يعتمد عليها زعماء الحميمة ؛ بل الذى يهمّ فوق ذلك ، هو أن الجانب العملى والسلطة الفعلية التى كانت الحميمة مركزها ، قد قويت بإضافة الجانب النظرى إليها ؛ فقد أصبح زعماء الحميمة وارثين لعلى بن أبى طالب ، بالإضافة إلى حقهم بوصفهم ورثة للعباس بن عبد المطلب .

وبدأ نضال الحميمة يظهر ، ويقسم المؤرخون فترة النضال قسمين : دور الدعوة الخالية من القوة ، ودور استعمال القوة والسيطرة بالسلاح

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٠١

على البلاد الخاضعة للأمويين . وقد استمر الدور الأول من مطلع القرن الثانى الهجرى حتى سنة ١٢٧ هـ ، وكانت الحميمة فى أثناء هذا الدور ترسل الدعاة إلى خراسان فى ثوب تجار يدعون لآل البيت ، ويستثيرون العصبيات ، وكان شيوخ الحميمة يكاتبون مشايخ خراسان ودهاقينها ، وكان كثير من هؤلاء يستجيبون للدعوة سراً [١] .

أما الدور الثانى فيبدأ سنة ١٢٧ هـ حينما أرسل زعماء الحميمة أبا مسلم الخراسانى ليقود المناضلين من أهل خراسان ضد الأمويين ، وقد تجمع مع أبى مسلم جموع المستجيبين للدعوة الجديدة ، ولقى زعماءهم حيث هتف فيهم :

أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام ، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب [٢] . وعقد لقواده الألوية وهو يتلو قوله تعالى «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير [٣]» ، وبدأ أبو مسلم كفاحه العنيف الناجح [٤] .

والذى يتحتم أن نبرزه هنا هو أن أبا مسلم كان داهية من دهاة السياسة ، فوق شجاعته ونبوغه فى الحروب وميادين القتال ، وحنكتُه السياسية ومقدرتُه على حياكة المؤامرات والدسائس ، من أهم ما ضمن له النصر فى هذا العراك الطويل ، ونسوق لذلك مثالين ذكرهما ابن الأثير :

لما وصل أبو مسلم خراسان أعدّ عدته ونظم عسكره وحصن موقعه ،

---

(١) الفخرى ١٢٢ — ١٢٣

(٢) العقد الفريد ١ : ١٠٨

(٣) سورة الحج الآية رقم ٣٩

(٤) ابن الأثير ٥ : ١٣٣

ثم كتب إلى نصر بن سيار عامل الأمويين عليها كتاباً قال فيه :

من أبي مسلم إلى نصر بن سيار ، أما بعد : فإن الله تباركت أسماؤه ، وتعالى ذكره ، عيّر أقواما في القرآن فقال « وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكباراً في الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء لا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا »(1) .

وقد كبُر على نصر أن يتلقى كتاباً كهذا من أبي مسلم ؛ يهدد فيه ، ويبدأ بنفسه . وكان جواب نصر أن وجه إلى أبي مسلم جيشاً عظيما بقيادة مولى له اسمه يزيد ، فقابله جيش أبي مسلم بقيادة مالك بن الهيثم الخزاعى ، ووضع أبو مسلم في هذا الجيش صناديد رجاله ، وعرّفهم أن هذه أول معركة ، وعليها يتوقف مستقبل الدعوة الناشئة ، وبقي أبو مسلم ينظر عن كثب إلى المعركة وهي تدور ، وكان مستعداً أن يدفع إليها أبطالا جدداً إذا دعت الحاجة ، ولكن انتظار أبي مسلم لم يطل ، فقد انهزم الجيش الأموى ، وأسر قائده يزيد بعد أن جرح ، فأكرمه أبو مسلم ، وأنزله منزلا حسناً ، وأمر بمداواته حتى بَرَأ ، ثم خيّره بين البقاء معهم داخلا في دعوتهم ، والرجوع إلى نصر على أن يعطى عهد الله وميثاقه أن لا يحاربهم ، ولا يكذب عليهم ، وأن يقول فيهم ما رأى ؛ فاختار الرجوع إلى مولاه وأعطى ذلك العهد . وقال أبو مسلم لمن معه : إن هذا سيرد عنكم أهل الورع وسيفيدكم إفادة كبيرة . فلما قدم يزيد على نصر قال له : لا مرحباً بك ، والله ماظننت القوم

(1) سورة فاطر الآيتان ٤٢ ، ٤٣

استبقوك إلا ليتخذوك حجة علينا . فقال يزيد : هو والله ما ظننت ، وقد استحلفونى ألا أكذب عليهم ؛ وأنا أقول انهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان وإقامة ، ويتلون كتاب الله ، ويذكرون الله كثيرا ، ويدعون إلى ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أظن أمرهم إلا سيعلو ، ولولا أنك مولاى ، أعتقتنى من الرق ، ما رجعت إليك ، ولأقمت معهم (١) .

وقد صدق حدس أبى مسلم ، وصدق ما توقعه نصر ؛ فقد كان ذلك الحادث فتحاً جديدا ، سبّب انهيال الوفود على أبى مسلم ، كما سبّب ألواناً من التراجع فى صفوف نصر ، إذ كان الأمويون يذيعون أن هذه حركة مجوسية تسعى للقضاء على الإسلام وعلى النظام .

أما الحادث الثانى فهو مقدرة أبى مسلم ، الفائقة على استغلال العصبية القبلية فى خراسان ، وقد كان العرب هناك متنافرين متحاربين ، فهناك اليمنيون يقودهم الكرمانى ثم ابنه على من بعده . أما النزاريون فقد انقسموا جبهتين : يقود شيبان الحرورى جبهة ربيعة ، وتدين مضر لنصر بن سيار الوالى الأموى . والعجيب أن القوم أدركوا أن دعوة أبى مسلم خطر عليهم جميعاً ، ولذلك فكروا فى نزع الخلافات التى بينهم ، ووقف الحروب المشتعلة ولو وقفاً مؤقتاً ، ليتفرغ نصر بن سيار وحده أو بمساعدتهم لمحاربة أبى مسلم العدو المشترك ، ولكن أبا مسلم كان يقظاً كبير الفطنة ، ففرق بينهم كلما أوشك شملهم أن يجتمع ، وأوغر صدور طائفة على الأخرى ، وأثار الموتور منهم أن يطلب بالثأر من واتره ، فضمن لذلك أن يظل الخلاف بين قبائل العرب ؛ وأكثر من ذلك فقد تعاون مع فريق منهم وهم اليمنيون ليحارب

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٣٤

مضر ، واجتمع ضد نصر جيشُ أبي مسلم وجيش على بن الكرمانى ، وكان جيش الكرمانى أسبق إلى الاشتباك بجيش نصر ، وتأخر جيش أبى مسلم قصداً ، وبينما كانت الحرب دائرة بين نصر وعلى بن الكرمانى كان جيش أبي مسلم يتسوّر « مرو » ويزحف إلى دار الإمارة وأبو مسلم يتلو قوله تعالى « ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته ، وهذا من عدوه » (١)

وهرب نصر بعد هزيمته فى هذه الموقعة الفاصلة ، ثم تخلص أبو مسلم من زعماء اليمنيين وقد كان منذ حين حليفا لهم ، وواصل زحفه بعد ذلك حتى دانت له خراسان كلها (٢) .

وتقتضينا الأمانة التاريخية أن نقرر أن نصر بن سيار كان ذكياً واعياً ، بذل غاية الجهد فى الوقوف أمام أبى مسلم وصد تياره ، ولكن الظروف كلها كانت تسير على غير ما يهوى وما يرسم ، ذكر المسعودى وغيره من المؤرخين كتباً ثلاثة أرسل بها نصر يستنجد ، ويصور الحالة التى تحيط به ، وفى كل كتاب من هذه الكتب مقطوعة من الشعر ، كأنه أرادها سجلا ، أكثر من النثر خلودا ، وأفصح تعبيراً ، وكان كتابه الأول إلى مروان الخليفة يستنجد به ويستمد منه العون ، وقد ضمنه الأبيات الآتية :

أرى بين الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضِرام
فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودَها جثثٌ وهام

---

(١) القصص : الآية رقم ١٥ .
(٢) ابن الأثير ٥ : ١٤١ وما بعدها .

فإن النار بالعُودَين تُذكَى وان الحرب أولها كلام

أقول من التعجب ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام

فإن يك قومنا أضحوا نياما فقل قوموا فقد حان القيام

ولكن مروان كان مشتغلا بحروب الخوارج بالجزيرة ، وبحربه مع نُعيم بن ثابت بالشام ، وبغير ذلك من الفتن ، فكتب إلى نصر يقول : « إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحسم أنت هـذا الداء الذى ظهر عندك » (١) .

أما الكتاب الثانى فقد وجهه نصر إلى يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان على العراق ، يستمد منه العون ويسأله النصرة ، وقد ضمنه أبياتاً من الشعر يسجل فيها أن الشر الذى نبت فى خراسان سيصل إلى العراق ، إن لم يتعاون الجميع على كبحه والإجهاز عليه . وفيما يلى هذه المقطوعة الشعرية :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تبينتُ الا خير فى الكذب

بأن أرض خراسان رأيت بها بيضا لو افرخ قد حدثت بالعجب

فراخ عامين إلا أنها كبرت لما يَطرن ، وقد سُربلن بالزَّغَب

فإن يطرن ولم يُحتَل لهن بها يُلهِبْن نيران حرب أيما لهب

... ولكن نصراً لم يتلق أى عون من يزيد الذى تشاغل بدفع فتن العراق (٢) .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٠٢

(٢) « « ٢ : ٢٠٣

أما الكتاب الثالث فقد كان إلى مروان الخليفة ، وقد أرسله نصر بعد أن هزم فى خراسان وغادرها ، وقد ذكر فى هذا الكتاب أن هذا الأمر الذى أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضمن كتابه هذه الأبيات الشعرية :

إنّا وما نكتمُ من أمرنا كالثور إذ قرّب للناخع
أو كالتى يحسبها أهلُها عذراء بكراً وهى فى التاسع
كنا نُرقّيها فقد مُزّقت واتسع الخرق على الراقع
كالثوب إذ أنهج فيه البلى أعيا على ذى الحيلة الصانع [1]

وقد نزل نصر بعد أن ترك خراسان (ساوة) من بلاد همدان والرى فمات بها كمداً [2] .

وكان انتقاض خراسان على الدولة الأموية وخضوعها للعباسيين مطلعاً رائعاً لانتصارات الهاشميين ، قوى بعده جانبهم ، وعزت كلمتهم ، ثم سارت الجيوش والفرق من خراسان تغزو وتنتصر ، حتى دان العالم الإسلامى كله - ما عدا الأندلس - بالولاء لآل محمد ، ودالت دولة الأمويين فى بلاد المشرق [3] .

وكان أبو مسلم يتطلع إلى هذا النصر فيطرب وينشد :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدى فى دمارهم والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٠٤

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٠٤

(٣) فصلت كتب التاريخ الأحداث والوقائع الحربية التى جرت لهذه الغاية مما يطول ذكره هنا فليرجع إليها من شاء .

حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غنما فى أرض مسبعة ونام عنها ، تولى رعيها الأسد (١)

ولنترك الآن خراسان بعد العرض الموجز لانتصاراتها لنعود إلى « الحميمة » الرأس المدبر والعقل المفكر ولنعود كذلك إلى « الكوفة » نقطة الاتصال بين الحميمة وخراسان :

ظل محمد بن على بن عبدالله بن العباس يدبر الأمر بالحميمة ، ويرسل الدعاة ويعين النقباء ويشرف منها على سير الأمور بالكوفة ، وعلى مايدور بخراسان ، وتوفى أبوه على بن عبدالله سنة ١١٧ هـ فلم تغير وفاته من الأمر شيئا ، فقد سبق القول أنه كان زاهداً بعيداً عن متاعب السياسة والكفاح ولذلك ظل محمد دءوباً على العمل ، دون أن يثير حوله شك الأمويين أو تفوحَ لهم منه شبهة ، وفى سنة ١٢٥ هـ توفى محمد بن على بعد أن عهد إلى ابنه ابراهيم بالأمر ، وكانت الدعوة تسير قُدُماً ، وتنتقل من نجاح إلى نجاح ، وتولى مروان بن محمد عرش الخلافة الأموية عقب ذلك ، ولكنه أحس أن الدنيا تنتقض عليه ، وأن عرشه يهتز من تحته ، وأن خراسان على وجه الخصوص تضطرب ، وقد فقد سلطانه عليها ، فحاول جاهداً أن يعرف مَن الرأس المدبر ، وباسم مَنْ تقوم هذه الحركة العاتية الطاغية ، ولكنه فشل ؛ فكل شيء كان محكم التدبير متين الحبك ، ولم يظهر له الأمر إلا بعد فوات الأوان ؛ يحكى المسعودى (٢) أن بعض أصحاب مروان ، ممن وكل بالطرق ، أحضروا بين يديه رسولا من خراسان ، يحمل كتاباً من

---

(١) ابن خلكان ١ : ٢٨٢
(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٠٤

أبي مسلم إلى إبراهيم الإمام يخبره فيه خبره ، وما آل إليه أمره ؛ فقال مروان للرسول : لا ترع .. كم دفع لك صاحبك ؟ قال : كذا وكذا ؛ قال: فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وإنما دفع إليك شيئاً يسيراً ، وامض بهذا الكتاب إلى إبراهيم ، ولا تعلمه بشيء مما جرى ، وخذ جوابه فائتني به ؛ ففعل الرسول ذلك ، فتأمل مروان جواب إبراهيم إلى أبي مسلم بخطه ، يأمره فيه بالجد والاجتهاد والحيلة على عدوه ، وأن يقتل من يشك فيه ، أو من يتكلم العربية بخراسان ، وغير ذلك من أمره ونهيه ، فكتب مراون إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك ، يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء ، فيسير إلى الحميمة ليأخذ إبراهيم بن محمد ، فيشد وثاقه ويبعث به إليه فى خيل كثيفة ؛ ففعل الوليد ما أمر به ، وجاء العامل إبراهيم وهو جالس بمسجد القرية ، وهو ملفَّف ، فقبض عليه ، ونفذ أمر الخليفة ، وكان ذلك فى بدء سنة ١٣٢ ﻫ

وقد أدرك إبراهيم عاقبته ومصيره ، فولى أخاه أبا العباس عهده ، وعقد له من بعده ، وأمره بالمسير إلى الكوفة ، وأمر أهل بيته أن يسيروا معه ، ويسمعوا له ويطيعوا ، ونعى إليهم نفسه . فسار أبو العباس عبد الله ابن محمد ومعه أبو جعفر أخوه ، وداود وعبد الله عماه ، وعيسى بن موسى ابن محمد بن على وغيرهم إلى الكوفة [1] ، وانتهى بذلك دور الحميمة بعد أن تركت فى التاريخ ذكراً خالداً .

وأما إبراهيم الإمام فقد سيق إلى مروان حيث حبس فى سجن حرّان ، مع جماعة من أعداء مروان بن محمد ، ولم يزل فى سجنه حتى مات ، ويقال

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٥

إن رأسه جعل فى جراب فيه نُورَةٌ مسحوقة، فاضطرب ساعة ثم خمد [1].

وعما قيل فى رثائه :

قد كنت أحسبنى جلداً فضعضعنى قبرٌ بحران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم بين الصفائح والأحجار والطين

هذا ما كان من أمر الحميمة. أما ما كان من أمر الكوفة، فإن أول من قام بالأمر فيها ميسرة مولى بنى العباس، وكان من كبار أعوانه فيها شيخ عظيم يدعى بكر بن ماهان، وكان داهية واسع الثراء والجاه. فساعد آل البيت بجاهه وماله. فلما مات ميسرة فى عهد محمد بن على، أقامه محمد مقام ميسرة بالكوفة، وأصبح قائدَ الدعوة فى هذه المنطقة، وحلقة الاتصال بين زعماء الحميمة ونشاط خراسان.

وكان بكر بن ماهان قد زوّج ابنته من حفص بن سليمان المعروف بأبى سَلمَة الخلاّل، فلما مرض بكر وحضرَته الوفاةُ أيام ابراهيم الإمام كتب بكر إلى ابراهيم يقول :

انه كتب فى أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا، وأنه قد استخلف حفص بن سليمان..

فاستجاب ابراهيم لرأى بكر وكتب إلى أبى سلمة يأمره القيام بأمر أصحابه ؛ وكتب إلى أهل خراسان أنه قد أسند أمرهم إليه [2] ؛ وعندما توالت الانتصارات للخراسانين وأصبح واضحاً أن الفوز للهاشميين، صار أبو سلمة يلقب «وزير آل محمد». وكان أبو مسلم يكاتبه : للأمير حفص بن سليمان

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٠٥ والنورة : الجير.
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٤.

وزير آل محمد من عبد الرحمن بن مسلم أمير آل محمد[1] .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الوزير أخذ لقب الوزارة قبل أن يأخذ أحد من آل محمد لقب الخلافة .

ومن الطريف أن الكوفة التى أنشئت لتكون نقطة اتصال بين خراسان والحميمة ، أصبحت فى أوائل سنة ١٣٢ هـ . نقطة الاتصال والالتقاء بين الجيوش الزاحفة من خراسان والهاتفة لآل البيت ، وبين آل البيت النازحين من الحميمة ، أوْ قُل الهاربين منها .

وأصبح أبو سلمة نفسه نقطة الاتصال ؛ فلقد سارت الجيوش الموالية للهاشميين إلى الكوفة ، بعد أن انتصرت على ابن هبيرة فى العراق ، وألجأته إلى واسط ، فلما وصلت هذه الجيوش الكوفة لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ١٣٢ هـ ، أظهروا أبا سلمة وسلموا إليه الرياسة ، وحوالى ذلك التاريخ وصل الكوفة سراً ركبُ الهاشميين القادم من الحميمة حيث وضعوا مقاليد أمورهم فى يد أبى سلمة .

وسنذكر فيما بعد تفاصيل الأحداث التى جرت فى هذه الفترة الوجيزة ولكنا هنا نسارع فنقول : انه فى خلال أيام من ذلك الالتقاء بايع الجماهير أبا العباس بالخلافة وابتدأ أمر الدولة العباسية فى الظهور .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٥ .

ثانيا :

الدولة العباسية فى عصرها الأول

صادف العباسيون كثيرا من المتاعب ، وألوانا من المشاق والكفاح ، ولم يضنوا بالأرواح الطاهرة ولا بالدم الزكى فى سبيل إقامة دولتهم ، ولكن قيامها لم يكن نهاية الكفاح ، ولم يضع حدا للتعب والعناء ، بل استمر هذا الجهاد بنفس العنف والقسوة للمحافظة على هذه الدولة ورعاية شئونها؛ وكانت تتجـــدد المشكلات أمام الخلفاء العباسيين ، وكلما تخطوا مشكلة برزت أخرى .

وهناك حقيقة ينبغى إبرازها وهى أن توالى الثورات والفتن فى هذه الدولة جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة ، وأنه ينبغى للمحافظة عليها أن يقتلوا كل من حامت حوله شبهة المروق ، أو التمرد ، وهكذا تلاحقت الحركات ، وبالتالى توالت حملات الإيقاع والتنكيل ، وفيما يلى صورة موجزة لأحداث هذا العصر :

١ ـ الأمويون :

لم ينس زعماء الدولة الجديدة عقب انتصارهم ضحاياهم من الهاشميين الذين اعتدى عليهم الأمويون ، وأزهقوا أرواحهم ، وحينما تضرعت ابنة مروان بن محمد إلى صالح بن على هاتفة : نحن بناتك وبنات أخيك ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا ؛ أجاب : لا نستبقى منكم أحدا ، رجلا ولا امرأة ؛ ألم يقتل أبوك بالأمس ابنَ أخى ابراهيم بن محمد ؟ ألم يقتل

هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين ، وقتل امرأة زيد بالحيرة بيد يوسف بن عمرو الثقفى ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد ؟ ألم يقتل عبد الله بن زياد مسلم بن عقيل ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على بيد عمر بن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ . . . . فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟ (١) .

وهكذا كان ينقم العباسيون من الأمويين ، ومن أجل هذا كان انتقامهم مرا قاسيا ، يقصدون به أن يثأروا لقتلاهم ، وأن يضمنوا ألا تقوم لدولة الأمويين قائمة ، أو يرتفع لها صوت ، وقد عقد الأصفهانى (٢) فصلا خاصا عن ذكر من قُتل فى عهد أبى العباس السفاح من بنى أمية ، كما خصص ابن الأثير (٣) فصلا مماثلا لهذا الغرض ، وفيما يلى طرف من ذلك :

لما استمرت الهزيمة بمروان بن محمد وعبد الله بن على يلاحقه . أقام هذا بالرَّقة ، وأنفذ أخاه عبد الصمد فى طلبه ، فصار إلى دمشق ثم أتبعه جيشا عليه أبو اسماعيل عامر الطويل من قواد خراسان فلحقه وقد جاز مصر فى قرية تدعى بوصير فقتله ، ووجه رأسه إلى عبد الله بن على ، فأنفذه عبد الله إلى أبى العباس ، فلما وضع بين يديه خر لله ساجدا ، ثم رفع رأسه وقال : الحمد لله الذى أظهرنى عليك ، وأظفرنى بك ، ولم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك أعداء الدين ، ثم تمثل بقول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ تروينى (٤)

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٠٧ (٢) الأغانى ٤ : ٩١ ـ ٩٤

(٣) الكامل فى التاريخ ٥ : ١٦١ وما بعدها

(٤) الأغانى ٤ : ٩١ ـ ٩٢ : ويروى أنه بعد أن قتل مروان واحتوى عامر على عسكره ، دخل هذا إلى الكنيسة التى كان فيها بنات مروان ونساؤه ، فقعد على فراشه ، وأكل=

ودخل سَديف الشاعر على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبدالملك، وقد أكرمه السفاح، فقال سديف:

لا يغرَّنك ما ترى من رجال　　إن تحت الضلوع داء دويًا
جرد السيف وارفع العفو حتى　　لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان: قتلتني يا شيخ.. ودخل السفاح، وأُخِذ سليمان فقُتل[1]

واستطاع عمرو بن معاوية سليل بيت أبي سفيان أن يحصل على عفو السفاح عنه وعمن معه، ولكن ما كاد سديف يعرف هذا حتى جدد سخط أبي العباس بقصيدته التي يقول فيها:

كيف بالعفو عنهم وقديما　　قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحي بن زيد　　يا لها من مصيبة وترات
والإمام الذي أُصيب بحرا　　ن إمام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لاعفا الذنـ　　ـبَ لمروان غافرُ السيئات

فاستشاط أبو العباس غيظاً، وجدد فيهم القتل والتنكيل.

وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بني أمية عليهم الثياب الموشاة، وأمر بهم فجُرُّوا بأرجلهم فألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب[2].

ودخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي بالشام،

= من طعامه. فقالت له ابنة مروان الكبرى: يا عامر: إن دهراً أنزل مروان عن فرشه، حتى أقعدك عليها تأكل من طعامه ليلة قتله، محتوياً على أمره، حاكما في ملكه وحرمه وأهله، لقادر أن يغير ذلك. فأنهى هذا الكلام إلى السفاح، فاستهجن ما فعله عامر، وكتب إليه يوبخه. شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٢٠٥

(١) الأغاني ٤ : ٩٤ وابن الأثير ٥ : ١٦١

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٦١

وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام فأقبل عليه شبل فقال :

أصبح الملك ثابت الآساس ... بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها ... بعد ميل من الزمان وباس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقلة وغراس [1]
ذلّها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسى
ولقد غاظنى وغاظ سوائى ... قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها اللـ ... ـه بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيدا ... وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذى بحران أمسى ... ثاويا بين غربة وتناسى

فلما سمع عبد الله ذلك أمر بهم فقتلوا جميعا ، وبسطت عليهم الانطاع وجلس فوقها الخليفة ليأكل طعامه ، وهو يسمع أنين بعضهم .[2]

ولم يكتف العباسيون بالتنكيل بالأحياء بل أمر عبد الله بن على بنبش قبور بنى أمية بدمشق فنبش قبر معاوية ، ويزيد ، وعبد الملك ، وهشام ، فلم يوجد فى القبر إلا العضو بعد العضو ، إلا هشام بن عبد الملك ، فإنه وجد صحيحاً لم يَبْلَ منه إلا أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح ، مثلما فعل هذا بزيد بن على بن الحسين منذ بضع سنوات[3]

---

(١) الرقلة : النخلة فاتت اليد ، والمقصود بالرقلة والغراس من شب منهم ومن لايزال طفلا .
(٢) المرجع السابق : وقد وردت هذه القصيدة فى الأغانى ٤ : ٩٢ـ٩٣ منسوبة إلى سديف كما ذكرت القصة فى الأغانى والفخرى ص ١٢٩ على أنها وقعت أمام الخليفة .
(٣) ابن الأثير ٥ : ١٦١ .

ب ـ العلويون :

احتمل العلويون كما قلنا عبء الكفاح الطويل الشاق ، ولكنهم فى طرفة عين وجدوا أنفسهم صفر اليدين ، بل زاد غيظهم لأن غيرهم جنى ثمار كفاحهم ، والغرسَ الذى سقوه بدمائهم ، ومن أجل هذا قامت قائمتهم ، وهبوا هنا وهناك يزعزعون هذا البنيان ، ويحاولون أن يحطموا أركانه ، ولكن هيهات ، لقد كان بنيانا متين الأساس ، حديث التشييد . ولم يكن هدّه سهلا ، فاصطرعت القوتان ، لا يألو العلويون جهدا أن يثيروا العصيان والتمرد ، ولا يدخر العباسيون قوة فى التنكيل بهم ، حتى ان المؤرخين يذكرون أن العلويين قاسوا من قسوة العباسيين ، أضعاف ما احتملوه من طغيان الأمويين ، وفيما يلى الخطوط الهامة لهذا الصراع العنيف :

محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية : كان محمد من سادات قريش ، وأكثر رجالهم فضلا وشرفا وعلما ، وقد امتنع عن مبايعة السفاح كما امتنع هو وأخوه ابراهيم عن البيعة للمنصور ، وقد اختفى محمد منذ ظهور أمر العباسيين ، وجدّ هؤلاء فى البحث عنه دون جدوى ، ولما اشتد خوف المنصور منه ، نكل بأبيه عبد الله المحض ، وحبس آل الحسن كلهم ، فدفع ذلك محمدا إلى الظهور وإعلان ثورته فى شهر رجب سنة ١٤٥ هـ ، وقد دخل المدينة ومعه بعض أعوانه ، فانهزم أمامهم أميرُ المدينة ، وأطلق سراح المسجونين ، واستتب لمحمد الأمر فيها .

وكان المنصور فى ذلك الحين مشغولا ببناء بغداد ، فأوقف العمل ، وسارع ليكون قريباً من الثائر ، وقد استطاع بمهارته أن يسدّ عليه مسالك النجاح ، فأقفل أبواب الكوفة لأن أهلها شيعة علويون يُخشى أن ينضموا

محمد بن عبد الله ، كما أخذ يعمىّ الأخبار على أهل خراسان خوفاً من الانضمام بعواطفهم أو بسيوفهم للثائر العلوى .

وأعد لمحاربته جيشاً بقيادة ولى عهده فى ذلك الحين عيسى بن موسى وقال له : امض أيها الرجل ، فوالله ما يراد غيرى وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص أنا ، فاستجاب عيسى وسار بجيشه ، ودارت رحى الحرب ، فانهزم العلويون وأعوانهم فى رمضان من العام نفسه ، وخرّ محمد صريعا بعد أن أبدى ضروباً من البسالة والإقدام .

وتمتاز هذه الثورة العلوية عن غيرها من الثورات ، بالكتب الرائعة التى تبودلت بين أبى جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله ، وقد شحنت بالحجج السياسية والمنطقية والدينية ، وقد دافع كل منهما فى كتبه إلى صاحبه عن وجهة نظره ، وبيّن أحقيّته بخلافة المسلمين ، ونَقَض حجج خصمه ، ولم تُجْدِ هذه الكتب من الناحية العملية ، بل كان منطق السيف أقوى ، ولكنها ظلت بالرغم من هذا سجلات هامة ، يرجع إليها الدارسون والباحثون . وكان المنصور يتولاها بنفسه ، فلما عرض عليه وزيره أبو أيوب أن يتولى الإجابة عنه ، قال : يا هذا ، ليس ذلك إليك ، إذا نحن تقارعنا عن الأحساب فدعنى وإياها . . (١)

ابراهيم بن عبد الله : هو أخو النفس الزكية السالف الذكر ، وكان حصيفا داهية ، اختفى عن عين المنصور ولكن المنصور لم يختف عن عينه ، يحكى

(١) الجهشيارى ص ١١٥ وانظر عن هذه الثورة وعن الكتب المتبادلة بين المنصور ومحمد ، ابن الأثير ٥ : ١٩٦ وما بعدها ومروج الذهب ٢ : ٢٣٧ وما بعدها . والفخرى ص ١٤٢ وما بعدها . والطبرى الجزء التاسع . وصبح الأعشى الجزء الأول ص ٢٣١ وما بعدها .

ابن طباطبا [١] أن ابراهيم كان فى حالة تغيبه يحضر إلى عسكر المنصور متخفياً ، وربما جلس على السماط . وقد نزل ابراهيم الكوفة ليقوم بدعوته فيها ، ولكن المنصور عرف أمره فبث حوله الأرصاد والعيون ، فلم يجد بدًّا من الحيله لمغادرتها إلى البصرة فأرسل رجلا من أتباعه يسمى سفيان ابن زيد إلى المنصور فقال له : يا أمير المؤمنين، تؤمنني وأدلك على ابراهيم؟ قال : أنت آمن ، وأين هو ؟ قال بالبصرة فوجّه معي برجل تثق به ، واحملني على دواب البريد ، واكتب إلى عامل البصرة حتى أدله عليه فيقبض عليه ، فوجه معه أبا سويد ، وخرج سفيان بن زيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف ، وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركبا مع أبي سويد على خيل البريد ، فلما وصل البريد إلى البصرة قال سفيان لأبي سويد : انتظر حتى أتعرف خبر الرجل ، ومضى ولم يعد ، وكان الغلام الذى عليه الجبة الصوف هو ابراهيم بن عبد الله [٢] .

وأخذ إبراهيم يدعو إلى نفسه بالبصرة ، وانتهز فرصة اشتغال المنصور بحرب أخيه فتوسع فى فتوحاته ، حتى امتدت إلى الأهواز وواسط ، ولكن ما كاد عيسى بن موسى ينتهى من حرب محمد بن عبد الله ، حتى جاءه كتاب المنصور يستحثه بالقدوم ليتولى حرب إبراهيم ، فسار إليه وهزم جيشه وقتله قبيل نهاية ذى القعدة من العام الذى قُتل فيه أخوه [٣] .

الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب : كان الحسين ابن على من سادة رجال بنى هاشم وفضلائهم ، وكان قد عزم على

(١) الفخرى ص ١٤٤ .
(٢) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٤٥٣ — ٤٥٤ .
(٣) انظر المراجع السابقة .

الخروج ، واتفق معه جماعه من أعيان أهل بيته ، ثم وقع من عامل المدينة تهضم لبعض آل على ، فثار آل أبي طالب بسبب ذلك ، واجتمع عَلَى الحسين ناس كثيرون فكسروا السجون وأخرجوا من بها ، وبويع الحسين بن على فلما عرف الهادى خليفة ذلك الوقت خبر هذه الثورة ، أرسل إليهم محمد ابن سليمان بن على فى عسكر فالتقوا بموضع يقال له « فخ » بين مكة والمدينة فاقتتلوا قتالا شديداً ، ثم قتل الحسين بن على وحمل رأسه إلى موسى الهادى.[1] ولم تنته موقعة فخ عند هذا الحد بل فرّ منها رجلان من العلويين كان لهما شأن كبير فى التاريخ فيما بعد على ما سيلى إيضاحه :

يحيى بن عبد الله : هو أحد الرجلين اللذين فرّا فى موقعة فخ، وقد سار إلى بلاد الديلم ، ودعا لنفسه ، فاشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، وأتاه الناس من الأمصار ، وكان ذلك فى عهد الرشيد ، فاغتمّ الرشيد بذلك، وندب له الفضل بن يحيى فى خمسين ألفاً ، وولاه جرجان وطبرستان والرّى وغير ذلك ، فتوجه الفضل بالجنود ، فلطف بالثائر العلوى وحذره وخوفه ورغّبه وبسط أمله ، وكاتب صاحب الديلم وبذل له ألف ألف درهم على أن يسهّل له موافقة « يحيى » على الصلح ، فوافق يحيى على ذلك على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه ، يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وجلة بنى هاشم ومشايخهم ، فأجابه الرشيد إلى ذلك وسُرّ به ، وعظمت بذلك منزلة الفضل عنده ، وسير الأمان مع هدايا وتحف ، فقدم يحيى مع الفضل بغداد ، فلقيه الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له بمال كثير[2] .

---

(١) الفخرى ص ١٦٦ — ١٦٧ ، ابن الأثير ح ٦ ص ٣٠ ، مروج الذهب ح ٢ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٢) ابن الأثير ح ٦ ص ٤١ .

ثم خاف الرشيد منه بعد ذلك فقبض عليه وسجنه ، وسعى أحد الزبيريين بالسجين العلوى وقال : إنه يدعو لنفسه فجمع الرشيد بينهما فأنكر يحيى ما ادّعاه الزبيرى ، وطلب منه أن يحلف فقال الزبيرى : والله الطالب الغالب . . . . ولكن يحيى قاطعه قائلا : دع هذه اليمين فإن الله إذا مجّده العبد الحانث لم يعجّل عقوبته ، ولكن احلف بيمين البراءة ، وقل برئت من حول الله وقوته ، ودخلت فى حول نفسى وقوتها إن كان . . . . فارتاع الزبيرى من هذه اليمين وتردد ، ولكن الرشيد سأله : ما معنى امتناعك إن كنت صادقا .؟. ولم يجد الرجل بدًّا من الحلف ففعل ، ولكن ما انقضى النهار حتى مات [1] .

وكان البرامكة يحسون أنهم مسئولون عن سلامة يحيى ، لأنهم الذين استنزلوه من حصونه ، ولهذا سهلوا له سبيل الخروج من بغداد بعدما توثقوا منه أنه لن يقوم بنشاط ما ، وقد نقم الرشيد منهم ذلك فكان هذا من أسباب الإيقاع بهم على ماسيأتى ، أما يحيى بن عبد الله فقد أعيد القبض عليه وقتله الرشيد شر قتلة .

ادريس بن عبد الله : هو الرجل الثانى الذى فر من موقعة « فخ » وقد ولّى شطره تجاه مصر وعبرها حتى استقر فى شمال أفريقيا بالمغرب الأقصى وقد التف حوله البربر واعتنقوا دعوته ، فأنشأ هناك الدولة الادريسية ، والبربر أشداء أقوياء ، ثم هم بمنأى عن بغداد عاصمة الخلافة ، ولذلك تردد الخليفة فى أن يرسل له جيشاً لمحاربته ، خوفا على الجيش فى هذه البقاع الجرداء ، ولأنه ظن أن جيشه لو هزم لكان فى ذلك إغراء لإدريس

(١) الفخرى ص ١٧١ .

وحثا له على مواصلة الهجوم على الدولة فى مصر وتجاه الشام ، ويقال إن الرشيد لجأ إلى حيلة غير كريمة ، فبعث رجلا داهية اسمه سليمان بن جرير تظاهر بالخروج على العباسيين ، واللجوء لإدريس فاطمأن له إدريس وقربه وأخذ بسحر بيانه ، وبهذا أتى إدريس من مأمنه فقد دس له الرجل السم فقتله ، غير أن القضاء على إدريس لم يكن قضاء على الدولة الإدريسية ، فإن البربر أجمعوا أمرهم على أن يظلوا على استقلالهم وكان إدريس قد ترك أمةً حاملا ، فانتظروا وضعها فلما وضعت ولدا ذكرا أسموه إدريس ، ودانوا له بالطاعة ، كما دانوا من قبل لأبيه ، وكانت الدولة الإدريسية أول دولة تنشق من العالم الذى كان يدين للعباسيين بالولاء ، ولم يجد الرشيد بدا من أن يُقطع إبرهيم بن الأغلب منطقة تونس ليقف فى وجه الأدارسة إذا عزموا الزحف على مصر والشام ، وقد تكونت فيما بعد دولة الأغالبة على أثر هذا الاقطاع .(١)

محمد الديباج : هو محمد بن جعفر الصادق ، وعلى الرغم من تسامح المأمون مع العلويين وحسن تقديره لهم ، فقد خرج عليه محمد الديباج ودعا لنفسه بمكة ، فاستجاب له أهل مكة وبايعوه بالخلافة وسموه أمير المؤمنين ، وكان بعض أهله قد حسّن له ذلك . وكان محمد بن جعفر شيخاً عالما يُقرأ عليه العلم وقد روى عن أبيه علماً جما ، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بنى عمه فلم تحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون إليهم عسكراً فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه .(٢)

(١) انظر مروج الذهب ح ٢ ص ٢٣٨ وأبا الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ٢ : ١٣
(٢) الفخرى ص ١٩٥ .

جـ ـ ثورات أخرى وفتن :

حفل العهد العباسى بألوان من الثورات ، وصنوف من الفتن السياسية والدينية والعنصرية ، وكان الفرس مصدراً هاماً لمثل هذه الحركات ، إذ أن الكثيرين منهم أنفوا أن يخضعوا لسلطان العرب ، كما أن الكثيرين منهم لم يفتحوا قلوبهم للإسلام ولم يتقبلوه تقبلا حسنا .

وبالإضافة إلى حركات الفرس نشط الخوارج فى ذلك العهد بعد أن ضعضعتهم قسوة الأمويين وشدة بأسهم ، والخوارج كما هو معروف عنهم لا يأبهون بالموت ولا يرعبهم سيل الدماء ، وجماعة كهؤلاء يرهقون أعداءهم ويقلقون من يتصدى لهم .

وفى هذا الفصل وصف موجز لبعض الحركات التى هبت فى وجه العباسيين وشغلتهم كثيراً :

١ ـ الخوارج : كانت البلاد الإسلامية الواقعه فى شمال افريقيا مسرحا لحركات الخوارج خلال مدة أبى جعفر المنصور ، وقد عانى عمر بن حفص والى هذه البلاد هو ورجاله ألوانا من اعتداءات الخوارج وتنكيلهم . وقد استطاع أبو حاتم الخارجى أن يحاصر القيروان حتى اشتدت الحال على أهلها فلم يبق فى بيت مالها دينار ، ولا عند أهلها شىء من طعام ، ودام الحصار ثمانية أشهر ، وكان الجنود يخرجون فيقاتلون الخوارج طرفى النهار حتى جهدهم الجوع ، وأكلوا دوابهم وكلابهم ، وقد قتل عمر بن حفص فى أحد معاركه مع الخوارج ، فلما عرف المنصور ذلك أرسل يزيد بن حاتم فى ستين ألف فارس فالتقى بالخوارج وبمن معهم من البربر فهزمهم

هزيمة شنيعة ، وشتت جموعهم ، وقتل منهم نحوا من ثلاثين ألفا ، وكان جند الخليفة يقتلون الخوارج ويقولون : يالثارات عمر بن حفص [1].

وفى عهد المهدى ثار عبد السلام بن هاشم اليشكرى بالجزيرة ، واشتدت شوكته ، وكثر اتباعه ، وهزم عسكر المهدى ، وقتل قائد العسكر ، فأعد المهدى لحربه جيشاً بقيادة شبيب بن واج ، ومنح كل فارس فى هذا الجيش ألف درهم معونة وقد استطاع هذا الجيش أن يتغلب على الثائر ويقتله [2].

ثم ثار بالموصل خارجى اسمه ياسين من بنى تميم ، فخرج إليه عسكر الموصل فهزمهم ، وتغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة ، فوجه إليه المهدى أبا هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن أعين لحارباه ، فصبر لهما حتى قتل مع عدة من أصحابه وانهزم الباقون [3].

وفى عهد الرشيد هبت للخوارج عاصفة قوية كان يقودها رجل ذو بأس شديد ، أعاد للخوارج عهدهم الزاهر فى أيام بنى أمية .. ذلك هو الوليد ابن طريف الذى يقول عن نفسه :

أنا الوليد بن طريف الشارى قسورة لا يصطلى بنارى

وقد ثار الوليد فى الجزيرة سنة ١٧٨ هـ واشتدت بها شوكته ، وكثر أتباعه ، وهزم عدة من جيوش الرشيد ، فاتجهت للقضاء عليه عناية الخليفة ، فاختار بطلا من رجاله هو « يزيد بن مزيد » وهو ابن أخى معن بن زائدة ؛ والوليد بن طريف ويزيد بن مزيد كلاهما من وائل ، وكلاهما فى الحرب ليث غاب . قال فيهما أحد الشعراء :

(١) ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٢١ ، ٢٢٣ .
(٢) « « جـ ٦ ص ١٩ .
(٣) « « جـ ٦ ص ٢٦ .

وائل بعضهم يقتّل بعضـــا   لا يفل الحديدَ إلا الحديد

وقد جعل يزيد يخاتل الوليد ويمكر به ، دون أن يوقع به ، ودون أن يظهر له عنف القادة وقسوتهم، ولكن مسلم بن الوليد يلجأ إلى حسن التعليل فيصف ذلك بقوله :

يفتر عند افترار الحرب مبتسما   إذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج فى يوم ذى رهج   كأنه أجل يسعى إلى أمل
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به   كالموت مستعجلا يأتى على مهل

ولكن الرشيد غضب لهذا التوانى من يزيد وكتب إليه « لو وجهت أحد الخدم لقام بأحسن مما تقوم به ، ولكنك مداهن متعصب ، وأقسم بالله إن أخرت منا جزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك ، فاستعدّ يزيد للّقاء الفاصل ، والتقى الجيشان، وفى وسط المعمعة أحس يزيد بعطش قاتل ، ولكنه رمى بخاتمه فى فيه وجعل يلوكه ويقول : اللهم إنها شدة شديدة فاسترها . وكان له النصر . ويقال إن أسد بن يزيد كان شديد الشبه بأبيه لا يفصل بينهما إلا ضربة فى وجه يزيد فكان أسد يتمنى مثلها وقد تحققت أمنيته فى تلك المعركة فأصابته ضربة كأنما خطت على ضربة أبيه . وخر الوليد قتيلا فى هذه المعركة فرثته أخته ليلى بقصيدة مؤثرة تقول فيها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى   ولا المال إلا من قنا وسيوف
حليف الندى ماعاش يرضى به الندى   فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا   فديناك من فتياننا بألوف
ومازال حتى أزهق الموتُ نفسه   شجا لعدو أو نجا لضعيف

ألا يا لقوم للحمام وللبـلى ... وللأرض همت بعده برجوف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى ... وللشمس لما أزمعت لكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه ... إلى حفرة ملحودة وسقوف
عليه سلام الله وقفا فإنني ... أرى الموت وقاعا بكل شريف[1]

٢ — الراوندية : تنسب هذه الطائفة إلى مدينة « راوند » وهى بالقرب من أصفهان ، وقد كانت هذه المدينة مهد دعوة الراوندية ، ومن ثم نسبوا إليها .

وكانت هذه الجماعة تقصد إلى أن تثأر لأبى مسلم الخرسانى ، ولكنها اتخذت طريقاً ملتويا ترمى به أن تعمىّ على الخليفه فتُظهِر له الاجلال والعبودية وتؤلّهه لعله يرضى عن ذلك ؛ فيثور الناس عليه ، وكانوا يقولون بتناسخ الأرواح ، وعبادة المنصـور ، وأنه الذى يطعمهم ويسقيهم ، وقد جاءوا إلى قصر المنصور فطافوا به ، وقالوا : هذا قصر ربنا ؛ فأخذ المنصور رؤساءهم وحبس منهم مائتى رجل ، وقد ثار الباقون عليه فخرج لهم المنصور ؛ ويبدو أنه ظن أنهم ربما امتنعوا عن أن يمسوه بسوء وهو إلههم كما يزعمون . ولكنهم تكاثروا عليه وكادوا يقتلونه وفى هذا الوقت قفز رجل ملثم ، وقاتل بين يدى المنصور قتالا شديداً ، وأبلى بلاء حسنا ، ولم يزل يقاتل حتى تكشف الحال عن نصر له مظفر ، وعن هزيمة ساحقة للراوندية ، وحينئذ قال له المنصور : من أنت ؟ قال طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، فقال المنصور : أمّنك الله على نفسك ومالك وأهلك ، فمثلك يصطنع ، وأحسن إليه ، وولاه اليمن . وكان

(١) ابن الأثير ٦ : ٤٧ — ٤٨ بتصرف والأغانى ١١ : ٨ — ٩

معن مستتراً من المنصور بسبب قتاله مع ابن هبيرة ضد جيوش العباسيين [1]

وقد حدثت هذه المعركة فى مدينة « الهاشمية » [2] ولذلك كان يطلق على هذه المعركة « يوم الهاشمية » وقد ورد ذكر ذلك اليوم فى قصيدة مروان بن أبى حفصة التى منحه عليها معن بن زائدة ، مائة ألف درهم . ويروى المسعودى [3] أن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له : هيه يامعن ، تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم من أجل قوله :

معن بن زائدة الذى زيدت به — شرفا على شرف بنو شيبان
إن عدَّ أيام الفعال فإنما — يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال : كلا ياأمير المؤمنين ، إنما أعطيته لقوله :

مازلتَ يوم الهاشمية معلنـا — بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه — من وقع كل مهند وسنان

فقال المنصور : أحسنت يامعن [4] .

٣ — الزنادقة : كان يطلق لفظ زنديق على من اعتنق مذهب المانوية (أو الثنوية أى النور والظلمة) ثم اتسع معنى هذا اللفظ حتى أُطلق على كل ملحد أو مبتدع ، ثم تطور مرة أخرى فأصبح يطلق على من كان مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة ، أو من كان يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب وكان التظرف والاستهتار سمة هؤلاء حتى قلدهم فيها من ليس على مذهبهم كأبى جعفر بن زياد الذى قيلت فيه الأبيات التالية :

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٨٧ — ١٨٨ ، الفخرى ١٣٨ — ١٣٩
(٢) اقرأ شيئاً عن مدينة الهاشمية ص ٥٧ من هذا الكتاب .
(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٣١ — ٢٣٢
(٤) انظر أيضا الأغانى حـ ٩ ص ٤١

يا ابن زياد يا أبا جعفر أظهرت دينا غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ فى باطن إسلام فتى عفّ
لستَ بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظرف

أما الزندقة التى شغلت العباسيين وتفشت بين رعاياهم ، فقد وصفها الخليفة المهدى لابنه الهادى بقوله : يا بنى ، إذا صار الأمر إليك ، فتجرد لهذه العصابة ، يعنى عصابة مانى ؛ فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش ، والزهد فى الدنيا ، والعمل للآخرة ، ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجا ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطريق لينقذوهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله . فإنى رأيت جدى العباس رضى الله عنه فى المنام قلدنى سيفين لقتل أصحاب الاثنين [1] .

وقد ظهرت الزندقة قبل أن يظهر الإسلام ، فالزندقة ليست خروجا على الإسلام خاصة ، وإنما هى خروج على جميع الأديان ، وعلى كل القيم والمعايير الأخلاقية السليمة .

وأشهر فرق الزندقة تنسب إلى مزدك ، الذى ظهر فى أيام قباذ ابن فيروز ، ودعا الناس إلى الزندقة ، وإباحة الحُرَم ، وألا يمنع أحد منهم أخاه ما يريده من ذلك [2] .

(1) الطبرى ١٠ : ٢ : ٤ وابن الأثير ٦ : ٣٥
(2) الأغانى ٨ : ٦١

وظهر من الزنادقة في العهد الأموى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد ، والجعد بن أدهم مؤدب مروان بن محمد ، ثم ظهر حماد عجرد ، وهو كما يقول أبو الفرج الأصفهاني [١] « من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، إلا أنه لم يشتهر في أيام بني أمية شهرته في أيام بني العباس ، وكان خليعاً ماجناً متهماً في دينه ، مرمياً بالزندقة ، وفي خبر آخر يقول : « كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم حمادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يرمون بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم بها حمادْ عجرد » [٢] .

وكان أبو نواس زنديقاً أيضاً ، ولكنه يبرأ من الزندقة ، ويقول إن السبب في أنه رمى بها أنه قال مرة لحماد :

ادع غيرى إلى عبادة الاثنين ... فإنى بواحد مشغول

ولكن حمادا أذاع هذا البيت ونسبه إلى بشار بعد أن حرفه .

ادع غيرى إلى عبادة الاثنين ... فإني عن واحد مشغول

وحاول أبو نواس أن يظهر براءته ولكنه لم يتمكن ، فألقى به في حبس الزنادقة ، وعن ذلك الحبس يقول أبو نواس : كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره ، حتى حبستُ في حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين ، يقرءون به في صلواتهم [٣] .

(١) الأغاني ١٣ : ٧٠
(٢) المرجع نفسه .
(٣) الأغاني ١٣ : ٧١

وكان الزنادقة يدينون بما اعتنقوه ؛ فأفكارهم عندهم عقيدة ودين ، ومن أجل هذا كانوا يعترفون بها إذا سئلوا عنها ، وإن كان فى ذلك الاعتراف حتفهم ، ولقد قُدّم للمهدى يوماً زنديق فسأله المهدى فاعترف، فاستتابه فأبى أن يتوب ، فضَرب عنقه وأمر بصلبه (١) .

ويقول الجهشيارى (٢) إن ممن يعتقد الزندقة قوماً يرون أن جحد ما يدينون به محظور ، وأن التقية غير جائزة ، وقد اتهم يزيد بن الفيض كاتب المنصور بالزندقة فى عهد المهدى فلما سئل أقر بالزندقة فحبس ، وهرب من الحبس فلم يُقدر عليه (٣) .

وكان المهدى أكثر الخلفاء العباسيين إيقاعا بالزنادقة وتعقبا لهم ، وقد عين موظفاً خاصا لهذا الغرض أسماه « صاحب الزنادقة » وممن شغل هذا المنصب عمر الكلوذانى ثم محمد بن عيسى بن حمدويه الذى قتل من الزنادقة خلقاً كثيراً كما يقول ابن الأثير (٤) .

وقد أوصى المهدى ابنه الهادى أن يتعقب هذه الطائفة كما سبق ، وقد استجاب الهادى لوصية أبيه ، فكان شديداً عليهم، كثير الطلب لهم ، ولكن عهده كان قصيراً ، يروى أنه قال: لأقتلن هذه الفرقة ؛ وأمر أن يهيأ له ألف جذع ، فمات بعد هذا القول بشهرين (٥) .

وكثيراً ما اتُّهم أناس بالزندقة للتنكيل بهم دون أن يكونوا زنادقة ،

---

(١) الطبرى ١٠ : ٤٢
(٢) الوزراء والكتاب ص ١٥٣
(٣) المرجع السابق ص ١٥٦
(٤) الكامل فى التاريخ ٦ : ٢٦
(٥) ابن الأثير ٦ : ٣٥

أى أن الرمى بالزندقة اتخذ وسيلة للإيقاع بالأبرياء فى كثير من الأحايين .

د ـ ولاية العهد :

كانت ولاية العهد مثار متاعب للخلفاء فى هذا العهد ، وكان التفكير فيها يستنفد كثيراً من نشاطهم ، والعجيب أن أغلب قصور خلفاء هذه الفترة التى نُعنى بها شُغلت بهذا الأمر ، شغل به المنصور والمهدى والهادى والرشيد والأمين وفيما يلى سجل هذه الأحداث .

عبد الله بن على : كان السفاح قبيل وفاته قد عقد لأخيه المنصور وجعله ولى عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على ، ثم توفى السفاح بعد ذلك بمدة وجيزة ، وكان المنصور آنذاك حاجاً بمكة ، فقام عيسى بن موسى بأخذ البيعة للخليفة الجديد ، وكتب له يعلمه بموت السفاح والبيعة له ؛ وقد جزع أبو جعفر عندما وصله الخبر جزعاً شديداً ، فسأله أبو مسلم الخراسانى وكان يحج معه : ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ فقال : أتخوّف شر عمى عبد الله بن على وشغبه علىّ ؛ قال أبو مسلم لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه أهل خراسان ، وهم لا يعصوننى ؛ فسرّى عن المنصور ، وبايع له أبو مسلم كما بايع له الناس هناك.

ولما عرف عبد الله بن على خبر وفاة السفاح والبيعة للمنصور ، أمر منادياً فنادى : الصلاة جامعة . فاجتمعوا عليه ، فقرأ عليهم كتاب عيسى ابن موسى إليه بوفاة السفاح ، ودعاهم إلى نفسه ، وأعلمهم أن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد ، دعا بنى أبيه فأرادهم إلى السير إليه ، وقال : من انتدب منكم فسار إليه فهو ولىّ عهدى ، فلم ينتدب غيرى ، وعلى هذا خرجتُ من عنده ، وقتلت من قتلت ، وشهد له أبو غانم الطائى

وخفاف المروزى وغيرهما من القواد ، فبايعه جيشه كما بايعه أهل الشام والجزيرة ، واتسع نفوذه فى هذه البقاع ، وهكذا أعلن عبد الله بن على تمرده على الخليفة الجديد ، فتحقق بذلك ما توقعه المنصور .

ولما عرف المنصور ما فعله عبد الله كتب إليه :

سأجعل نفسى منك حيث جعلتها ... وللدهر أيام لهن عواقب

وسيّر إليه جيشاً عظيما بقيادة أبى مسلم ، وهكذا تقف وجهاً لوجه قوتان عظيمتان على رأسيهما أعظم قائدين فى ذلك التاريخ ، وقد جرت عدة أحداث جعلت كفة أبى مسلم ترجح كفة عبد الله بن على ، ومن ذلك ما يذكره المؤرخون من أن عبد الله خاف ألا يناصحه أهل خراسان الذين كانوا معه ، فقتل منهم نحوا من سبعة عشر ألفا ، ولكن هذا الرقم يبدو أنه مبالغ فيه إلى حد كبير ، ومن ذلك أيضاً ما روى أن عبد الله تشكك فى قائد من أمهر قواده هو حميد بن قحطبة . وأراد أن يتخلص منه ، ولكن الطريق الذى سلكه لذلك لم يكن طريقاً حكيما . فإنه أخبره أنه ولاه إمارة حلب وكتب معه كتابا إلى واليها ، فلما سار حميد ومن معه شوطا بدأ حميد يوجس خيفة من الكتاب المغلق الذى يحمله ، ففتحه فوجد به أمراً بالفتك به موجهاً إلى والى حلب ، فقرأه حميد على من معه ، وأخبرهم عزمه على أن ينحدر إلى العراق ، فتبعه ناس كثيرون ممن كانوا معه ؛ ومن ذلك أيضاً خدعة قام بها أبو مسلم فان جيش عبد الله كان قد اتخذ له مكاناً حصيناً عسكر فيه ، فأرسل أبو مسلم إليه يقول : إنى لم أومر بقتالك . ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام ، فأنا أريدها فقال من كان مع عبد الله من أهل الشام : كيف نكون معك وهذا يأتى بلادنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبى

ذرارينا ؟ ولكن نخرج إلى بلادنا فنمنعه ونقاتله ، وعبثاً حاول عبد الله أن يخبرهم أنها خدعة من أبى مسلم ، فلما نزل عبد الله عند رغبتهم ، وترك مكانه الحصين وتحول نحو الشام ، تحول أبو مسلم وعسكر فى ذلك المكان الحصين .

ودارت الحرب الضروس بين القوتين الهائلتين ، وكانت سجالا فى أغلب معاركها ، وبعد خمسة أشهر استطاع أبو مسلم أن ينتصر وأن يهزم أصحاب عبد الله ، ولما أحس عبد الله بالهزيمة سأل أحد أصفيائه أن يشير عليه بالفرار أو بالبقاء فأشار عليه أن يصبر ويقاتل حتى الموت ، فإن الفرار قبيح بمثله ، وقد عابه على مروان بن محمد ، ولكن الحرص على البقاء تغلب على عبد الله ، فإنه فر ولجأ إلى أخيه سليمان بن على أمير البصرة ، واستطاع بهذا أن يطيل عمره فترة من الزمن ، ولكنها بلا شك فترة مملوءة بالأكدار وبفرار عبد الله استسلم جيشه لخواه أبو مسلم [1]

ويخطر الآن بالذهن سؤالان لهما شىء من الأهمية :

أولا — هل حقيقة وعد السفاحُ عبدَ الله بولاية العهد وبماذا توحى الروايات التاريخية ؟

الظاهر لى صدق عبد الله فى هذا الزعم ، بدليل شهادة هؤلاء الشهود واستمرارهم على الكفاح بجانبه هذه المدة الطويلة دون أن تظهر أية بادرة لخورهم أو رجوعهم عن زعمهم ، ثم إن توقع المنصور أن يثور عبد الله دون سواه ليدل على أن هناك وعدا من السفاح توقع المنصور أن يكون

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٧٣ — ١٧٥ ، مروج الذهب للمسعودى ص ٢٣٤ ، الجهشيارى ص ١٠٣

دعامة يعتمد عليها عبد الله فى دعواه ، غير أن وعد السفاح إن كان قد حصل فإنه لم يدعَّم بسجل كتابى .

ثانيا : وإذا كان عبد الله يسعى لهذا المنصب لأنه رأى فى نفسه الكفاءة له ، فلماذا ثار على المنصور ولم يثر على السفاح ؟

الجواب أن الوقت الذى ولى فيه السفاح لم يكن يسمح بالخلاف بين صفوف العباسيين ؛ فكل ما كانوا يهتمون به فى ذلك الحين هو نزع السلطان من الأمويين ، وجعل الخلافة فيهم ليحققوا بذلك هدفا طال سعيهم إليه ، وكفاحهم من أجله .

وهل كان منصب الخلافة فى ذلك الوقت منصباً براقاً يدعو للتنافس ؟ . . اعتقد أن الإجابة يجب أن تكون بالنفى . . لأن السفاح تولى فى فترة شاذة ، ولا تزال لدى مروان جيوش قوية تدافع عنه ، فالذى يشغل هذا المنصب سيكون كبش الفداء لو أصيبت الحركة بنكسٍ ولو مدة قصيرة .

عيسى بن موسى : سبق لنا أن ذكرنا آنفا أن السفاح قبل وفاته عقد لأخيه المنصور وجعله ولى عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى ، وقد كان المنصور فى السنين الأولى من خلافته يستعين بعيسى بن موسى فى الملمات ، ويلق به فى خضم الأحداث ليدفع به النوازل ، وقد قال له المنصور عند ما ثار العلويون : والله ما يُراد إلا أنا أو أنت . فإما أن تذهب لقتالهم أو أذهب أنا ؛ وقد كان عيسى يتقبل هذا بمزيد من الرضا ؛ أليس ولى عهد المسلمين وهذا الملك سيئول إليه يوما ، ولكن المنصور كان يريد شيئاً آخر ، فإنه ما كاد يحس باستقامة الأمور إليه على ما يهوى حتى كشف عن نيته ، ليزحزح عيسى بن موسى ويقدم عليه ابنه

المهدى، وإن ارتكب من أجل ذلك أبعد الشطط، وأوقع الناس فى الحرج، إذ كانوا قد أقسموا أغلظ الأيمان أن يحترموا الوثيقة التى دوّنها السفاح .

وواجه المنصورُ عيسى بالأمر والتمس منه زحزحة نفسه ليتقدم المهدى عليه فى ولاية العهد ، ولكن عيسى رفض هذا وقال : ماذا أصنع بالأيمان التى فى رقبتى وفى رقاب الناس بالعتاق والطلاق والحج والصدقة ؛ ليس إلى ذلك سبيل ؛ فتغير المنصور عليه ، وباعده بعض المباعدة ، وصار يأذن للمهدى قبله ، ويجلسه عن يمينه فى المكان الذى كان يجلس فيه عيسى، وأخذ يتقصّد أذاه ، فكان يأمر أن يُحفَر الحائط من المكان الذى جلس فيه عيسى ينتظر الإذن ، وبهذا يسقط التراب على رأسه ، ثم يأذن له فيدخل دون أن ينفض التراب ، فيقول له المنصور : يا عيسى ، ما يدخل علىّ أحد بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب ، أفكل هذا من الشارع ؟ فيقول عيسى : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ؛ ولا يشكو .

وهناك أساليب كثيرة من هذا النوع ذكرتها كتب التاريخ(١) وكلها تدل على الضغط والقسر اللذين عومل بهما عيسى بن موسى ليستجيب لرغبة الخليفة، وسواء أكان قد استجاب عيسى أم أرغم ، وسواء أتم هذا من جهته أم أن جماعة شهدوا عليه أنه خلع نفسه وهو لم يخلعها. فإن الأمر على كل حال انتهى على النحو الذى تريده القوة القاهرة ، ولكن هذه القوة لم تكتف بأن تنال مرامها ، بل ألزمت عيسى — كالعهد بالطغيان فى كل زمان ومكان — أن يواجه الناس فى المسجد الجامع ، ومعه الوزير ، ليعلن بنفسه للجموع : إنى قد سلمت ولاية العهد للمهدى ، وقدمته على نفسى . ولكن

---

(١) ابن الأثير ٥ : ٢١٤ — ٢١٥ ، الفخرى ١٤٩ — ١٥٠ .

الوزير لم يكتف بهذا ، فقال : ليس هكذا أيها الأمير ولكن قل : لحقه وصدقه ، وأخبر بما رغبت فيه وأعطيت . ويعلن المهدى إذاً : نَعَمْ قد بعت نصبي من تقدمى فى ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدى أمير المؤمنين من بعده بعشرة آلاف ألف درهم ، بطيب نفس منى ، ورغبتُ فى تصييرها إليه ، لأنه أولى بالتقدم فيها ، وأحق ، وأقوم عليها ، وأقوى على القيام بها منى[1] .

فكان بعض المجان من أهل الكوفة إذا مر بهم عيسى بن موسى يقولون : هذا الذى كان غداً فصار بعد غد[2] .

ومن سوء حظ عيسى بن موسى أنه عانى مرتين الاضطهاد والتعسف بسبب ولاية العهد ، وقد انتهينا من ذكر المرة الأولى ، أما المرة الثانية فكانت فى عهد المهدى ، الذى ورث عن أبيه حبه لبنيه ، وبغضه لهذا الدخيل الذى كان يطمع فى الخلافة دون الهادى والرشيد . يقول الجهشيارى[3] : ولما حال الحول على المهدى فى الخلافة ، تقدم إلى أبى عبيدالله بمناظرة عيسى بن موسى على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، فناظره وقال له : إن المنصور قدم المهدى عليك وعوّضك ، فإن أخرجت نفسك من هذا الأمر عوّضك المهدى ما هو أنفع لك وأبقى عليك ، وإن أبيت استحل منك المحظور بمعصيتك وخلافك أمره ، وقد لزمتك طاعته ووجب عليك القبول منه . ويضيف ابن الأثير[4] أن عيسى رفض أن يذعن لهذه الرغبة فأوعز المهدى إلى أمير الكوفة أن يعمل على الإضرار به ولكن هذا لم يجدِ

(١) الجهشيارى ص ١٢٧ . (٢) المصدر السابق وابن الأثير .
(٣) الوزراء والكتاب ١٤٥ — ١٤٦
(٤) الكامل فى التاريخ ٦ : ١٥

سبيلا إلى الإضرار بعيسى لأنه كان مقيما بالرّحبة بالقرب من الكوفة . وكان لا يأتى الكوفة إلا قليلا . فاستقدمه المهدى إلى بغداد فامتنع عن القدوم ، ولكن المهدى أرغمه على الحضور ، وأوعز إلى بعض رجاله لينكلوا به ويسيموه العذاب فى بغداد . وإزاء هذا العنت لم يجد عيسى بدآ من الاستسلام ، فخلع نفسه ، واستطاع المهدى بذلك أن يجعل ابنه الهادى ولياً للعهد .

في عهد الهادى : كان المهدى فى سنة ست وستين ومائة قد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه هارون الرشيد ، ليكون خليفة بعد أخيه موسى الهادى ، الذى كان قد عقد له بولاية العهد قبل ذلك بست سنوات .

ولما مات المهدى سنة ١٦٩ تولى ابنه الهادى الخلافة تنفيذاً لوصية أبيه ، وعلى الرغم من ضيق عهد الهادى ، فإنه اتسع لمحاولات جمة قام بها ليخلع أخاه ، ويوصى بالخلافة لابنه جعفر ، ولندع الجهشيارى وابن الأثير يتكلمان : تنكر موسى لهارون الرشيد وعمل على خلعه وتقليد ابنه جعفر ، وهو طفل ، وبذل لهارون « الهنىّ والمرىّ » من أعمال الرَّقَّة ، فعزم هارون على القبول وقال : إذا نزلتُ على « الهنىّ والمرىّ » وخلوتُ بابنة عمى أم جعفر ، فما أريد شيئاً ؛ ولكن يحيى بن خالد منعه من تنفيذ ما عزم عليه ، وقال له ؛ إنها الخلافة ، ولعل ما تقدّر أنه يبقى لك لا يبقى ، ولم يزل به حتى عدل . ووصل إلى الهادى امتناعُ الرشيد وموقف يحيى ، فأوعز إلى رجاله بتحقير شأن الرشيد ، وإثارة عيوبه ، وانتقاصه فى مجلس الجماعة ، كما بعث إلى يحيى يسأله : لم تدخل بينى وبين أخى وتفسده علىّ ؟ فقال : من أنا حتى أدخل بينكما ؟ إنما صيرنى المهدى معه ، ثم أمرتنى أنت

بالقيام بأمره ، فانتهيت إلى أمرك ؛ فسكن الهادى إليه ووصله ، وبدأ يناظره فى خلع الرشيد ، فقال له يحيى : إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وجرّأتهم على حل العقود التى تُعقد عليهم ، ولو تركت الأمر فى بيعة أخيك بحاله ، وبويع لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته . فقال له : صدقت ونصحت . ولكن الهادى لم تطب نفسه بعد ذلك لهذا الرأى فأرسل إلى يحيى وحبسه ، ولكن يحيى سأل أن يخلو بالهادى ، فأجيب ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان ما نعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعتَ هرون فهل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم؟ قال : لا . قال يحيى : فدع هذا الأمر حتى يبلغ جعفر فإذا بلّغنا الله ذلك ، فعلىّ أن آخذ بيد هرون حتى يبايعه ، واذكر يا أمير المؤمنين أنك لو بايعت لجعفر قبل بلوغه ، وحدث ما نعوذ منه ، وثب على هذا الأمر أكابر أهلك ، وخرج عن ولد أبيك ، ووالله لو لم يعقد المهدى لهرون ، لوجب أن تعقد أنت له ليكون فى بنى أبيك . فشكر له هذا القول وأطلقه (١) .

ولكن الهادى عاود محاولاته ، وضيق على الرشيد ، فأشار عليه يحيى أن يخرج فى الصيد ، ففعل . ولم ينقذ الرشيد من محاولات الهادى إلا موت الأخير دون أن يصل إلى الهدف الذى سعى إليه (٢) .

ولاة عهد الرشيد : إذا جاز لنا أن نلتمس العذر للخلفاء السابقين فى سياستهم الخاصة بمشكلة ولاية العهد . فإنه لا يجوز لنا أن نلتمس العذر للرشيد ؛ ذلك لأن المشكلة كانت واضحة له ؛ كان يعرف مَنْ مِنْ أولاده

(١) الجهشياوى ١٦٩ — ١٧٠ ، ابن الأثير ٦ : ٣٢
(٢) أنظر المسعودى ، مروج الذهب ٢ : ٢٦١ .

يجب أن يكون ولىّ عهده ، وكان يدرك أن السياسة التى يتبعها فى هذا الموضوع سياسة فاشلة ستؤدى إلى القطيعة وسفك الدماء .

ولكن الرشيد اهتدى إلى هذه النتائج عندما استعمل عقله وفكره فى هذا الموضوع ، غير أنه كان كثيراً ما يطرح العقل والفكر ، ويستجيب لنداء القلب والعاطفة فى بعض الأمور ، حتى الخطيرة التى تتعلق بمستقبل الدولة وسير الأمور فيها . ولنعالج المشكلة من أولها :

يروى الجهشيارى [١] أن الرشيد كان يحب زوجته زبيدة ، ويَجِد بها وجداً شديداً ، وأنه لما عرض عليه الهادى أن يُقطعه إقطاعاً كبيراً على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، قبل ذلك العرض وقال : « إذا نزلتُ على الهنىّ والمرىّ ، وخلوت بابنة عمى فما أريد شيئا » . . لقد كانت زبيدة تعدل الخلافة عند الرشيد ، ألا يعدل رضاها ولايةَ العهد ؟ ويقول السيوطى [٢] : إن الرشيد بايع لمحمد لحرص أمه زبيدة على ذلك .

والأمين ابن زبيدة ، فمن الطبيعى أن تحبه وأن ترجو له المجد والخير ، ولكن من الحق علىّ أن أقرر أننى ـ على الرغم من محاولاتى ـ لم أجد فيما قرأت حديثاً صريحاً من زبيدة للرشيد تحضه على إيثار ابنها ، وإن كان من الحق أيضاً أن نقرر أنها لم تسلم من الإيعاز والتدبير ، ولننظر إلى القصة الآتية لنرى ما فيها من الإيعاز : روى المسعودى [٣] أن أم جعفر دخلت على الرشيد فقالت له : ما أنصفت ابنك محمدا ، حيث وليته العراق

(١) الوزراء والكتاب ص ١٧٠

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١١٣

(٣) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣

وعربته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه . فقال لها الرشيد . إنى وليت ابنك السلم وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من صاحب السلم .

لا نزاع أن هذه القصة توحى بأنها كانت يقظة تتطلع لمصلحة ابنها ، وتبنى له مستقبله ، وفيها إيعاز بأنها تفطن لكل مايدور حول ابنها ، ولا تسمح لأحد أن يتميز عليه .

ومن جهة التدبير فقد دل عليه ما ذكره ابن الأثير [1] أن سبب البيعة للأمين أن خاله عيسى بن جعفر بن المنصور جاء إلى الفضل بن يحيى بن خالد فسأله فى ذلك ، وقال له : إنه ولدك وخلافته لك ، فوعده بذلك وسعى فيها حتى بايع الناس له بولاية العهد .

والذى أفهمه من هذه الرواية أن سعى عيسى كان بتدبير أخته زبيدة . وأنه كان باسمها يتكلم ، ثم كان هذا يتفق ورأى بنى هاشم الذين يفضلون محمدا ابن زبيدة على المأمون بن مراجل . وقد استطاع عيسى بحديثه إلى الفضل أن يأتى البيوت من أبوابها ؛ فقد كان للبرامكة فى ذلك الحين الحول والطول ، ثم كان البرامكة يحرصون على إرضاء زبيدة ، لتميل إلى جانبهم بدلا من انحيازها إلى جانب الفضل بن الربيع ، الذى كان بها يقوى وعليها يعتمد .

وانضم بذلك البرامكة إلى المعسكر الذى يعمل لصالح محمد الأمين ، وأرسلوا الوفود للرشيد يحثونه على البيعة له ، فخضع الرشيد لكل هذه الرغبات ، وعقد لابنه محمد ولاية العهد سنة ١٧٥ هـ ولقبه بالأمين .

---

(١) الكامل فى التاريخ ٦ : ٤٠

ويورد الأصفهانى قصة تبين صورة من الصور التى اتبعت فى التأثير على الرشيد، كما تبين إدراك الرشيد لعقلية الأمين والمأمون. قال الأصفهانى[1]:

وجه الفضل بن يحيى وفداً من خراسان إلى الرشيد يحضونه على إعلان البيعة لابنه محمد، ويبدون استبشارهم واستجابتهم لما أذيع من عزم الرشيد على هـذا الأمر، وقد وقف شاعرهم محمد بن ذؤيب العمانى ينشد عنهم أرجوزة طويلة منها:

لمـا أتانا خبر مشهَّرُ
أغرُّ لا يخفى على مَن يُبْصر
جاء به الكوفى والمبصِّر
والراكب المنجِـد والمغور
قلت لأصحابى ووجهى مسفر:
فاز بها محمـد فأقصروا
وقُلِّدَ الأمرَ الأغرُّ الأزهر
فابتهج الناس به واستبشروا
وهللوا لربهم وكبروا
شكراً ومن حقهمُ أن يشكروا
فانظر لنا وخلِّ من لا ينظر
واجسر كما كان أبوك يجسر

(١) الأغانى ١٧ : ٧٨ ـ ٨٠

لا خير في مُجَمْجَم لا يظهر
ولا كتابِ بيعةٍ لا يُنشَر
وليت شعرى والحديث يؤثر
أترقد الليل ونحن نسهر
خوفا على أمورنا ونضجر؟
فأحكم الأمر وأنت تقدر
فمثل هذا الأمر لا يؤخَّر

فلما فرغ من الإنشاد قال له الرشيد : أبشر يا عمانى بولاية محمد العهد فقال : أى والله يا أمير المؤمنين ، بشرى الأرض المجدبة بالغيث ، والمرأة النزور بالولد ، والمريض المدنف بالبرء . قال الرشيد : ولم ذاك ؟ قال : لأنه نسيج وحده ، وحامى مجده ومُورى زنده ، قال : فمالك فى عبد الله ؟. قال مرعى ولا كالسعدان . فتبسم الرشيد وقال : قاتله الله من أعرابى ، ماأعرفه بمواضع الرغبة ، وأسرعه إلى أهل البذل ، وأبعده من أهل الحزم والعزم ، والذين لايستمنح ما لديهم بالثناء ، أماوالله إنى لأعرف فى عبدالله حزم المنصور ، ونسك المهدى ، وعز نفس الهادى ، ولو شاء أن أنسبه إلى الرابعة لنسبته .

ثم إن الرشيد بعد أن عقد البيعة للأمين لم يستشعر الراحة ، ولم تطب نفسه لهذا التصرف ، وبالتالى أدرك البرامكة سوء المغبة فى هذا الوضع الجائر ، فليس من العدل أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون مع أن الأول أحدث سنا وأقل كفاءة ، وكان المأمون فى حجر جعفر فأشار

هذا على الرشيد بأن يبايع له بعد محمد (١).

ويسوق لنا المسعودى عن الأصمعى رواية تدل على أن نفس الرشيد لم تهدأ للظلم الذى ارتكبه فى حق الدولة ، وحق ابنه المأمون . قال الأصمعى : بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ؛ فكان يقعد مرة ، و يضطجع مرة ، وهو يبكى ، ثم أنشأ يقول :

قلّد أمور عباد الله ذا ثقة — موحد الرأى لا نكسٌ ولا برمُ
واترك مقالة أقوام ذوى خطل — لا يفهمون إذا ما معشرٌ فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريدُ أمراً عظيما . ثم قال لمروان الخادم : علىّ بيحيى . فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، إنى قد عُنيت بتصحيح هذا العهد ، وتصييره إلى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ؛ وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء فى رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيل الرأى ، الموثوق به فى الأمر العظيم ، فإن ملتُ إلى عبد الله أسخطتُ بنى هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية ؛ فأشر علىّ فى هذا الأمر برأيك ، مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأى ، لطيف النظر ؛ فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة ، وكل رأى يُتلافى خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا ؛ فعلم الرشيد

(١) الجهشيارى ص ٢١١ .

أنه يريد الخلوة ، فأمرني بالتنحى فقمت وقعدت ناحية ، وكنت أسمع كلامهما ، فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلة ، حتى قضى الليل ، وافترقا على عقد الأمر لعبد الله بعد محمد (١) .

وعلى هذا بايع الرشيد سنة ١٨٢ لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همدان (٢) .

ويبدو أن التوفيق قد أخطأ الرشيد فيما يختص بولاية العهد ، ويبدو كذلك أن محمد بن ذؤيب العمانى أحسَّ أن فى أراجيزه فعل السحر على الرشيد ، وأنه يستطيع بها أن يعين ولاة العهود ، ولذلك نجده يجىء مجلس الرشيد وينشده أرجوزة منها :

قل للإمام المقتدَى بأمه (٣)
ما قاسم دون مدى ابن أمه
وقد رضيناه فقم وسمه

وما ان يسمع الرشيد ذلك القول ، حتى يهتز ويبتسم ويقول : ويحك يا ابن ذؤيب ، أما رضيت أن أوليه العهد وأنا جالس فأردتَ أن أقوم على رجلى؟ فقال له العمانى : ما أردت يا أمير المؤمنين قيامك على رجليك ، إنما أردت قيام العزم . قال الرشيد : فإنا قد وليناه العهد ، وأمر بالقاسم أن يحضر ، فلما حضر أومأ إليه الرشيد فجلس مع أخويه وقال له : يا قاسم ، عليك جائزة هذا الشيخ ، فقد سألنا أن نوليك العهد وقد فعلنا . فقال : حكمك يا أمير المؤمنين (٤) .

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٧٢ — ٢٧٣
(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٣
(٣) أمه : رأيه أو عنده
(٤) الأغانى ١٧ : ٨٠

قال المسعودى [1] : «فبايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون كان أمره إليه ؛ إن شاء أن يقره أقره ، وإن شاء أن يخلعه خلعه» .

وفى هذه العبارة التى أضافها الرشيد فى بيعة القاسم ما يدل على أن الأمر كان مضطرباً عليه ، وأنه لم يكن يصدر فى أحكامه عن عقيدة وإيمان ، وما كان للرشيد أن يتصرف بمثل هذه الروح فى هذه الأمور الخطيرة .

وقد سبق لنا أن قررنا أن الرشيد كان يدرك أن السياسة التى يتبعها فى هذا الموضوع سياسة فاشلة ، ويعرف أنها ستؤدى إلى القطيعة وسفك الدماء ، ولنستمع الآن إلى الكسائى يحدثنا عن إحساس الرشيد فى هذا الأمر ، قال الكسائى : جلست عند الرشيد مرة ، فلما وثبت للقيام قال : اقعد . فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ولم يبق إلا خاصته ، فقال لى : يا على ، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله ؟ فقلت : ما أشوقنى إليهما . يا أمير المؤمنين ، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما . فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلا ككوكبى أفق يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضا أبصارهما ، وقاربا خطوهما حتى وقفا على باب المجلس ، فسلما على أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فأمرهما بالدنو منه ، فصيّر محمداً عن يمينه ، وعبد الله عن يساره . ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ، ففعلت ، فما سألتهما عن شىء إلا أحسنا الجواب فيه ، والخروج منه ، فسر بذلك الرشيد حتى تبينته فيه ، ثم قال لى : يا على ، كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، كما قال الشاعر :

أرى قمرى مجد وفرعى خلافة ... يزينهما عرق كريم ومحتد

---

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣

يا أمير المؤمنين ، هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت فى الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما أغرّ ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان فى سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما ، فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء ، وأغصان هذه الشجرة المباركة ، أذرب ألسناً ، ولا أحسن ألفاظاً ، ولا أشد اقتداراً على تأدية ما حفظ منهما . فضمهما الرشيد إليه ، وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج . فلما خرجا أقبل علىّ فقال : كأنك بهما وقد حم القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله ، قد تشتتت كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك حتى تسفك الدماء ، وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النساء ، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم فى عداد الموتى ! ! [1] .

وكان الرشيد بهذا كأنما يقرأ المستقبل ، ومن أجل ذلك بذل وبذل البرامكة معه أقصى الجهد رجاء أن يوفى ولاة عهده بما وعدوا ، وأن يبروا بما أقسموا عليه ، واتجهت عنايتهم إلى الأمين . فهو ولى العهد الأول ، وفى يده مفتاح الفتنة إن غدرَ ، وتضاعفت جهودهم لأن الثقة بالأمين لم تكن قوية ، وقد سجل الرشيد ذلك فى رده على زبيدة حينما قالت له : أعريت محمدا من العدد والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه ، فأجابها : إنا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولا نتخوف عبد الله على ابنك [2] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٧١

(٢) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٧٣

وكان أبرز ما فعله الرشيد ليتحاشى الغدر من أولاده، وليحمى المسلمين من فتنة عاصفة ، أنْ سار إلى مكة حاجا سنة ١٨٦ ومعه أولاده ووزيره والفقهاء والقضاة والقواد . وهناك كتب كتابا على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون ، وكتب كتابا على المأمون وأشهدهم فيه على الوفاء للأمين ، وعلق الكتابين فى الكعبة . وجدد العهود عليهما فيها [1]

وقد أراد جعفر البرمكى أن يؤكد على الأمين أن يكون وفيا لأخيه بارآ بعهده له ، فطالبه أن يضيف فى قسمه قوله : خذلنى الله إن خذلته فقال ذلك ثلاث مرات . [2]

وينتهى بهذا دور الرشيد فى هذه المأساة ويبدأ دور الأمين . ولسنا فى حاجة إلى البحث والتنقيب عما كان يضمره من الوفاء أو النكث ؛ فإن الأمين يكفينا عبء محاولة الغور فى نفسه لنستشف ما كان يخطر بها ، لأنه هو عبر عن خطرات قلبه ، عقب القسم الذى أدّاه فى البيت الحرام ؛ حكى الفضل بن الربيع أن محمداً قال له عند خروجه من بيت الله : يا أبا العباس، هو ما أجد من نفسى أن أمرى لا يتم . فقال له : ولم ذاك أعزّ الله الأمير؟ قال : لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر . قال له الفضل : سبحان الله ! ! أفى هذا الموضع ؟ فقال الأمين هو ما قلت لك . [3]

وما إن توفى الرشيد وتسلم الأمين الخلافة حتى جدّ ليوفى لنفسه ما أحب ، وليحقق ما كان أضمر . فخلع المأمون والقاسم، وبايع ابنه موسى بالعهد بعده ، وأوفد وزيرَه الفضل بن الربيع أحدَ الحجبة وسأله التلطف

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٧ ، ابن خلدون ٣ : ٢٢٢

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ والجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٢٢

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٢٢

فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى بيت الله الحرام بالبيعة ، ففعل الحاجب ذلك . وسرق الكتابين ، ورجع بهما إلى الفضل ، فدفعهما إلى محمد فمزقهما [1]

لقد فتح الأمين بذلك باب العاصفة التى هبت فأتت عليه ، وعلى ملكه ، وعلى أولئك الذين زينوا له النكث بالعهد ، وعدم الوفاء بالوعد . ولنا عودة فيما بعد إلى تفاصيل هذا الغدر ، وأثر الفضل بن الربيع فيه عند حديثنا عن هذا الوزير فى الفصل الثالث .

والآن يجدر بنا أن نقرر أن المأمون كان أول خليفة عباسى أفاد من أحداث التاريخ ، ونظر للخلافة لا على أنها ملك خاص له يتوارثه أبناؤه وينتقل فى ذراريه ، بل على أنها مصلحة عليا يجب أن يلحظ فيها خير الناس وإسعادهم . ومن أجل هذا عين شخصاً واحداً ليكون ولى عهده ، ولاحظ الكفاءة والمقدرة فيه ، فتجاوز ابنه وعين أخاه المعتصم . واقتدى المعتصم بالمأمون فعهـد بولاية العهد لشخص واحد هو ابنه الواثق . ولا يؤخذ عليه أنه عين ابنه ، لأن الواثق فى الحقيقة كان جديراً باسناد هذا المنصب إليه ، وكان الواثق فى درجة رفيعة من خوف الله وخشيته ، ولذلك لم يعين ولياً لعهده ، وقال عندما سئل فى ذلك : لا أريد أن أتحمل وزرها حياً وميتاً .

وقبل أن نختم هذا البحث عن ولاية العهد يجدر بنا أن نتحدث عن موضوع وثيق الصلة بها ، وقد عالجتُ هذا الموضوع فى كتابى « كيف تكتب بحثاً أو رسالة [2] » لمناسبة عرضتْ هناك ، ولكن هنا المكان

(1) المرجع السابق ص ٢٩٢

(2) ص ١٠ ـ ١٢

الطبيعى للبحث ، ولذلك نوجزه فيما يلى تاركين التفاصيل ليرجع إليها من شاء فى الكتاب سالف الذكر .

والموضوع هو : هل كانت ولاية العهد لأكثر من واحد مصدر خطر على الدولة الإسلامية ، وسبباً من أسباب سقوط الأمويين والعباسيين .

لقد كتب المؤرخون كثيراً فى هذا الموضوع ، وانتهوا إلى نتيجة واحدة ؛ هى أن هذا النظام كان من دواعى الاضطراب والضعف فى هاتين الدولتين ، ومن أهم العوامل التى أدت إلى سقوطهما ؛ ولكنى لا أرى هذا الرأى وأعتقد أن هذا الجرح لم يكن بعيد الغور ، وأن تغيير ولى العهد كان ـ كما ذكرنا فى أول بحثنا هنا عن ولاية العهد ـ مثار متاعب للخلفاء لا للدولة الإسلامية ، إذ كان هذا التغيير يستلزم اضطهاد شخص ولى العهد الذى كان يودى بنفسه لو رفض الإذعان كما فعل عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد بن العاص ، أو يطأطىء للعاصفة ويستجيب للقوة كما استجاب عيسى بن موسى .

أما الحرب التى أثارها عبد الله بن على وتلك التى أثارها المأمون ، فكان الدافع عليها إحساس هذين بالقوة ؛ فمع الأول جيش كبير ، ومع الثانى خراسان ؛ زعماؤها وجنودها ؛ ولولا هذه القوة لتم إبعادهما دون كبير عناء ؛ ولظلت المسألة محصورة فى نطاق القصور دون أن تصل إلى ميادين القتال ؛ وقد كان الفضل بن سهل يدرك هذا تماما ولذلك تجده يشير على المأمون أن يسافر مع أبيه فى رحلة خراسان ، وكان الرشيد قلده هذه البلاد وما إليها إلى همدان ، ولكن الرشيد عزم على تخليفه ببغداد . فقال الفضل للمأمون : لاتقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير

مأمون إنْ يحدثْ عليه حادث أنْ يثب عليك أخوك فيخلعك [1]

فهذه الحروب لم يكن سببها تولية العهد لأكثر من واحد ، ولكن كان سببها القوة التى استشعرها المأمون ليدافع عن حقه ، واستشعرها عبد الله بن على فطالب بالخلافة ، مع أنه لم تكن لديه وثيقة بولاية العهد .

وقد تدهورت الدولة الفاطمية فى مصر بعد مدة قصيرة من قيامها ، أى منذ عهد الحاكم ، مع أنه لم يكن فى نظام هذه الدولة جعل ولاية العهد لأكثر من واحد .

هـ ــ العهد العباسى الزاهر :

الذى يدرس هذا العهد لايستطيع أن يتخطاه دون أن يتحدث عن الاصلاحات الشاملة التى تمت خلاله ، والحقيقة أن الهيكل التاريخى للعصر العباسى الأول ، لايمكن أن يتم دون أن توضح ـ ولو بإيجاز ـ قواعد الإصلاح والعمران التى ظهرت فيه . والتى جعلت من بغداد عاصمة الدولة الإسلامية مناراً يشع منه الضوء ، ومعهداً تنبثق منه المعرفة ، وحصناً تنساب منه جنود الحق فتلق الرعب فى قلوب المعتدين . لقد كانت بغداد تتحدث فتصيخ الدنيا ، وتعزم فتصبح الآمال حقائق ، فلنتحدث الآن عن بغداد ، والحديث عنها ذو شجون .

١ ــ بناء بغداد : أعلنت الخلافة العباسية فى مدينة الكوفة كما سبق القول ، ولكن العباسين كانوا يعرفون أن الكوفة وسوادها شيعة علىّ وولده ، [2] وأنه ليس من الخير للعباسين أن يتخذوا عاصمتهم بين قوم

---

(١) الجهشيارى ص ٢٦٦

(٢) راجع خطاب محمد بن على بن عبد الله لدعاته حين أراد توجيههم الى خراسان . وقد سبق ايراده ص ٧ .

لايدينون لهم بالولاء ولا يكنون لهم المحبة والاخلاص ، ولذلك سرعان ماتركوا الكوفة إلى الحيرة ، غير أن انتقالهم إلى الحيرة لم يقصد به أن يتخذوها عاصمة دائمة ، وإنما كان ليجدوا فيها بعض الاستقرار ريثما يفكرون فى مكان أكثر صلاحية وأحسن مقاما ، وفى الحيرة استقر رأيهم على أن يتخذوا الأنبار عاصمة لملكهم ، وهى تقع على بعد عشرة فراسخ من المكان الذى أنشئت فيه بغداد فيما بعد ، وكان قد أسسها أحد ملوك الفرس ، فجددها السفاح ، وأسماها الهاشمية ، وانتقل إليها ، ونقل لها دواوينه ، وظل بها إلى أن مات .

وفى الهاشمية ثار الراوندية فى عهد المنصور عليه ، وكان ذلك اليوم الذى يطلق عليه « يوم الهاشمية » وقد سبق الحديث عنه . ومن أجل هذا أدرك المنصور أن بقاءه فى مدينة كهذه غير مأمون العاقبة ، وتشاءم منها إذ كان على وشك أن يقتل فيها . ولذلك قرر أن يشيِّد مدينة جديدة تحقق له الحماية ، وتصلح أن تكون عاصمة هذا الملك الكبير . ونشأت بذلك فكرة مدينة بغداد عروس الشرق .

وكان فى ذهن المنصور ورجاله اختيار مكان ممتاز تقوم فوقه العاصمة الجديدة ؛ مكان طيب الهواء ، حسن الجو ، تحصنه الطبيعة ضد غارات المعتدين ، يسهل الاتصال بينه وبين أكثر بقاع « الأمبراطورية » الاسلامية ، وقد تحقق فى بغداد كل أو جلّ ما يطلبه المنصور ؛ فهى على نهر دجلة ، وعلى صفحته تأتيها الميرة والطرائف من الهند والسند والصين والبصرة والأهواز وواسط والموصل وديار بكر وربيعة ، ثم هى فى أقرب نقطة بين دجلة والفرات . فتسهل الصلة بينها وبين البلاد الواقعة أيضاً على الفرات والقريبة

منه ، وهذا المكان بين أنهار . فلا يستطيع أن يصل إليه العدو إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسور وأزيلت القناطر تعذر على العدو أن يصل إليه ، والمكان وسط بين بلاد العرب والعجم (١) .

وقد تحقق المنصور بنفسه من توافر هذه المزايا فى المكان الذى تقرر أن تقوم فيه عاصمة ملكه ، وشرع فى إعداد العدة ، ثم فى التنفيذ ، يقول الخطيب البغدادى (٢) « إن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء ، والعلم بالذرع والمساحة ؛ وقسمة الأرضين، فمثّل لهم صفتها التى فى نفسه ، وطلب منهم أن يتبعوا ذلك فى بناء المدينة ، ويكمل الطبرى ذلك فيقول (٣) : إن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن ينظر إليها عيانا ، فأمر أن تخط بالرماد ، ثم دخل من موضع كل باب، ومر فى طرقات المدينة ورحابها ، وهى مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حبّ القطن ، ويصب عليه النفط ، وتوقد فيه النار ، فنظر إليه والنار تشتعل ، وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة. ولنعد إلى الخطيب البغدادى (٤) الذى يقول : « إن المنصور كتب إلى كل بلدة يأمر بإرسال من فيه ممن يفهم شيئاً فى أمر البناء ، فتكامل له من الفعلة وأهل المهن والصناعات ألوف كثيرة ، وعند ذلك أمر المنصور بحفر الأساس على الرسم ، وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ ، ووضع المنصور بيده أول آجرة فى بنائها

---

(١) انظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت
(٢) تاريخ بغداد ١: ٦٦ — ٦٧
(٣) ٩ : ٢٤١
(٤) تاريخ بغداد ١: ص ٦٧

وقال : باسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال ابنوا على بركة الله [1] .

وكانت المدينة مدوَّرة ومن أجل ذلك سميت « المدينة المدورة » وفى وسط الدائرة قصر الخليفة المسمى « قصر الذهب » وجامع المنصور ، ولم يكن حول هذين بناء إلا داراً بناها للحرس وأخرى بناها للشرطة . وجعل حول ذلك منازل أولاده ، ثم قصور الأمراء ، ورجال الدولة ، ودواوين الحكومة ، ثم دور الأهالى تتخللها الأسواق ، وكان هدف المنصور من اختيار هذا الرسم ألا يكون أحد أقرب إلى داره من الآخرين فى درجته ، وأن يكون الخليفة فى مكان حصين يحيط به حرسه وأصفياؤه فيأمن بذلك السوء ، وكان للمدينة أربعة شوارع رئيسية تمتد من وسط الدائرة إلى الأسوار ، ويتفرع من هذه الشوارع شوارع أخرى صغيرة تصل بينها .

وأقيم للمدينة فى أول الأمر سوران قطر دائرة السور الداخلى مائتا ذراع وألف ذراع وارتفاعه خمس وثلاثون ذراعا ، وعرضه من أسفله عشرون ذراعاً ، أما السور الخارجى فعرضه من أسفله خمسون ذراعا ، ومن أعلاه عشرون ذراعا ، وارتفاعه ثلاثون ذراعا [2] . وعرض ما بين السورين ستون ذراعا ومائة ذراع ، وفى كل سور أربعة أبواب ، تقابل الشوارع الأربعة الرئيسية ويتجه كل باب منها إلى جهة سمى باسمها ، وهى باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام . وعلى كل باب قبة ذاهبة فى السماء ، وعلى رأس كل قبة تمثال ، وبين كل قبتين

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٣٨ — ٢٤٠

(٢) ابن الأثير ٦ : ٢٠٨

ثمان وعشرون برجاً ، ثم إن المنصور أقام سوراً ثالثاً داخلياً على النسق السالف ، زيادة فى الإحكام [1] .

وكان العمل فى بناء بغداد قد توقف قليلا فى بادئ الأمر ، عند ما ظهرت ثورة العلويين فى مكة ثم فى البصرة ، فلما تمكن المنصور من قمع هاتين الثورتين استأنف العمل ، وقد تم بناء بغداد سنة ١٤٦ هـ ، فانتقل لها الخليفة ونقل لها جنده وخزائنه ودواوينه ، وظل العمل يسير فى بناء الأسوار وإعداد الخندق حتى تم ذلك سنة ١٤٩ هـ [2] .

وبلغت تكاليف نفقتها ٤٬٠٠٠٬٨٣٣ درهما [3] واشتغل فيها عدد عظيم من الفعلة والمهندسين والفضلاء ، ومن أبرز من عمل فيها الحجاج بن أرطاة الذى أسهم فى تخطيط المدينة والإمام أبوحنيفة وكان يقوم بعدّ الآجر واللبن ، وابتكر للعد طريقة حديثة هى أن يعدّه بالقصب اختصارا [4] .

ولما تمت عمارة بغداد حفرت قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات وتشق العراق ، فوصلت بغداد بالفرات ، ومن ثم أصبحت العاصمة الجديدة على صلة نهرية بآسيا الصغرى وسورية .

وحدث أن زار رسولُ ملك الروم الخليفة أبا جعفر المنصور ، فأمر هذا حاجبه الربيع فطاف به فى المدينة ، فلما عاد قال له : كيف رأيت مدينتنا ؟ قال : رأيت بناء حسناً إلا أنى رأيت أعداءك معك وهم السوقة ،

---

(١) طه الراوى : بغداد مدينة السلام ١١ — ١٢

(٢) الطبرى ٩ : ٢٤١

(٣) ابن الأثير ٥ : ٢١٣

(٤) الفخرى ص ١٣٩ — ١٤٠ ، أورد الخطيب البغدادى رقماً غير صحيح لتكاليف البناء ولكن الناشر صححه « انظر تاريخ بغداد ١ : ٦٩ » .

فلما عاد الرسول عنه ، أمر بإخراجهم إلى ناحية الكرخ ، وقيل إنما أخرجهم لأن الغرباء يطرقونها ويبيتون فيها وربما كان فيهم الجاسوس (١) .

ويقول الخطيب البغدادى عن بناء الكرخ (٢) : إن المنصور وضع أساس الكرخ فى الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى ، ونقل إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقا خاصة ، ومن هذه الأسواق سوق العطارين ، وسوق الحدادين ، وسوق النجارين ، وسوق البزازين ، وسوق الرياحين (لبيع الأزهار) وسوق القصابين ، وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه السوق فى آخر الأسواق قائلا : إنهم سفهاء ، وفى أيديهم الحديد القاطع .

ولم يمض على إنشاء بغداد فترة طويلة حتى أصبحت عامرة زاخرة بالمدنية والعلم والفضل وتطلعت لها أنظار المسلمين ، وتسمعت لأخبارها آذان العالم ؛ واحتلت بغداد بسرعة مكان الصدارة فى السياسة والنشاط الاجتماعى والعلمى فى الشرق الأوسط كله ؛ واحتفظت طويلا بمكانتها هذه على الرغم عما أصابها من هزات ، وما حل بها من محن وخطوب (٣) .

وكان مولد بغداد فى ساعة سعيدة تدعو للتفاؤل وتبشر بالخير ، فقدر لها - فوق كونها عاصمة الامبراطورية الاسلامية الضخمة ، وأعظم مركز تجارى فى مطلع العصور الوسطى - أن تصبح محط أنظار العالم كله ، فى الثقافة والآداب ، ومقصد العباقرة والموهوبين يفدون لها من بقاع العالم الإسلامى الفسيح (٤) .

(١) ابن الأثير ٥ : ٢١٣
(٢) تاريخ بغداد ١ : ٨٠
(٣) Richard Coke : The city of pease p. 33
(٤) Ibid p. p. 48—49

٢ — إصلاحات داخلية: يوشك عهدا السفاح والمنصور أن يكونا عهدا واحداً ، وُجِّهت فيه جل العناية إلى تثبيت الدولة ، وإرساء قواعدها ، والتخلص من كل قوة يخشى منها على كيان الدولة الناشئة ، ولذلك كان طابع هذين العهدين الحزم والشدة والصرامة ، فلما جاء عهد المهدى كانت الدولة قد استقرت وأمنت على نفسها واتسعت مقدرتها المادية ، ومن أجل هذا اشتهر عهد المهدى باصلاحات داخلية فيها شيء من الترفيه والتيسير ، وسنتحدث عنها هنا حديثا موجزا :

قال المسعودى [١] : كان المهدى محببا إلى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر فى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وإنصاف المظلوم ، وبسط يده فى الإعطاء ، فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار سوى ما جباه فى أيامه ، فلما فرغت بيوت الأموال أتى أبو حارثة الهندى خازن بيوت أمواله ، فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فرغ ما بها ، ففرق المهدى عشرين خادماً لجباية الأموال ، فوردت الأموال بعد أيام قلائل ، فتشاغل أبو حارثة عن الدخول على المهدى ثلاثة أيام ، فلما دخل عليه : قال : ما أخّرك ؟ قال : الشغل بتصحيح الأموال . قال المهدى : أنت أعرابى أحمق ، كنت تظن أن الأموال لا تاتينا إذا احتجنا إليها ؟ قال أبو حارثة : إن الحادثة إذا حدثت لم تنتظرك حتى توجه فى استخراج الأموال وحملها . وقيل : إن المهدى فرق فى عشرة أيام من صلب ماله عشرة آلاف درهم . فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه خطيبا فقال : وللمهدى أشباه ،

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٤٨ — ٢٤٩

فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ، والأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، فأما القمر الزاهر فأشبه منه حسنه وبهاه ، وأما الربيع الباكر فأشبه منه طيبه وهواه ، وأما الأسد الخادر فأشبه منه عزمه ومضاه ، وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وسخاه .

وكان سرف المهدى مقصوداً له ؛ حكى الجهشيارى [1] : أن المهدى أراد أمراً فقال له يعقوب بن داود : هذا يا أمير المؤمنين السرف ؛ فقال المهدى : ويلك !! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف . ويلك يايعقوب ! لولا الإسراف لم يعرف المقل من المكثر .

ومن مآثر المهدى أنه رفع عن دافعى الضرائب المؤنَ والكسور ؛ من جهة المؤن فقد جعل على بيت المال نفقات جباة الأموال ، وأما الكسور فقصتها : أن الناس حتى عهد المنصور كانوا يؤدون الخراج من الدرهم الوافى وهو ثمانية دوانيق لا من الدرهم المستعمل بين الناس وهو ستة دوانيق ، فلما ولى المهدى قال : معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً فى ذلك ، فقيل له : إن أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله فى السنة ١٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم . فقال : علىّ أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً مهما نقصت بيوت الأموال [2].

وليس هذا كل ما فعله المهدى مع أهل الخراج ، بل إنه أمر أن يطالبوا باللين واليسر وكانوا من قبل يُعذبون بصنوف من العذاب ، فلما تقلد المهدى

---

(١) الوزراء والكتاب س ١٥٩ وانظر كذلك ابن الأثير ٦ : ٢٤

(٢) جبل نخله مدور: حضارة الإسلام فى دار السلام ٦٤ــ٦٥، وانظر الماوردى: الأحكام السلطانية س ١٣٨ .

الخلافة تقدم إلى أبي عبيد الله وزيره ، أن يكتب إلى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج[1].

وقرب المهدى العلويين ، وأطلق المسجونين منهم ، ووقف اضطهادهم الذى عانوه فى عهد أبيه ، وكان السبب فى ذلك أنه كان يصلى فى بهو له فى ليلة مقمرة ، فقرأ فى صلاته قوله تعالى « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم »[2] فلما أتم صلاته التفت إلى الربيع بن يونس وقال : ياربيع ، استدع لى موسى بن جعفر . وكان هذا محبوساً عند الربيع ، فلما حضر موسى قال له المهدى : ياموسى إنى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثِّق لى أنك لاتخرج علىَّ . قال : نعم ، ووثق له . فخلاه[3] .

ومما زاد فى إحسان المهدى للعلويين مكانة يعقوب بن داود منه ؛ فقد كان هذا كبير الميل للعلويين ، وقد انتهز فرصة رضاء المهدى عنه وتقريبه له فأمّن العلويين . وولّى كثيراً من الزيديّة أمور الخلافة فى الشرق والغرب[4] ولما حج المهدى سنة ستين ومائة وفى صحبته يعقوب بن داود أخذ هذا منه أمانا للحسن بن عبد الله بن الحسن ، وأحضره له فأحسن إليه المهدى ، ووصله بمال ، وأقطعه مالا من الصّوافى بالحجاز ، وأحمَدَ فعلَ يعقوب فى ذلك[5] .

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) سورة محمد الآية ٢٢ .

(٣) ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٨ .

(٤) الجهشيارى ص ١٥٨ .

(٥) الجهشيارى ص ١٥٦ .

ومما فعله المهدى أن أطلق المسجونين إلا من كان محبوساً بأمر القضاء ، كما أجرى الأرزاق على المجذومين وأهل السجون ، وكانوا من قبل يُتركون فريسة للجوع إلا أن يُموّنهم ذووهم ، وأمر المهدى بالزيادة فى المسجد الحرام ، ومسجد الرسول (ص) ، وكان المهدى أول خليفه عباسى جلس للنظر فى المظالم ، وكان إذا جلس قال : أدخلوا علىّ القضاة حتى يتحتم على ردّ المظالم ولو بدافع الحياء منهم ، وقال مسور بن مساور : ظلمنى وكيل المهدى وغصبنى ضيعة لى فكتبت إلى المهدى أتظلّم ، فوصلت الرقعة وعنده عمه العباس وأحد قضاته ، فاستدعانى المهدى وسألنى عن حالى فذكرته ، فقال : أترضى بأحد هذين؟ قلت : نعم ، فاستدعانى حتى التصقت بالفراش وحاكمنى ؛ فقال له القاضى : أطلقها له يا أمير المؤمنين ، قال : قد فعلت [1].

٣ – ترف القصور فى عهد الرشيد : سبق أن ذكرنا أن عهدى السفاح والمنصور ، كان طابعهما الصرامة والشدة بسبب العمل على تثبيت الدولة وقمع الفتن ، وفى أخريات عهد المنصور كانت الدولة تسير قدما نحو الترفيه والتيسير ، ثم جاء عهد الرشيد فكان خطوة أخرى لنقل الدولة إلى عهد طابعه اليسر والرخاء والترف . إنه تطور طبيعى فيما يبدو ، وكانت شخصية الرشيد ، والبيئة التى رُبّى فيها من أهم الأسباب التى جعلت الرشيد يستجيب لهذا التطور ويتفاعل معه إن صح هذا التعبير ، والمهم أن عهد الرشيد بلغ الذروة فى الترف والنعيم ، وتوافرت له الدواعى التى جعلت منه عهداً ملحوظاً ، ذائع الصيت ، لا فى العالم الإسلامى فحسب ، ولكن فى

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ .

العالم المتمدين كله ، أما دواعي الترف في هذا العهد وعناصره فهو ما سنحاول أن نجليه باختصار فيما يلي :

يقول ابن خلدون (١) « إن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها ، كثر رياشها ونعمتها ، فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته ، إلى نوافله ورقته وزينته ، ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم ، وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ، ويتفاخرون في ذلك ، ويفاخرون غيرهم من الأمم في أكل الطيب ، ولبس الأنيق ، وركوب الفاره ؛ وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك ، وترفهم فيه ، إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها ، وعوائد من قبلها ، ولا يحصل الملك إلا بالمطالبة والمغالبة ، فإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها ، وقلت المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلب الملك ، وآثر ذووه الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس ، فيبنون القصور ، ويُجرون المياه ، ويغرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا » .

وذلك هو ما تم أو بعض ما تم في عهد الرشيد وساعده على ذلك شبابه الغض ، وقصر أبيه الذي نشأ فيه ، ورجاله الذين حملوا عنه أعباء الحياة ومسئوليات الملك ، ومهدوا له سبل الترف وأسباب النعيم . ثم من المسلم به أن المال عصب المتعة وسلم الترف ، وقد توافر المال لدى الرشيد ولدى رجاله ، وللمال سحر وإغراء ، روى ابن خلدون (٢) أن المحمول إلى بيت

---

(١) المقدمة ١١٧ — ١١٨ .
(٢) « ١٢٧ .

المال فى أيام الرشيد بلغ ٧٥٠٠ قنطار فى كل سنة وذلك يعادل خمسة وسبعين مليوناً من الجنيهات غير الضريبة العينية التى تشمل الحبوب والأقمشة وغيرها، وإيراد كهذا فى تلك الأيام كان إيراداً أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، وما لك فى خليفة كان يستلق على ظهره، وينظر إلى السحابة المارة ويقول: اذهبى إلى حيث شئت يأتنى خراجك [١].

وأصبح بهذا عهد الرشيد عهد شباب الدولة ونضارتها، وهو يعتبر فى الذروة من عهود بنى العباس، وقد وصلت بغداد فيه إلى قمة مجدها، ومنتهى فخارها، وامتدت الأبنية فى الجانبين امتداداً عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين، وبلغ سكانها نحوا من مليون نسمة [٢].

ويقول ابن طباطبا [٣]: كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً، وأوسعها رقعة مملكة. جبى الرشيد معظم الدنيا، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقصاة والكتاب والأدباء ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة، ويرفعه إلى أعلى درجة.

ولم يكن الرشيد وحده هو الذى وصل إلى هذا الحد. بل إن رجال دولته وعظماءها وكثيراً من ولاته وقواده كانوا فى أوج عظمتهم، وأنضر أيامهم، وأكثرها بهجة وجلالا، لقد كثرت فى ذلك العهد القصور الشاهقة التى تموج بالرياش الفاخر، والأثاث الثمين، وتعج بالجوارى والقيان وتزخر بالشعر والموسيقى والغناء. وقد قرأ القوم آيات القرآن الكريم

---

(١) صبح الأعشى ٣ : ٢٧٠

(٢) طه الراوى : بغداد مدينة السلام ص ٣٤

(٣) الفخرى ١٧١ ـ ١٧٢

التي تصف الجنة ، فتعجلوا هذه الأوصاف فى الدنيا ، فهنا قصر الخلد الذى شبه بجنة الخلد التى وعد بها المتقون [(١)]. وهناك قصر السلام الذى لوحظ فى تسميته قوله تعالى « لهم دار السلام عند ربهم » [(٢)]. وأغلب قصور هذا العهد تجرى من تحتها الأنهار وتموج بحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون.

وحول قصر الخلد كانت الجنات الملتفة والحدائق المتسعة والأزهار المونقة ، من ورد وبهار ، وياسمين وجلنار ، وسوسن وأقحوان إلى غير ذلك مما اختلفت ألوانه ، وعبق أريجه ، وتضوع الجو بطيبه ، وفى خلال ذلك القنوات والغدران والجداول ، ومن دونها دجلة تزهو بفلكها وزوارقها . وقد أقبل الأمراء والسراة ، يشيدون حول الخلد قصورهم ، ويفتنون فى هذه القصور مامكنتهم وسائلهم الكثيرة ، وأموالهم الموفورة وأخيلتهم الخصبة ، وروح الترف التى كانت تسيطر عليهم . فها هو ذا بإزاء الخلد ، وعلى الضفة المقابلة فى ذلك المنحنى، قصر أبى أيوب سليمان بن أبى جعفر المنصور ، الشاعر الأنيق الرقيق ، وعم الخليفة ، وها هو ذا إلى جنوبى الخلد ، قصر أم جعفر زوج الرشيد الأولى ، ثم ها هى ذى قصور البرامكة فى رحبة الخلد تجاه باب خراسان ، إلى غير ذلك من القصور التى جمعت من الزينة ومظاهر الترف ما جعل من تلك الضاحية جنة الأرض .

وكانت مجالس اللهو والغناء والموسيقى فيها ، تضاعف فتنتها ، وتزيدها متاعا إلى متاع ، وكان يناوح هذه الضاحية القائمة على الشاطىء الغربى للنهر ضاحية الرصافة ، وضاحية الشماسية ، وكلتاهما من أحياء السراة والمترفين ،

---

(١) أنظر سورة الأنعام الآية ١٢٨

(٢) سورة الفرقان الآية ١٦

وفى الشماسية كانت اقطاعات البرامكة ، وفيها بنوا طائفة من القصور الرفيعة، وكان الخلد يشرف على هذه الأحياء الأنيقة القائمة فى الشاطىء الشرقى ، فكان ذلك مما يزيده جمال منظر وروعة وفتنة . وكان يتألف من الضفتين فى هذا الوضع مجموعة مونقة من القصور والجنان ، يتوسطها النهر، فجمعت بذلك بين الجمال المطبوع والجمال المصنوع ، وتمثلت فيها على أحسن وجه مظاهر هذه الحضارة التى اكتملت للعراق فى هذه الفترة [1]

وقد وصف على بن الجهم القصر الهارونى [لعله منسوب إلى هارون الرشيد] بقصيدة رائعة منها .

وقبــة ملك كأن النجو	م تصغى إليها بأسرارها
تخر الوفود لها سـجدا	إذا ما تجلت لأبصارها
وفوارة ثارها فى السماء	فليست تقصر عن ثارها
ترد على المزن ما أنزلت	إلى الأرض من صوب مدرارها
إذا أوقدت نارها بالعراق	أضاء الحجاز سـنا نورها
لها شرفات كأن الربيع	كساها الرياض بأنوارها [2]

ويقول Richard Coke [3]: وحظى هرون الرشيد بصيت عريض قل أن سجله التاريخ لغيره من الملوك والسلاطين ، وعليه تدور أقاصيص ألف ليلة وليلة ، التى ترجمت إلى معظم اللغات ، وانتشرت بذلك فى جميع أقطار العالم ، وتسربت إلى أغلب البيوت والمحافل ، وعلى الرغم من بعض

---

(١) طه الحاجرى : قصر الرشيد ٣١ ــ ٣٢

(٢) الأغانى جـ ٩ ص ١١٤

(٣) Baghdad : The City of Peace p.p. 61 – 64 abridged

نواحي الضعف في شخصية الرشيد ، هو بحق أحد عظماء الملوك فى التاريخ ، وفى عهد الرشيد شمل الرخاء الامبراطورية الإسلامية على نحو لم يتوافر من قبل ، وكانت حكومة الرشيد مهيبـــة الجانب فى الداخل والخارج ، وشاعت العدالة بين الناس ، واتصلت بغداد بتجارة واسعة مع بقاع العالم المختلفة التى كانت معروفة فى ذلك العهد ، ويمتاز هارون الرشيد بأنه بالإضافة إلى حماية رعيته وتأمينهم ، جلب لهـــم ألوان الحضارة والمدنية والفنون والآداب . وفى عهد هارون وصلت بغداد إلى قمة العظمة واتسعت اتساعاً عظيما فى كل اتجاه ، وتألفت الأبنية فيها ، وشمل التجديد والزخرفة جميع الأبنية التى بنيت قبل عهد الرشيد ، حتى أصبحت تتمشى مع العهد الجديد ، فأصبحت سمعة بغداد ، وجمالها ، والثقافة فيها ، وألوان الملذات والسرور ، وصنوف الترف والرخاء أصبح كل ذلك مشهوراً فى العالم كله ، وما استطاع الرّحالة أن يجدوا لبغداد فى عهد الرشيد نظيرا .

والقصة التالية ترينا صورة من الترف والغنى التى كانت طابع الهدايا التى اعتاد العظماء والسراة أن يقدموها فى المناسبات المختلفة ، قال المسعودى[1] : كانت أم جعفر قد كتبت إلى أبي يوسف تستفتيه فى مسألة ، فأفتاها بما عرف أنه يوافق هواها على حسب ما أوجبته الشريعة عنده ، وأداه اجتهاده إليه ، فسُرّت أم جعفر من الإفتاء ، وبعثت إلى أبي يوسف بحق فضة فيه حقان فى كل حق لون من الطيب ، كما بعثت له بجام ذهب فيه دراهم وبجام فضة فيه دنانير ، وشفعت ذلك بغلمان ، وتخوت من ثياب ، وحمار ، وبغل ؛ ويستمر المسعودى فيذكر أن الهدية وصلت أبا يوسف

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٦٥

وعنده بعض أصحابه ، فقال أحدهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها ؛ فقال أبو يوسف تأولتَ الخبر على ظاهره ؛ لقد كان ذلك حينما كانت هدايا الناس التمر واللبن ، أما الآن فهدايا الناس العين والورق وأمثالها ، وذلك للمُهدَى إليه خاصة تبعاً لقوله تعالى « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . (١)

وكان اهتمام القوم بالمحافل والأندية اهتماماً ملحوظاً ، كما اهتموا بالصيد والقنص وعنوا من أجل ذلك بتربية صنوف متعددة من السباع والطيور .

أما عن ملابسهم وطعامهم فعندنا من النصوص ما يوضح الترف البالغ الذى وصل إليه القوم فيها : دخل أبو قابوس النصرانى الحيرى - وكان منقطعاً إلى البرامكة - على جعفر بن يحيى فى يوم بارد ، فتبين عليه جعفر أثر البرد ، فألقى إليه مُطرَف خز كان شراؤه جملة كبيرة ، وانصرف أبو قابوس ، فحضره عيد لهم ، فالتمس فى ثيابه ما يشاكل ذلك المطرف فلم يجده ، فقالت له ابنته : لو كتبت إلى جعفر فعرفته حالك لوجه إليك ما تلبسه مع هذا المطرف . . فكتب إليه :

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا ... رأيت مباهاة لنا فى الكنائس
فلو كان هذا المطرف الخز جبة ... لباهيت أصحابى به فى المجالس
فلا بدَّ لى من جبة من جبابكم ... ومن طيلسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قوهى وثوب غلالة ... ولا بأس لو أتبعت ذاك بخامس
إذا تمت الأثواب فى العيد خمسة ... كفتك فلم تحتج إلى لبس سادس
لعمرك ما أفرطت فيما سألته ... ولا كنت لو أفرطت فيه بيائس

---

(١) سورة الحديد الآية ٢١

فلما قرأ جعفر بن يحى هذه القصيدة وجه إليه من كل صنف ذكره عشر قطع[1].

ذلك مثال واضح لملابس سراة الناس فى هذا العهد ، وهو يطابق أيضاً ماذكره الاصفهانى[2] من أن ابرهيم بن المهدى كان يلبس المطرف وجبة من الخز ، وأنه أهدى المطرف مرة إلى اسحق الموصلى عند مالقنه هذا لحناً من ألحانه ، وأن قيمة هذا المطرف كانت مائة ألف درهم فيما يذكرون

فاذا ذهبنا إلى الطعام ذكرت لنا المصادر مايدل على الترف البالغ الذى هو إلى السرف أقرب . حدث ابراهيم بن المهدى قال : استزرت الرشيد بالرقة ، فزارنى ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ، فلما وُضعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جام قريض سمك ، فاستصغر القطع وقال : لِمَ صغّر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هذه ألسنة السمك . فقال : فيشبه أن يكون فى هذا الجام مائة لسان . فقال مراقب مطبخه : ياأمير المؤمنين ، فيها أكثر من مائة وخمسين ؛ فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه أكثر من ألف درهم . . قال ابراهيم بن المهدى وكان شراء الجام مائتين وسبعين دينارا[3] .

فانظر مدى هذا الترف فى تلك العصور المبكرة ؛ وعاء على المائدة ثمنه مائتان وسبعون ديناراً وأغلب الظن أن كل الأوعية على المائدة من هذا الطراز ، ثم هناك الطعام الحار والطعام البارد ، وألسنة السمك لون

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢١٠

(٢) الأغانى ٩ : ٥٩ ـ ٦٠

(٣) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٧٩ ـ ٢٨٠

من ألوان البوارد ، وقيمة هذا اللون فى الوعاء ألف درهم ، ولو أن ابراهيم ابن المهدى أكمل لنا وصف المائدة لنقل لنا صورة رائعة لطعامهم وشرابهم وربما بدت لنا إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة .

فإذا تركنا هذه المائدة التى أعدت للخليفة ، وذهبنا إلى مائدة أخرى لم تكن معدة ولا مقصودة بقدر ما كان الأنس والطرب هما المقصودان ولم تكن مقدمة إلى خليفة ولا إلى أمير ، وإنما إلى رجل قد يكون من الطبقة الثانية أو الثالثة ، إذا ذهبنا إلى هذه المائدة فماذا سنرى هناك ؟ .. استمع إلى مخارق يحدثنا حديث هذه المائدة فيقول : جاءنى أبو العتاهية فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوما تهبه لى ، فتى تنشط ؟ .. فقلت : حتى شئت .. فقال : أخاف أن تقطع بى . فقلت : والله لا فعلت وإن طلبنى الخليفة . فقال : يكون ذلك فى غد . فقلت : أفعل .. فلما كان الغد باكرنى رسوله (رسول أبي العتاهية) فجئته ، فأدخلنى بيتا نظيفا ، فيه فرش نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبز سميذ وبقل وملح وجدى مشوى ، فأكلنا منه ثم دعا بسمك مشوى فأصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بحلواء فأصبنا منها وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبذة فقال : اختر ما يصلح لك منها فاخترت وشربت ، ثم أخذت أشرب ويشرب معى ، وأغنى له وهو يسمع حتى صارت العتمة (١)

إن ترف هؤلاء القوم قد بلغ الغاية وأربى ، وان دراسته دراسة كاملة لتستدعى عملا مستقلا ، فلنتوقف الآن عنه لننتقل بالحديث إلى موضوع آخر من جوانب الازدهار فى هذا العصر الذهبى للخلافة العباسية .

---

(١) الأغانى ٣ : ١٧٣ ـ ١٧٤ .

٤ — النهضة الثقافية : سيمضى حديثنا عن النهضة الثقافية هنا فى حيز ضيق على النسق الذى تقتضيه الدراسة فى هذا الكتاب ، أما الوصف الشامل للحياة التربوية عند المسلمين فقد خصصت له كتابا قائماً بذاته هو « تاريخ التربية الإسلامية » ، وقد صدر عن دار الكشاف ببيروت باللغتين العربية والإنجليزية فليرجع إليه من شاء[1]. وقد صور Professor Nicholson[2] النشاط العلمى فى العالم الإسلامى تصويرا دقيقا يحسن أن نقتبس منه السطور التالية : وكان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون فى حماس ظاهر وسط القارات الثلاثة [وهى عالم ذلك العصر] ثم يعودون إلى بلادهم ، كما يعود النحل محملا بالعسل الشهى ، فيجلس هؤلاء الباحثون ليرووا شغف الجماهير التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم ، فينالوا من علومهم ومعارفهم زادا وفيرا ، وخيرا عميما . كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون أحيانا على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ، ثم يخرجون للناس كتبا هى بدوائر المعارف أشبه، مع نظام وبلاغة عذبة ، وهذه الكتب هى المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتمله كلمة العلوم من معنى ، وهى مرجع العلماء والباحثين ، ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون .

ومن الطبيعى أن يكون العصر العباسى الأول أنسب العصور ملاءمة للنهضة الثقافية ؛ . فمدنية الإسلام بدأت فيه تستقر بعد هدوء حركة التوسع والفتوح التى كانت طابع العصر الأموى ، والثقافة تنتشر فى الأمة إذا

(١) لدار الكشاف فروع فى عواصم البلاد العربية وفرعها فى القاهرة عنوانه ٣٧ شارع عبد العزيز .

(٢) A Literary History of the Arabs P. 281.

هدأت ، واستقرت أمورها ، وانتظم ميزانها الاقتصادى ، وجل هذا قد توافر للأمة الاسلامية بعد قيام الدولة العباسية ، وتمكن السفاح والمنصور من تثبيت الدولة ، والضرب على يد أعدائها ، وحينئذ أفسح رجل الحرب الطريق لرجال الإدارة والمال والقانون والآداب ، فظهر فى ذلك العصر نخبة من الشعراء والفلاسفة والمؤرخين والرياضيين ورجال الدين ، وقادة الفكر الذين أكسبوا اللغة العربية أغنى وأبرز تراث أدبى حظيت به [1] .

وكانت النهضة العلمية فى ذلك العصر تتمثل فى ثلاثة جوانب :

(١) حركة التصنيف

(٢) تنظيم العلوم الإسلامية واستقرارها

(٣) الترجمة من اللغات الأجنبية .

وهاك حديثا قصيرا عن كل جانب من هذه الجوانب :

١ — حركة التصنيف : مرت حركة كتابة الكتب بمراحل ثلاثة ينبغى أن يتميز كل منها عن الآخرين ؛ المرحلة الأولى وهى أدناها وأيسرها ؛ عبارة عن تقييد الفكرة أو الحديث أو نحو ذلك فى صحيفة مستقلة ، والمرحلة الثانية وهى أوسطها شرفا عبارة عن تدوين الأفكار المتشابهة أو أحاديث الرسول فى ديوان واحد ، فهنا أحكام فقهية جمعت فى ديوان ، أو مجموعة من الأحاديث ، أو أخبار تاريخية وهكذا ، أما المرحلة الثالثة وهى أشرفها فهى مرحلة التصنيف وهى أدق من التدوين ؛ لأنها ترتيب ما دوّن وتنظيمه ووضعه تحت فصول محدودة وأبواب مميزة . . قال الزبيدى [2] « وصنّفه تصنيفا جعله أصنافا ، وميز بعضها عن بعض ، قال الزمخشرى ومنه تصنيف الكتب » [3] .

(١) Richard Coke : The City of Peace p. 48

(٢) تاج العروس ٦ : ١٦٨

(٣) انظر تصدير الأستاذ يوسف العش لكتاب « تقييد العلم » للخطيب البغدادى ص ٨

وهذه المرحلة وصل لها المسلمون فى العصر العباسى الأول ، وكان الأئمة قبل ذلك يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف غير مرتبة ، حتى سنة ١٤٣ ه إذ شرع العلماء المسلمون فى تصنيف الحديث والفقه والتفسير وكتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، ومن أشهر المصنفين فى هذا العصر مالك الذى ألف الموطأ ، وابن اسحاق الذى كتب السيرة ، وأبو حنيفة الذى صنف الفقه والرأى [1] ويرجع إلى أبى جعفر المنصور الفضل فى توجيه العلماء هذا الاتجاه ، وقد كان المنصور كما يقول السيوطى [2] كامل العقل ، جيد المشاركة فى العلم والأدب ، فقيه النفس ، تلقى العلم عن أبيه وعن عطاء بن ياسر ؛ ويروى أنه قابل الإمام مالكا فى موسم الحج ، وفاتحه فى مسائل كثيرة من العلم ، ثم قال له : يا أبا عبد الله لم يبق فى الناس أفقه منى ومنك ، وإنى قد شغلتنى الخلافة ، فاجمع هذا العلم ودوّنه ، ووطئه للناس توطئة ، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبد الله بن العباس ، وشواذ عبد الله بن مسعود ، واقصد إلى أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم ؛ فاعتذر مالك ، فلم يقبل منه ، فوضع كتابه الموطأ ، وأثر عن مالك قوله : والله لقد علمنى المنصور التصنيف [3].

ويقول حاجى خليفة [4] : واختلف فى أوّل من صنّف فقيل الإمام عبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج البصرى (١٥٥ ه) وقيل أبو النصر سعيد بن أبى عروبة (١٥٦ ه) وقيل ربيع بن صبيح (١٦٠ ه) ثم صنف

---

(١) الذهبى : دول الاسلام حوادث سنة ١٤٣ والسيوطى : تاريخ الخلفاء ١٠١ـ١٠٢

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٠١

(٣) احمد زكى صفوت : العلوم والمعارف فى العصر العباسى ٣ـ٤ .

(٤) كشف الظنون ١ : ٢٦ .

معمر بن راشد (١٥٣ ﻫ) وسفيان الثورى (١٦١ ﻫ) ومالك بن أنس (١٧٩ ﻫ) وعبد الله بن مبارك (١٨١ ﻫ)[1] .

وسواء أكان هذا أوّل من صنف أم ذاك فإن من المتفق عليه أن هذا العصر هو عصر التصنيف ، وأن النضج العلمى الذى ينشأ عن طبيعة التطور ، بالإضافة إلى الاتصال بالنتاج الأجنبى الذى كان قد وصل إلى درجة كبيرة من دقة التأليف والتنظيم قد كانا من أهم الأسباب التى نقلت النتاج فى البلاد الإسلامية من التدوين إلى التصنيف ، ولسنا فى حاجة إلى القول أن حركة التصنيف لم تتوقف بعد ذلك ، بل سارت قدماً وأخذت طريقها نحو الدقة وحسن الترتيب .

٢ — تنظيم العلوم الاسلامية واستقرارها :

العلوم الاسلامية هى هذه الطائفة من العلوم التى نبعث من طبيعة الحياة الاسلامية ، وهى التى تتعلق بالدين ولغة القرآن ، ويطلق عليها بعض المصنفين « العلوم النقلية » ، إذ أن الباحث فيها ليس له إلا أن ينقل ويروى ، فالمفسر والمحدث ليس لهما إلا أن يرويا ما تلقياه عن طائفة عن أخرى مرفوعة إلى الرسول (ص) ، وليس للغوى إلا أن ينقل اللغة عن العرب الخلص ، أو عمن سمع منهم مباشرة أو بواسطة . ويتضح من هذا أن تسمية هذه العلوم بالعلوم النقلية فى هذا العصر الذى ندرسه لم تعد تسمية دقيقة ، ذلك لأن علماء هذا العصر استباحوا أن يعتمدوا على العقل والمنطق فى التدليل لما يذهبون إليه ، فأصبح المحدث يحكم على هذا الحديث أو ذاك بأنه موضوع لأنه يخالف العقل والمنطق ، وأصبح يفتى فى مسألة فقهية لم يرد

---

(١) أنظر أيضا الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ١٠ : ٤٠٠ ، ١٤ : ١١٥

فيها نص صريح باجتهاده وتفكيره ، وإن خالف فى ذلك من سبقوه من المجتهدين ، وأصبح أحيانا يؤول النص للتوفيق بين طوائف النصوص التى يظهر فيها شىء من الاختلاف ، أو ليحكم بغير ما سجله النص اعتمادا على أن النص روعيت فيه حالة خاصة . ومن أجل ذلك آثرتُ أن أطلق على هذه العلوم « العلوم الإسلامية » . ومما يؤيد اتجاهى أن علم الكلام معدود ضمن هذه العلوم ، والمتكلمون — كما يقول الأستاذ أحمد أمين (١) — أظهر عنصر عقلى فى الحركة العلمية . وهم لا يميلون كثيراً إلى المنقول ، ولا يثقون بكل ما فيه ثقة المحدثين وغيرهم ، وكانت لهم مذاهب مقررة فى العدل والتوحيد وصفات الله وأفعال العباد ونحو ذلك ، تثبت لهم بحثهم .

والعلوم الاسلامية تدين للعصر العباسى الأول بما وصلت إليه من دقة وتنظيم ، وهاك الحديث عن بعضها ، وعما نالته من تطور فى هذه الفترة من التاريخ .

التفسير . يمكن القول أن هذا العصر شهد ميلاد علم تفسير القرآن ، وفصلَه عن علم الحديث . . . أما ميلاد علم تفسير القرآن ، فلأن ما سبق هذا العهد لم يكن تفسيراً للكتاب المنزل كله ، ولا لبعضه مرتباً وإنما كان تفسيراً لبعض آيات من هنا ومن هناك ، تعرّ لغرض معين ، أو يختلف الناس فى معناها ، أما فى العصر الذى نتحدث عنه . فقد تطور التفسير تطوراً عظيما ، وأصبح متسلسلا شاملا ، يحكى ذلك ابن النديم بقوله : « إن عمر بن بكير كان منقطعاً إلى الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء : أنّ الأمير الحسن بن سهل ربما سألنى عن الشىء بعد الشىء من القرآن ،

(١) ضحى الاسلام ٢ : ١٤٦ — ١٤٧ .

ولا يحضرنى فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا ، أو تجعل فى ذلك كتاباً أرجع إليه ، فعلتَ ، فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً فى القرآن ؛ وجعل لهم يوماً ، فلما حضروا ، خرج إليهم وكان بالمسجد رجل يؤذن ، ويقرأ للناس فى الصلاة ، فالتفت إليه الفراء وقال له : إقرأ بفاتحة الكتاب، فقرأ ففسرها الفراء،ثم استوفى الكتاب كله. يقرأ الرجل ويفسر الفراء . قال أبو العباس : لم يعمل أحد قبله مثله ، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه [1] ، وكان هذا أول تفسير للقرآن كله مرتباً على حسب ترتيب الآيات ، وكان فاتحة لمن جاء بعد ذلك ، ليسلكوا هذا الطريق ، حتى جاء الطبرى الذى حشد فى تفسيره كل المزايا التى سبقه بها أسلافه .

أما فصل التفسير عن الحديث فقد ظهر فى هذه الفترة أيضاً ؛ فقد كان المسلمون قبل ذلك يفسرون آيات القرآن بأحاديث الرسول أو بأقوال التابعين ، فلما كان العصر العباسى الزاهر ، استقل تفسير القرآن ، وأصبح كثير من المفسرين يلجئون فى تفسير القرآن إلى اجتهادهم هم ، مستعينين أحياناً بحديث للرسول ، أو بقول تابعى ، أو شعر عربى . والمهم أن صلب التفسير أصبح كلام المفسر لا رواياتٍ أو أخباراً ينقلها دون أن تبرز شخصيته فيما يدوِّن . وقد مال المعتزلة بوجه خاص إلى استعمال العقل فى التفسير [2] كما فعل الجاحظ فى قوله تعالى « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعُها كأنه رءوس الشياطين » [3] إذ قال فى تفسير ذلك :

---

(١) الفهرست ص ٦٦ طبعة أوربة .

(٢) اقرأ فى هذا الموضوع « المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن » لجولدزيهر ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر .

(٣) الصافات الآيتان ٦٤ و٦٥

إن الناس لم يروا شيطاناً قط على صورة ، ولكن لما كان الله قد جعل فى طباع جميع الأمم استقباحَ صور الشياطين واستسماجها وكراهيتها وأجرى على ألسنة الناس جميعهم ضرْب المثل فى ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير ، وبالإضافة والتقريع إلى ما قد جعله الله فى طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم [1] ... وهذا التشبيه أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن [2] .

وإذا كان المعتزلة قد اتجهوا بالتفسير هذا الاتجاه فإن علماء الفقة قد اهتموا فى تفسيرهم للقرآن باستنباط الأحكام منه ، واهتم اللغويون بغريب القرآن ، واستنبط النحويون من القرآن قواعد النحو ، وهكذا . فكان القرآن قاسما مشتركا، تلجأ إليه الطوائف الثقافية المتعددة لتجد فيه زادا يغذى النفس غذاء روحيا ، ومئونة تمد العلوم المختلفة بالخير الوفير . .

الفقه : من مفاخر هذا العصر أنه عاش فيه أئمة الفقه الأربعة وهم أبو حنيفة (١٥٠ ﻫ) ومالك (١٧٩ ﻫ) والشافعى (٢٠٤ ﻫ) وأحمد بن حنبل (٢٤١ ﻫ) .. وهؤلاء الأئمة هم بلا منازع أكبر أئمة الفقة فى العالم الإسلامى، ومذاهبهم هى أشهر وأوسع المذاهب انتشارا حتى العهد الحاضر .

وهناك طريقتان فى التشريع تستحقان بعض العناية ، وهما : طريقة أهل الرأى وطريقة أهل الحديث ؛ فالطريقة الأولى تعتمد على استنباط حكم ما من النصوص المأثورة ، إذا لم يرد لهذا الحكم نص صريح ، وسُمُّوا بذلك لاتقانهم معرفة الحلال والحرام واستخراجهم المعانى من النصوص لبناء

---

(١) كتاب الحيوان ٤ : ٣٩ — ٤٠ وانظر كذلك الكامل للمبرد ٢ : ٦٩

(٢) أنظر تفسير الفخر الرازى ٧ : ١٤١

الأحكام ، ودقة نظرهم فيها ، وكثرة تفريعهم عليها . وأما طريقة أهل الحديث فهي التمسك بالحديث والعمل بالنص وحده ، فهم يريدون أن يرجعوا الفقه كله إلى الرسول ويرفضون الأخذ بالرأي [1] .

وقد اتجه زعماء مدرسة العراق إلى الأخذ بالرأي لقلة الأحاديث المعتمدة عندهم ، ولخوفهم أن يكون الحديث موضوعا ، مما جعلهم يتهيبون الحديث ، ويستسهلون الرأي الذي يعتمد على الفكر والمنطق ، مع نصوص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أما أهل المدينة موطن الرسول فقد كثرت عندهم الأحاديث لكثرة من يحفظها هناك ، فأغنتهم الأحاديث عن استعمال الرأي والقياس ، وكانوا يرون في الاعتماد على هذه الأحاديث منجاة لهم من الزلل ، ومن أجل هذا كان الواحد منهم يحيل السائل إلى سواه من العلماء لعله يجد عند أحدهم حديثاً يفتي به ، وبينما كان أهل المدينة يتحرزون هكذا من استعمال الرأي كان أهل العراق لا يكتفون بالاجتهاد في المسائل التي يُستفتَوْن فيها ، بل كانوا يفترضون الفروض ليبحثوا ويجتهدوا ، كافتراضهم أن يطلق رجل امرأته نصف طليقه ، أو يحلف بالطلاق إن زوجته أجمل من القمر ، وهكذا مما يدل على سعة الهوة بين المدرستين ، غير أن هذه الهوة لم تستمر طويلا ، إذ أن الرحلات لتلقي العلم قاربت بين وجهتي النظر . فأخذ المدنيّون معهم الحديث إلى العراق ، كما أخذ العراقيون معهم فتاواهم وآراءهم إلى المدينة ، ثم رحل عدد من كبار الأئمة كمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، الذي رحل إلى المدينة وقرأ موطأ مالك ، وكالشافعي الذي رحل

(١) علي حسن عبد القادر : نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ٢٠٥ ـ ٢٠٦

إلى العراق وإلى المدينة فنال من هذه ، ومن تلك .

ومما يدل على شغف أبى حنيفة بالرأى والقياس ذلك الحوار الطريف القصير ، الذى دار بينه وبين حلاق يهذب له شعره ؛ فقد طلب منه أبو حنيفة أن يلتقط من ذقنه الشعرات البيض ، فاعتذر الحلاق معللا اعتذاره بأنه لو التقط الشعرات البيض لكثرت كثرة ربما طغت على الشعر الأسود ؛ فقال له أبو حنيفة . إذاً التقط الشعر الأسود ليكثر فيطغى على الشعرات البيض .

ومن أحسن كتب التشريع والفقه والإدارة التى كتبت فى ذلك العهد ، كتاب الخراج الذى كتبه أبو يوسف تلميذ أبى حنيفة ، استجابة لرأى الرشيد الذى طلب منه أن يضع له كتاباً عن نظم الحكومة وإدارة الدولة . وقد جاء كتابا جليل القدر عظيم الشأن .

النحو : حفل العصر العباسى الأول بأئمة النحو الذين شيدوا أركانه وأقاموا دعائمه فى مدرستيه العظيمتين : البصرة والكوفة ، فممن عاش فى هذا العصر من أئمة النحاة البصريين عيسى بن عمر الثقفى (١٤٩ ﻫ) وأبو عمرو ابن العلاء (١٥٤ ﻫ) والخليل بن أحمد (١٧٥ ﻫ) والأخفش (١٧٧ ﻫ) وسيبويه (١٨٠ ﻫ) ويونس بن حبيب (١٨٢ ﻫ) ومن الأئمة الكوفيين أبو جعفر الرؤاسى [1] والكسائى (١٨٢ أو ١٨٣ أو ١٨٦ ﻫ كما ذكره ابن خلكان ج ١ : ص ٣٣١ أو ١٨٩ ﻫ كما ذكره غيره) والفراء (٢٠٧ ﻫ) ،

(١) لم أجد تاريخ وفاته فى بغية الوعاة ولا غيره من المراجع التى تمكنت من الحصول عليها ، وهو على كل حال أستاذ الكسائى (١٨٩ ﻫ) والفراء (٢٠٧ ﻫ)

ولا نزاع أن من يطلع على هذه الأسماء يدرك أننا حتى الآن نعتمد فى الدراسات النحوية على النتاج والأفكار التى ظهرت فى هذا العصر الزاهر.

وكانت مدرسة البصرة تختلف اختلافاً بيناً عن مدرسة الكوفة، فالأولى كانت تعنى بوضع قواعد أساسية للغة العربية تبعاً لأغلب ما ورد عن العرب، فإذا ظهر ما يخالف هذا الغالب عدّوه شاذاً، فإذا ثبتت صحته قالوا يحفظ ولا يقاس عليه، وربما ضعّفوا قائله أو خطّئوه؛ وقد ترجم ابن خلكان لعيسى بن عمر الثقفى أحد زعماء هذه المدرسة وأول من ألف فى النحو بعد أبى الأسود الدؤلى (٦٧ هـ) وتتضح من هذه الترجمة قيمة النتاج العلمى الذى وضع فى هذا العصر، كما تتضح منها الأسس التى قامت عليها مدرسة البصرة، قال ابن خلكان [1] ولعيسى بن عمر كتاب فى النحو سماه الجامع، يقال إن سيبويه أخذه وبسطه وحشّى عليه من كلام الخليل وغيره، ولما كمل البحث والتحشية نسب إلى سيبويه، وهو كتاب سيبويه المشهور، والذى يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل بن أحمد، سأله الخليل عن مصنفات عيسى، فقال سيبويه: صنف نيفاً وسبعين مصنفاً فى النحو، وأن بعض أهل اليسار جمعها، وأتت عنده عليها آفة، فذهبت ولم يبق منها فى الوجود سوى كتابين أحدهما اسمه الإكمال، وهو بأرض فارس عند فلان، والآخر الجامع وهو هذا الكتاب الذى أشتغل فيه، وأسألك عن غوامضه، فأطرق الخليل ساعة، ثم رفع رأسه وقال: رحم الله عيسى وأنشد:

ذهب النحو جميعاً كله　　غير ما أحدث عيسى بن عمر

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٩٣ — ٣٩٤

ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

ويقال إن أبا الأسود الدؤلى لم يضع فى النحو إلا باب الفاعل والمفعول فقط ، وأن عيسى بن عمر وضع كتابا على الأكثر [أى تبعاً لغالبية ماورد عن العرب] وبوّبه وهذبه ، وسمّى ماشذّ عن الأكثر لغات، وكان يطعن على العرب ، ويخطّئ المشاهير منهم مثل النابغة وغيره .

وقد بدأت مدرسة الكوفة متأخرة عن مدرسة البصرة ، بل إنها تفرعت عنها ، ومنشئها أبو جعفر الرؤاسى ، وقد احتضنها الخلفاء العباسيون وقربوا زعماءها . وكان التنافس على أشده فى عهد الرشيد بين سيبويه والكسائى اللذين انتهت إليهما رياسة المدرستين فى ذلك الحين ، ويذكر ابن خلكان قصة المناظرة التى حدثت فى مجلس الرشيد بين سيبويه والكسائى والتى زعم الكسائى فيها أن العرب تقول : كنت أظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها ؛ فقال سيبويه : بل الصحيح فإذا هو هى ، فتشاجرا طويلا ، واتفقا على مراجعة عربى خالص ، فاستدعى الأمينُ عربيا وسأله ؛ فقال كما قال سيبويه . فقال له : نريد أن تقول كما قال الكسائى ووعده بجائزة ، فقال العربى : إن لسانى لايطاوعنى ، فقرروا أن شخصاً يقول : رأى سيبويه كذا ورأى الكسائى كذا فالصواب مع من فيهما ؟ فيقول العربى : مع الكسائى . فقال العربى : هذا يمكن . وعقد المجلس وسئل العربى فأجاب : مع الكسائى وهو كلام العرب ، فعلم سيبويه أنهم تمالئوا عليه وتعصبوا للكسائى فخرج من بغداد [1]

وكانت الأسس التى راعتها مدرسة الكوفة أيسر كثيراً من تلك التى

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٨٥ ــ ٣٨٦

تمسكت بها مدرسة البصرة ، فقد كان الكوفيون يقبلون كل مانطق به عربى ، ويتخذونه على أنه اتجاه عربى يجوز تقليده ويرتبون عليه القواعد ؛ روى لهم قول الشاعر .

يا ليت عدة حولٍ كلّه رجب

فأجازوا لذلك أن تؤكد النكرة بالمعرفة إذا كانت النكرة مؤقتة ، وقاسوا على ذلك جواز قولك : صمت شهراً كلّه وتهجدت ليلة كلّها ، أما البصريون فطعنوا أولا فى نسبة الشطر ، وثانيا قالوا : إذا صحّت نسبة هذا الشطر إلى عربى فهو شاذ لايقاس عليه [1] وهكذا نشأت مسائل خلافية بين البصريين والكوفيين، جمع كثيراً منها ابن الأنبارى فى كتابه « الانصاف فى مسائل الخلاف » .

هذا وقد كانت الكوفة والبصرة مثلا واضحاً للعصبية البلدية التى حلت محل العصبية القبلية التى كان يدين بها العرب من قبل .

التاريخ : كما كان الحديث أباً لعلم التفسير كذلك كان أباً لعلم السيرة . فقد كان الصحابة والتابعون يروون الأحاديث عن مولد الرسول ، ورضاعته ونشأته ، وشبابه ، وبعثته ، وما عاناه فى مكة ، وكيف استُقبل فى المدينة ، وكذلك كانوا يروون الأحاديث المتعلقة بغزواته ، وباستعداده لنشر الإسلام فى خارج جزيرة العرب ، ولما صُنّفت الأحاديث وضعت الأحاديث المتعلقة بسيرة الرسول وغزواته تحت عنوان خاص هو « باب المغازى والسير » ولا يزال هذا الباب موجوداً فى أشهر كتب الحديث كالبخارى ومسلم مع بعض الاختلاف فى تسميته . وكان هناك من الصحابة

(١) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ٢ : ٢٩٥ — ٢٩٦ .

والتابعين من يهتم اهتماماً خاصاً بهذا النوع من الحديث ، ومن هنا نبتت فكرة استقلال علم السيرة عن الحديث . فلما جاء العهد الذهبي الذى نتحدث عنه ، كانت هذه الفكرة قد قويت ووجدت من ينفذها تنفيذاً علمياً دقيقاً ، وهو محمد بن اسحق (١٥٢ ﻫ تقريبا) وكتابه فى السيرة أقدم كتاب نعرفه فى هذا الموضوع ، وقد وصلنا هذا الكتاب بعد أن اختصره ابن هشام (٢١٨ ﻫ) فى كتابه المعروف بسيرة ابن هشام .

وكان الرسول (ص) قد أعد العدة لنشر الإسلام فى خارج جزيرة العرب عن طريق الكتب والبعوث ، ولكن السياسة السلمية لنشر الإسلام لم تنجح ، واعتُدِى على بعض المبعوثين بالايذاء والقتل ، فأعد الرسول العدة للثأر ، ولتقويض القوى الغاشمة التى تقف حائلا بين الدعوة وبين الشعوب المغلوبة على أمرها على حدود جزيرة العرب ، وكان كُتّاب السيرة قد كتبوا عن ذلك ضمن ما كتبوه عن سيرة الرسول [1] ولكن روح الرسول صلى الله عليه وسلم صعدت للرفيق الأعلى قبل أن يتم هذا فأتمه بعده أبو بكر وعمر . ومن هنا اتجه كتاب السيرة إلى وصل سيرة الرسول بسيرة من جاء بعده من الخلفاء لأنهم قاموا بإكمال ما بدأه ، وأصبح يطلق على هذا النتاج الجديد كلمة التاريخ . ومن أشهر من صنفوا فيه فى عصرنا هذا العلامة محمد بن عمر الواقدى (٢٠٧ ﻫ تقريباً) فقد ألف كتاب التاريخ الكبير الذى اعتمد عليه الطبرى كثيراً حتى حوادث سنة ١٧٩ ﻫ أما الكتاب نفسه فلم يصح وروده لنا ، وللواقدى كتاب آخر يعرف بالمغازى وهو بين أيدينا ، وليس هذا هو كل ما وصل لنا من علم الواقدى ، فإن علمه قد جاءنا عن طريق شخص

(١) انظر بعث الرسول لأسامة بن زيد ليفتح أرض فلسطين (ابن هشام ج ٢ ص ٣٦٥)

آخر من مؤرخي هذا العصر أيضاً وهو كاتبه محمد بن سعد (٢٣٠ ﻫ) الذي كانت شهرته «كاتب الواقدي»، وقد خلف لنا محمد بن سعد كتابه القيم «الطبقات الكبرى» وهو ثمانية أجزاء يتحدث في الجزء الأول والثاني عن سيرة الرسول وفي الأجزاء الستة الباقية عن أخبار الصحابة والتابعين، ومحمد بن سعد هذا هو أحد شيوخ العلامة البلاذري (٢٧٩ ﻫ).

٣ — الترجمة من اللغات الأجنبية :

بدأت الترجمة في هذا العصر منذ عهده الباكر واهتم بها الخلفاء لأول مرة في تاريخ الإسلام، ذكر السيوطي [١]، أن المنصور أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية باللغة العربية ككتاب كليلة ودمنة، واقليدس»؛ ولكن حياة الرشيد والمأمون تمثل في الواقع العصر الذي وصلت فيه الترجمة ذروتها في النشاط والدقة [٢] وكان بيت الحكمة - الذي أسسه الرشيد ورعاه المأمون — مركز ذلك النشاط، وقد ضم بيت الحكمة كتباً وضعت في الأصل بلغات مختلفة، ومن أهمها الكتب اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والآرامية، ومن أجل هذا كان المترجمون كثيرين ينقل بعضهم من اللغة اليونانية، وينقل آخرون من الفارسية، وينقل فريق ثالث من الهندية وهكذا.

وقد وجهت العناية في بدء العهد ببيت الحكمة إلى الكتب الفارسية والهندية، ويرجع السبب في ذلك إلى أن يحي بن خالد كان في هذه الأثناء يشرف على شئون الدولة بوجه عام، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص، ويحي

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٠٥.

(٢) انظر ما كتبته عن المترجين وعن دار الحكمة في كتابي « تاريخ التربية الاسلامية »

ابن خالد فارسى الأصل ، والثقافة ، فاهتم بأن ينقل إلى اللغة العربية ألوانا من ثقافة الفرس . فجلب إلى بيت الحكمة مجموعة من الكتب الفارسية ، وعيّن لترجمتها أشخاصاً لهم سيطرة على اللغة الفارسية ومعرفة باللغة العربية من أمثال أبي سهل الفضل بن نوبخت ، وعلان الشعوبى ، ويقول ابن النديم[1] عن ابن نوبخت : له نقول من الفارسى إلى العربى ، ومعوله فى علمه على كتب الفرس ؛ وكان للفرس صلة بالهنود ، ومعرفة بالثقافة الهندية ومدى رقيها . ومن أجل هذا نجد يحيى بن خالد يرسل فى طلب بعض علماء الهنود الممتازين ويعين من يترجم عنهم كتبهم وأفكارهم إلى اللغة العربية ، وبواسطة هؤلاء العلماء الهنود الذين استدعاهم يحيى ، نقلت فنون من الثروة العلمية ، من الهندية إلى العربية[2] .

ثم جاءت الثروة الضخمة فى أخريات عهد الرشيد ، وخلال عهد المأمون عن طريق التراث اليونانى الخالد . وقد حفلت المراجع العربية بالحديث عن ذلك .

ذكر ابن أصيبعة[3] أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة ، مما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، حين ملكها المسلمون ، ووضعه أمينا على الترجمة .

فهذه مجموعة من الكتب اليونانية جلبت من أنقرة وعمورية إلى بيت الحكمة ، وهناك مجموعة أخرى جلبت من قبرص ، يحدثنا عنها ابن نباته

---

(١) الفهرست ص ٢٧٤ .

(٢) Khuda Bukhsh : Islamic Libraries; 19th Century L11, p. 128 .

(٣) عيون الأنباء ١ : ١٧٥

المصرى فيقول [1] : إن المأمون جعل سهل بن هارون كاتباً على خزانة الحكمة ، وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لايظهر عليها أحد . فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوى الرأى عنده ، واستشارهم فى حمل الخزانة إلى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة ، إلا مطرانا واحدا فإنه قال : الرأى أن تعجل بإنفاذها إليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها ، فارسلها إليه ، واغتبط بها المأمون.

وهناك مجموعة ثالثة جاءت من القسطنطينية إلى خزانة الحكمة ويُحدثنا عنها ابن النديم [2] فيقول : إن المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن فى إنفاذ مايختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا مااختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلاد الروم ، وأحضر المأمون أيضا حنين بن اسحاق ، وكان فتىّ السن ، وأمره بنقل مايقدر عليه من كتب الحكماء واليونانيين إلى اللسان العربى ، وإصلاح مابنقله غيره فامتثل لأمره.

تلك بعض مجموعات الكتب اليونانية التى وردت إلى بيت الحكمة ،

---

(١) سرح العيون ص ١٦٦

(٢) الفهرست ص ٢٤٣

وقد عين لها مشاهير العلماء لترجمتها وكان المترجمون ممن لهم خبرة علمية بالموضوع الذى يترجمون منه، بالإضافة إلى سيطرتهم على اللغتين اليونانية والعربية، ومن أشهر الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحاق وابنه اسحاق، ومحمد بن موسى الخوارزمى، وسعيد بن هارون، وعمر بن الفرّخان وغيرهم.

ولم يكن الخلفاء وحدهم هم الذين عنوا بتزويد اللغة العربية بهذا الزاد العقلى الرفيع، بل إن من أفراد الشعب مَن أوْلى الترجمةَ عناية كبيرة، وبذل من أجلها مالا كثيراً، ومن هؤلاء بنو شاكر وهم محمد وأحمد والحسن وقد كان لهم مترجمون لا يفتأون ينقلون لهم، ويلازمون العمل فى مكتبتهم، ومن هؤلاء المترجمين حبيش بن الحسن وثابت بن قرة [1].

ويجدر بنا أن نرجع. قبل أن ندع هذا البحث إلى بعض المراجع الأجنبية، لنرى ما دونته حول هذا الموضوع، ولنتقل اعترافها أن المسلمين لم يكونوا مترجمين فقط، وإنما كانوا مبتكرين ومبدعين فى هذه المواد التى نقلوها من اللغات الأجنبية، وأنهم فسروها، وأضافوا عليها شروحا وتعليقات عظيمة القيمة، جليلة القدر:

يقول Bolus فى كتابه «The Influeuce of Islam [2]»: إن المسلمين أخذوا كثيرا من علوم البيزنطيين، والأقباط، والهنود، والفرس، ولكن من الحق أن نؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم إلى لغتهم زادوا عليها وحوروا فيها، وصبغوها صبغة جديدة، حتى أصبحت

---

(١) القفطى ٣٠ – ٣١، ابن أبى أصيبعة ١ : ١٨٧

(٢) See Chapter XI.

علومهم هم ؛ وسارع العرب حين تيسرت لهم هذه المواد إلى ترجمتها دون إضاعة وقت ، فترجموا إلى لغتهم من الهندية ما يعرف الآن بالأرقام العربية ، كما ترجموا الحساب بما فى ذلك نظام الكسور العشرية ، أما الجبر فإذا لم نقل إنه من اختراعهم فمن الواجب أن نعترف بجهدهم فى ترقيته والتطور به . ونحن (يقصد الأوربيين) مدينون للعرب بما وصلنا له فى هذه العلوم الرياضية من نتائج . أما طلاب مدارسنا فقد كانوا يعتمدون فى دراستهم لمادة الجبر اعتماداً جوهريا على كتاب عربى ترجم إلى اللاتينية لهذا الشأن ، وقد ألف هذا الكتاب فى عهد المأمون عقب التجارب التى قام بها محمد ابن موسى ، ولم يكن العرب مترجمين أو مهذبين لهذه العلوم فحسب . بل إنهم اخترعوا كثيراً وبخاصة فى الفلك ،فاخترعوا الاسطرلاب لقياس الارتفاع واستطاعوا أن يتعرفوا وقت ظهور النجوم ذوات الأذناب ، وساعة كسوف الشمس وخسوف القمر ، وفى الطب استطاع المسلمون أن يكشفوا مرض الجدرى الذى لم يعرفه اليونان ، وقد ظهرت براعتهم الفائقة فى كشف صنوف الأدوية . وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفة تدعو للإجلال والتقدير . ونجحوا بهذا فى تعرف صفات أحماض المعادن وغيرها من المعلومات الكيماوية الجوهرية التى نقلت عنهم إلى أوربا .

ويقول غوستاف لوبون [1] : وقد وجد العرب فى بلاد فارس وسورية حينما استولوا عليها ، خزائن من العلوم اليونانية ، فأمروا بنقل ما فى اللغة السريانية منها إلى اللغة العربية ، ثم أمروا بأن ينقل إليها من

---

(١) حضارة العرب ص ٤٦٠ من الترجمة العربية .

اللغة اليونانية مالم يكن قد نقل إلى اللغة السريانية . فأخذت بذلك دراسات العلوم والآداب تسير قدما نحو الرقى ، ولم يكتف العرب بما نقل إلى لغتهم ، فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ليستقوا منها علوم اليونان .
وقد كانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساساً لثقافة متعلمى العرب ، ولكن العرب المفطورين على قوة الإبداع لم يكتفوا بحال الطلب ، ولم يلبثوا أن تحرروا ، بما عرف عنهم من النشاط ، حتى عاد الإغريق وهم ليسوا أساتذة للعرب .

ويقول Philip Hitti [1] إن العهد العباسى الأول ليزهو باليقظة الفكرية التى تمت فيه ، وقد كانت هذه اليقظة ذات أثر بعيد فى الحركات الفكرية والثقافية فى العالم ، وكانت تعتمد إلى حد بعيد على الثقافات الاجنبية ، وبخاصة الفارسية والهندية واليونانية ، وكان المسلم العربى حاذقا ، ذكيا ، مشغوفا بالاطلاع ، راغباً فى الاستفادة والتزود من هذا الزاد الفكرى الرفيع ، ومن أجل هذا كانت استفادته شاملة ، وانتفاعه واضحاً ، وسرعان ماسيطر على ثقافة هؤلاء الأقوام ، وأصبح يضع يده على أهم مؤلفات أرسطو الفلسفية ، وأحسن شروح الأفلاطونية الحديثة ، وأكثر ماكتبه جالينوس فى الطب ، بالإضافة إلى النتاج الفارسى والهندى . وينبغى ألا نبالغ فى فضل اليونان على المسلمين ، إذ أن الثقافة اليونانية استمدت قبلا عناصرها ومقوماتها من معارف مصر القديمة ، وبابل ، وفينيقية ، ثم عادت هذه المعارف إلى العالم الإسلامى وهى فى ثوب يونانى ؛ وعن طريق أسبانيا وصقلية عبرت هذه العلوم إلى أوربة مرة أخرى

(١) History of the Arabs p. p, 306 - 307.

من الشرق الاسلامى إبان العصور الوسطى [١] .

٥ — العلاقات الخارجية : توافرت للخلافة الاسلامية فى هذا العصر عناصر السيادة والقوة والسلطان ، وكانت كما يقول Richard Coke [٢] مهيبة الجانب فى الداخل والخارج ، وكانت الدول الأجنبية تخافها وتخطب ودها ، كما عُـدّ بعض خلفائها كالرشيد ، سيد عصره ، وواحد زمانه .

وكانت العلاقة طيبة بين خلفاء هـــذا العصر ومعاصريهم من ملوك الفرنجة ؛ بين المنصور وببين (Pepin) ، وبين المهدى وشارل مارتل (Charles Martel) ، وبين الرشيد وشارلمان (Charlemagne) وكثيراً ما تبادلوا الهدايا والسفراء ، وكان بين هدايا الخلفاء إلى ملوك الفرنجة كثير من التحف الشرقية الرائعة ، وفيل ، وساعة مائية دقاقة ،حسبها الفرنجة آلة سحرية أول ماراوها .

وكان الدافع لهذه العلاقة فى هذه الفترة عجيباً ، ويدل على تغلب الروح السياسية على الروح الدينية عند المسلمين والمسيحيين جميعا ، فقد كان خليفة بغداد يكيد بهذه الصداقة إلى أمير الأندلس المسلم ، ويهدده بملك الفرنجة ، كما كان ملك الفرنجة يقوم بنفس الدور تجاه امبراطور الدولة البيزنطية المسيحى .

أما الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فقد كانت ميدانا لنشاط حربى محدود ، ولكنه يكاد يكون متصلا ، ومن الملاحظ أن ذلك النشاط لم يكن على نمط نشاط المسلمين فى العهد الأموى ، إذ كان هدف الأمويين

---

(١) للتعرف على عناصر الثقافة الأوربية المستمدة من الثقافة العربية يرجع الى كتاب The Legacy of Islam .

(٢) Baghdad: the City of Peace p. 62.

الزحف والتوسع ، واحتلال القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ليتم بذلك احتلال بلاد الروم كما تم من قبل احتلال بلاد الفرس ، أما العباسيون فقد غيروا سياستهم على هذه الحدود ، وجعلوا نشاطهم الحربى عبارة عن إغارات الغرض منها إظهار القوة ، وتخويف العدو ، وكسب المال ، والرد على ماقد يقوم به من نشاط مماثل . وقبل أن نسير فى وصف هذه الاغارات يجمل بنا أن نسأل : لماذا لم يسر العباسيون على سياسة الأمويين فى هذا الشأن ؟ وما الذى أقعدهم دون العمل على إسقاط القسطنطينية ؟

يقول الدكتور حسن ابراهيم [1] : إن ذلك يرجع إلى سببين هامين :

أولهما : مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لايزالون على ولائهم للأمويين . [وأى حركة للزحف تجاه القسطنطينية لابد أن تتخذ بلاد الشام قاعدة لها . فإذا لم تكن هذه القاعدة مأمونة الجانب مؤيدة للجيوش المعسكرة فيها والمتحركة منها ، فإن النصر يكون بعيدا [2]] .

ثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى فى البحر الابيض المتوسط يصارع أسطول الأمويين من قبل ، وفتح القسطنطينية لا يمكن أن يتم بدون أسطول .

ويعن لى سبب ثالث لايقل عندى خطراً عن هذين السببين ، وهو أن الامبراطورية الاسلامية كانت قد اتسعت اتساعا عظيما يستلزم جهدا

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى ٢ : ١٨٥

(٢) الذى بين القوسين زيادة للايضاح أضيفت لما ذكره الدكتور حسن ابراهيم

كبيراً للسيطرة عليها، وتأمين حدودها. ثم إن العباسيين رأوا أنهم فقدوا الأندلس، وأن بلاد شمال افريقية تثير التمرد عليهم من حين إلى آخر، فأدركوا أن من الخير لهم أن يتجهوا إلى السيطرة على ما في أيديهم، والمحافظة على امبراطوريتهم، بدل أن يوجهوا قوتهم إلى التوسع فتضعف شوكتهم في الداخل، ويعرضهم ذلك إلى فقدان أجزاء أخرى من الامبراطورية.

واكتفى العباسيون إذاً بالإغارات ليوهموا الأعداء أنهم أقوياء، وأنهم دائماً على أهبة الزحف عليهم والإيقاع بهم، وقد اتخذت هذه الإغارات شكلا منتظما، وكانت تسمى الصوائف والشواتي، ويحدثنا قدامة بن جعفر عنها حديثاً مفصلا فيقول [1]: ومما يعرفه أهل الخبرة من الثغوريين. [سكان إقليم الثغور وهي المناطق المواجهة لبلاد الروم] أن تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار [مايو]، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم، وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوما وهي بقية أيار وعشرة من حزيران [يونيو] فإنهم يجدون الكلأ في بلد الروم ممكناً، وكأن دوابهم ترتبع ربيعاً ثانيا ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوما، وهي بقية حزيران وخمسة من تموز [يوليو] حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز، فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يوما، فأما الشواتي فإنهم جميعاً يقولون: إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه

(١) نبذة من كتاب الخراج، وصنعة الكتابة مطبوعة مع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة انظر ص ٢٥٩

ما يكفيه على ظهره [لعدم الكلأ حينئذ فى بلاد الروم] وأن يكون ذلك فى آخر شباط [فبراير] فيقيم الغزاة إلى أيام تمضى من أذار [مارس] .

ومن هذا يتضح إن جل نشاطهم الحربى كان فى الصيف ، وانهم كانوا يتحرزون أن يقوموا بإغارات فى الشتاء إذا لم تدع الضرورة لذلك ، أما الصوائف فمن الممكن أن نقول إنها كانت منتظمة ، وقد بكر العباسيون بالقيام بها منذ نشأة دولتهم ، حتى يوقعوا فى خلد عدوهم ، أن الأحداث الداخلية لم تضعف شوكتهم ، ولم تشغلهم عن الهجوم على الاعداء . وأول صائفة قام بها العباسيون كانت سنة ١٣٣ هـ وقد قام بها سعيد بن عبد الله [1] ، ثم انتظمت بعد ذلك فتجد الطبرى وابن الأثير يقرنان الحج بالناس بالقيام بغزو الصائفة ، فيقولان : وحج بالناس فلان وغزا الصائفة فلان ؛ فإذا لم يقم العباسيون بغزو الصائفة فإننا نجد ابن الأثير يذكر ذلك معللا له فهو يقول فى حوادث سنة ١٣٧ هـ : « ولم يكن للناس فى هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباد » [2] ويقول فى حوادث سنة ١٣٩ هـ « وغزا الصائفة صالح بن على والعباس بن محمد . . . ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل إلا سنة ١٤٦ هـ لاشتغال المنصور بابنى عبد الله ابن الحسن » وهكذا كانت الصائفة حلقة من برنامج العباسيين لا تتخلف لغير ضرورة قاسية ، وطالما كانت الجيوش الزاحفة لغزو الصائفة تسير بقيادة الخليفة نفسه أو ولى عهده ، ومما يجب أن يذكر أن الصوائف التى تمت فى عهد هرون الرشيد كانت من أقسى الصوائف وطأة على

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٨

(٢) مجوسى خرج بخراسان ليطلب بدم أبى مسلم وقد استطاع الخليفة القضاء عليه بعد سبعين يوما من قيامه (انظر ابن الأثير ٥ : ١٨٠) .

البيزنطيين ، وأكثرها إذلالا لهم ، وطالما تولاها الخليفة بنفسه .

ولم يكتف الرشيد بنظام الصوائف لإبراز قوته وحماية بلاده ، ولكنه اقتدى بالبيزنطيين الذين أقاموا على أطراف بلادهم المجاورة لبلاد المسلمين ، خطاً دفاعياً وضعوه تحت إشراف رجال حربيين لُقّبوا بحكام الثغور ، ولما رأى الرشيد أن هذا الخط الدفاعى يمكن أن يصبح قاعدة للهجوم ، أسس إقليما مشابها لإقليم الاطراف البيزنطى على حدود البلاد الإسلامية الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور ، وكان هذا الإقليم جزءاً من أرض قنسرين والجزيرة ، ففصله هارون الرشيد ، وعين ابنه المعتصم أميراً له ، وجعل عاصمته إنطاكية وامتد إلى حلب ومنبج وإنطاكية غرباً إلى الساحل[1]

ويقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين ، ثم هى للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية وهى الحصون التى سميت بإقليم الثغور ، لمواجهتها للثغرات أو المنافذ التى فى أرض العدو ، وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين : أحدهما فى الشمال الشرقى ، ويسمى بالثغور الجزرية التى تدافع عن شمال العراق ، ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور . والحدث ؛ والقسم الثانى يسمى بالثغور الشامية فى الجنوب الغربى حيث تقترب من ساحل خليج الأسكندرونة ، ومن أهم حصون هذا القسم المصيصة وأذنة وطرسوس[2] .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ١٦ ، ٦ : ٢٣٧

(٢) Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate p. 128.

والدكتور العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ٧١ — ٧٢

ومع أن نظام الصوائف والشواتى كان يمثل العلاقات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه الفترة، كانت ظروف خاصة تجدّ أحياناً، فتجعل الصائفة أو الشاتية زحفاً عميقاً ومعركة حربية حامية أوسع مدى، وأشد عنفاً من الهجوم الخاطف الذى كان طابع الصوائف والشواتى، وقد سجل التاريخ والشعر العربى بعضاً من هذه المعارك التى نقدم أمثلة منها :

كانت الصائفة التى شنها المهدى على البيزنطيين سنة ١٦٥ هـ قوية جارفة بسبب النشاط العدائى الذى قام به البيزنطيون على الحدود الاسلامية قبيل هذا الزحف، وقد سيّر المهدى ابنه الرشيد على رأس هذه الصائفة فى حوالى مائة الف مقاتل، وكان مع الرشيد القائد العظيم يزيد بن مزيد الشيبانى، وقد كتب لجيش المسلمين النصر فى زحفه؛ واستطاع الرشيد أن يصل بجيشه إلى خليج القسطنطينية، فأوقع الرعب فى قلب إيرينى (Irene) أرملة ليو الرابع (Leu IV) وكانت وصية على ابنها فطلبت الصلح، وتم الصلح على جزية قدرها سبعون ألف دينار كل عام، وأن تقيم لجيش المسلمين الأدلاء والأسواق فى طريق عودتهم، وقتل من الروم فى هذه الوقائع ٥٤٠٠٠ وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات [١]

وفى هذه الغزوة يقول مروان بن أبى حفصة مخاطباً الرشيد :

أطفتَ بقسطنطينية الروم مسندا
إليها القنا حتى اكتسى الذلّ سورُها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها
بجزيتها والحرب تغلى قدورُها

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٢

وكان من أثر هذه الانتصارات التى أحرزها المهدى أن هابه الملوك، فأرسل إليهم رسلا يدعوهم إلى الطاعة، فدخل أكثرهم فى طاعته، ومنهم ملك طبرستان، وملك السند، وملك فرغانة، وملك سجستان، وملك الترك، وملك الصين، وملك الهند [1].

وتعرضت بعد ذلك الحياة الداخلية فى الدولة البيزنطية إلى أحداث جسام، وتصارعت فيها قوى ثلاث: قوة الملكة، وقوة ابنها الأمير، وقوة ثالثة يقودها بعض قواد الجيش الساخطين، وانهزمت الملكة أولا، واعتلى الأمير العرش؛ باسم قسطنطين السادس، ولكن المرأة عادت وقبضت على ابنها وسملت عينيه واستولت على الحكم، غير أن قوة الجيش ظلت فى طريقها إلى أن نجحت، وأعلن نقفور - الذى قاد حركة الانقلاب - نفسه امبراطوراً على الدولة البيزنطية سنة ١٨٧ هـ.

كان الجيش البيزنطى يعتقد أن الضعف الذى ظهرت به الامبراطورية البيزنطية أمام جيوش المسلمين، راجع إلى أن الدولة تحكمها امرأة، ولذلك نجد نقفور يبعث إلى هرون الرشيد خليفة المسلمين بالرسالة التالية:

من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب:

أما بعد، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه، ووضعت نفسها موضع الرُخ [الشاه والرخ من أدوات الشطرنج]، وينبغى أن تعلم أنى أنا الشاه، وأنت الرخ، فأدِّ إلىَّ ما كانت المرأة تؤدى إليك [2].

فلما قرأ الخليفة هذه الرسالة استفزه الغضب، حتى لم يستطع أحد من

---

(١) اليعقوبى ٢ : ٤٧٩

(٢) صبح الأعشى ١ : ١٩٢

جلسائه أن ينظر إليه ؛ ثم دعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

من عبد الله هرون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم :

أما بعد ، فقد فهمت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ، والسلام على من اتبع الهدى (١) .

وشخص الرشيد من يومه ومعه جيش هائل ، وعجزت كل القوى البيزنطية أن توقف ذلك الجيش الزاحف حتى وصل إلى هرقلة ، وقد غنم فى طريقه وأفنى ، كما شاءت له رغبته ، وعسكر جيش المسلمين حول هرقلة ، وبدأ يقذف حصونها بحجارة ملتهبة حتى سقطت ؛ وقد سجل الشاعر العربى هذه الصورة فى قوله :

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا ... جوائما ترتمى بالنفط والنار

كأن نيراننا فى جنب قلعتهم ... مصبغات على أرسان قصار (٢)

وأدرك نقفور أن الملكة إيرينى لم تكن سبب الهزائم التى حلت بيزنطة ، وإنما سببها هو قوة المسلمين الجارفة ، وإيمانهم بالهدف الذى يحاربون من أجله ، فسأل الصلحَ على مال يؤديه كما كانت إيرينى تفعل من قبل ، وقبل هرون الرشيد بعد أن أدبه ، ولكن الرجل لم يستطع أن يبر بما وعد ، فما أن غادر الرشيد أرض الروم حتى نقض نقفور العهد ، ظانا أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه ، وقد كان هذا النكث شديد الوقع على قادة المسلمين ، حتى إن أحداً منهم لم يستطع نقله للرشيد ، فاحتيل بشاعر من أهل جنده يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف ، ويقال هو الحجاج ابن يوسف التيمى ليقول فى ذلك شعرا وينشده الرشيد ، فقال :

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢) الأغانى ١٧ : ٨٢

نقض الذى أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه غُنْمٌ أتاك به الإله كبير

فعرف الرشيد بذلك خبر النكث ، وعاد من فوره ، وأثخن فى بلاد الروم ، وفتح هرقلة ، ولم يبرحها حتى أخذ الجزية من نقفور عنه وعن آله ورجاله ، وكان مقدارها ٥٠٫٠٠٠ دينار (١) .

هذه قصة هرقلة ، فلننتقل بعدها إلى قصة تحاكيها مجداً وشرفاً ؛ إلى قصة عمورية :

كان الامبراطور ميخائيل الثانى معاصراً للمأمون ، وقد منى كل منهما بثائر عنيد أشعل نار الفتنة ، وأثار القلاقل فى وجه سيده ؛ منى المأمون ببابك الخرَّمى ، ومنى ميخائيل بتوماس الصقلبى ؛ وبابك هو زعيم الخرمية بعد جاويدان بن سهرك ملك جبال البذ ، ورئيس الخرمية الأكبر ، وكانت هذه الطائفة إحدى طوائف الفرس التى تعيث فى الأرض فسادا ، وتخيف السبيل ، وتبيح الحرمات . وأما توماس الصقلبى فرجل أرمنى الأصل ، قاد الثائرين على الامبراطور بسبب الفساد الذى استشرى فى الدولة ، وسوء الأحوال الدينية والاجتماعية . وقويت هاتان الثورتان ، واستفحل شأنهما ؛ إذ أيد المأمونُ ثورةَ توماس وأمده بالعون ، وفعل ميخائيل وخلفه ثيوفيل مثل ذلك بالنسبة إلى بابك الخرمى ، ولكن استطاع ميخائيل بعد كثير عناء أن يقضى على المتمرد عليه قبل أن يتمكن المأمون من الانتصار على الثائر فى بلاده ، ومات المأمون بعد أن أضعف شوكة بابك ، وأوصى ولى عهده المعتصم أن يجدَّ ليقلم أظفاره ويقضى عليه :

(١) الطبرى ١٠ : ٩٩ ، الجهشيارى ٢٠٧ ، ابن خلدون ٣ : ٢٢٥

وأعد المعتصم حملة كبيرة بقيادة قائده التركى الافشين ، وبعث بها لمحاربة هذا الثائر ، ولما ضيق الأفشين عليه الخناق ، وأحس أن الدنيا ضاقت به ، أرسل إلى الامبراطور ثيوفيل بن ميخائيل ، يخبره أن جيوش المسلمين اجتمعت عليه ، ويغريه بالخروج لغزو بلاد المسلمين ، ويمنّيه بأن الغزو سيكون سهلا ما دامت جيوش المسلمين مشغولة فى حربها معه ، واستجاب ثيوفيل لنداء بابك ، وكان بذلك يخدم غرضين : فهو يخفف الضغط عن حليفه ، ثم هو يثأر لأمته من المسلمين الذين طالما نكلوا به وبقومه ؛ ولكن المعتصم كان حازما ، فاحتمل طغيان البيزنطيين على أرضه دون أن يخفف ضغطه على بابك ، وظل كذلك إلى أن انتصر عليه ، وشتت شمله ، ومثّل به .

أما ثيوفيل فقد كان اتخذ زبطرة مسقط رأس المعتصم هدفا لهجومه ، ويحدثنا ابن الأثير (١) أنه قتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء ، وأغار كذلك على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين ، ومثّل بمن صار فى يده من المسلمين ، وسمل عيونهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم ، وكان من بين من أسر من النســاء امرأة هاشمية كبر عليها الضيم والقسوة ، فصاحت : وامعتصماه ، ونقل بعض الحاضرين خبر هذه الصيحة إلى المعتصم وقد انتهى من بابك فأجاب : لبيك يا أماه ؛ وسأل المعتصمُ : أى بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل : عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام ، وهى عين النصرانية ، وهى أشرف عندهم من القسطنطينية ، وهى مسقط رأس ثيوفيل . فتجهز المعتصم جهازا لم يتجهزه خليفة قبله ، وسار بنفسه

(١) الكامل فى التاريخ ٦ : ١٦٢ .

ومعه خيرة قواده ورجاله ، ولم تستطع عمورية أن تقف فى وجه هذا الجيش الصلد الجبار ، فخرت صريعة ، وثأر المعتصم لمن نُـكـّل بهم من المسلمين والمسلمات ، وأكل اللهب هذه المدينة فلم يترك منها إلا حطاماً .

وقد خلد أبو تمام قصة هذه الواقعة فى قصيدته التى يقول فيها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جَدَّ بنى الإسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك فى صبب
أمّ لهم ، لو رجوا أن تفتدى جعلوا ... فداءها كل أم برة وأب
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد ... شابت نواصى الليالى وهى لم تشب

. . . .

لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يغلـّه وسطها صبح من اللهب
إن كان بين صروف الدهر من رحم ... موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها ... وبين أيام بدر أقرب النسب (١)

و — ملامح عن خلفاء هذا العصر :

يتجه أغلب المؤرخين المحدثين إلى الاهتمام بالأحداث والتيارات المختلفة فى الدول التى يتصدون لدراستها ، أكثر من اهتمامهم بأشخاص الملوك والسلاطين ، وأنا أميل إلى هذا الرأى ، وقد سرت عليه فى رسم الصورة التى أردت أن أبرزها عن العصر الذى نتحدث عنه ، ولكن إذا كان لنا

(١) ديوان أبى تمام . القصيدة كلها من ص ٧ إلى ص ١٢ .

أن نتجاهل الملوك والسلاطين فى زمان أو مكان ما ؛ فإنه لا يجوز لنا أن نتجاهل خلفاء هذا العصر ؛ ذلك لأن سلطة الخليفة كانت مطلقة استبدادية إلى حد كبير ، وذلك يتيح لهم أن يفرضوا أنفسهم وأفكارهم على شعوبهم ، ويجعل حياتهم تنعكس على حياة الكثيرين ، فقد كان الناس على دين ملوكهم كما جاء فى المثل العربى ، ومن أجل هذا ما كانت لتكمل الصورة عن هذا العصر دون أن نكتب لمحة سريعة عن شخصية خلفائه .

السفاح : (١٣٢ — ١٣٦ هـ)

ألقى أبو العباس خطابا هاما عقب توليته الخلافة قال فيه : « فأنا السفاح المبيح والثائر المبير » ، وقد أطلق عليه لقب السفاح بعد هذا الخطاب ، واللفظ يحتمل سفك الدماء وتهديد من تحدثه نفسه بالتمرد ، ويحتمل كذلك السخاء وبذل المال ؛ والأول أغلب .

وكان أبو العباس موعوكا ، فلم يسترسل فى خطبته طويلا ، وإنما اشتد به الوعك فجلس على المنبر ، وقام دونه عمه داود بن على فألقى خطابا طويلا[1]

وكان أبو العباس فى أوائل أيامه يظهر للندماء ، ثم احتجب عنهم بعد سنة ، أشار عليه بذلك أسيد بن عبد الله الخزاعى ، فكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستارة : « أحسنت والله أعد هذا الصوت » ؛ وكان لا يحضره نديم ، ولا مغن ، ولا مُلْهٍ ، فينصرف إلا بصلة أو كسوة قلَّت أو كثرت ، وكان لا يؤخر إحسان محسن لغد ، ويقول : « العجب ممن يفرح إنسانا فيتعجل السرور ، ويجعل ثواب من سرَّه تسويفا وعِدَةً »[2] .

---

(١) انظر الطبرى ٩ : ١٢٥ — ١٢٧ .

(٢) الجاحظ : التاج ص ٣٣ ، المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢١٨ .

وبما يدل على كرم السفاح وسماحته هذه القصة الطريفة التي يرويها الأصفهاني ، وهاك نصها : « كان أبو دلامة واقفاً بين يدى السفاح فقال له : سلنى حاجتك . قال أبو دلامة : كلب أتصيد به . قال أعطوه إياه . قال : ودابة أتصيد عليها . قال : أعطوه دابة . قال : وغلام يصيد بالكلب . قال : أعطوه غلاماً . قال : وجارية تُصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال : أعطوه جارية . قال : هؤلاء عبيدك يا أمير المؤمنين ، فلا بد لهم من دار يسكنونها . قال : أعطوه داراً . قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة غامرة .قال : وما الغامرة؟ قال : لا نبات فيها . قال : قد أعطيتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافى بنى أسد . فضحك الخليفة وقال : اجعلوها كلها عامرة . قال أبو دلامة : فأذن لى أن أقبل يدك . قال : أما هذه فدعها . قال أبو دلامة : والله ما منعت عيالى شيئاً أقل ضرراً عليهم منها » . [1]

المنصور : (١٣٦ — ١٥٨ ﻫ)

لحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأيا وجبروتا ، جماعا للمال ، تاركا للهو واللعب . [2]

وكان يسلك طرقاً لجمع المال تدل على ذكائه وبالغ حرصه ، فقد روى أنه عمل للكوفة والبصرة خندقاً وسوراً وقرر أن يجمع نفقاتهما من الأهلين ، ورغب ألا يفوته منهم أحد ، فأمر أن يمنح كل فرد خمسة دراهم ،

---

(١) الأغانى ٩ : ١١٦

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٠١

فتقدموا جميعاً لأخذ هذه الدراهم وبذلك تمكن من حصر عددهم ؛ فأمر بأن يُجبى من كل واحد أربعون درهما . فقال الشاعر :

يا لقوم مالقينـــا — من أمير المؤمنينـا
قسّم الخمسة فينــا — وجبانا أربعينا [1]

وكان المنصور بخيلا كزا ، حدَّث الوضين بن عطاء قال : استزارنى أبو جعفر وكانت بينى وبينه خلالة وصداقة قبل الخلافة ، فصرت إلى مدينة السلام ، نخلونا يوماً ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما مالك ؟ قلت الخبر الذى يعرفه أمير المؤمنين . قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن . فقال لى : أربع فى بيتك ؟ قلت : نعم . وردَّد المنصور علىَّ ذلك ثلاثاً حتى ظننت أنه سيمولنى. ثم رفع رأسه إلىّ وقال: أنت أيسر العرب، أربع مغازل يدُرْنَ فى بيتك [2] .

ويروى أن أبا دلامة دخل على المنصور فأنشده :

رأيتك فى المنام كسوت جلدى — ثيابا جمة وقضيت دينى
فصدِّق يافدتك الناس رؤيا — رأتها فى المنام كذاك عينى

فأمر له بذلك ، وقال له : لا تعد أن تتحلم علىَّ ثانية ، فأجعل حلمك أضغاثاً ولا أحققه [3] .

ولما مات ابنه الأكبر جعفر ، جزع المنصور عليه ، وطلب من بين بنى هاشم من ينشده قصيدة أبى ذؤيب .

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٢
(٢) المرجع السابق ٦ : ١٠
(٣) الأغانى ٩ : ١٢٣

أمن المنون وريبها تتوجع

لعله يتسلى بها ، ولكن الربيع لم يجد بين بنى هاشم من يحفظها ، فحزن لذلك المنصور وأمره أن يحضر له من ينشده إياها من بين العامة ؛ وجد الربيع حتى أحضر له شيخاً كبيراً مؤدّباً ، وبدأ الشيخ ينشد القصيدة حتى قال :

والدهر ليس بمعتب من يجزع

فقال المنصور : صدق والله ، أنشدنى هذا البيت مائة مرة ليتردد هذا المصراع علىّ ؛ ففعل الرجل ، فلما انتهى الشيخ من الإنشاد خرج ، فتبعه الربيع وقال له : أأمرلك أمير المؤمنين بشىء ؟ فأراه صرة فى يده فيها مائة درهم [١] .

وهناك أقاصيص كثيرة لا يقف فيها المنصور موقف المانع المقتر فحسب ، ولكنه يسترد أو يحاول أن يسترد مِنَحاً دفعها سواه من الأجواد ؛ فقد روى الأصفهانى أن المؤمل الشاعر قدم على المهدى بالرّى ، وهو إذ ذاك ولى عهد ، فامتدحه بأبيات ، فمنحه المهدى عشرين ألف درهم ، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور ، فكتب المنصور إلى المهدى يعذُله ويلومه ، وطلب الشاعرَ حتى أُتِى به ، فقال له المنصور : أتيت غلاما غراً كريماً فخدعته فانخدع ؛ أنشدنى ماقلت فيه فأنشده قصيدة منها :

هو المهدى إلا أن فيه	مشابه صورة القمر المنير
لقد سبق الملوكَ أبوه حتى	بقوا مابين كابٍ أو حسير
فإن بلغ الصغير مدى كبير	فقد خلق الصغير من الكبير

(١) الأغانى ٦ : ٥٩

فقال المنصور : أحسنت ولكن هذا لايساوى عشرين ألف درهم ، يا ربيع أعطه منها أربعة آلاف وخذ الباقى ؛ ولما آلت الخلافة إلى المهدى حضر الشاعر ورفع له ظلامة بين رقاع المظالم ، فلما قرأها المهدى ضحك ، وأعاد له ما أخذ منه ، وزاده أربعة آلاف درهم [1]

وكان مسلم الحادى ممن يجيدون الحداء ، وقد حدا يوما للمنصور حداء أطرب المنصور وأعجبه حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال : ياربيع ، أعطه نصف درهم ؛ فقال مسلم : يا أمير المؤمنين ، والله لقد حدوت لهشام فأمر لى بثلاثين ألف درهم ؛ فقال المنصور : تأخذ من مال المسلمين ثلاثين ألف درهم من أجل حداء !! يا ربيع ، وكّل به من يستخلص منه هذا المال ؛ قال الربيع : فما زلت أمشى بينهما وأروض المنصور فما سكت حتى قبل مسلم على نفسه أن يحدو للمنصور فى ذهابه وإيابه بغير مئونة .

وكان المنصور شديد الشغف بابنه المهدى ، فكان إذا صادر أحدا على مال وضع ذلك المال مفردا فى بيت المال ، وكتب عليه اسم صاحبه ، فلما مَرِض مَرَض الوفاة قال لابنه المهدى : يا بنى إنى قد أفردت كل شىء أخذته من الناس على وجه المصادرة ، وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فإذا وليت أنت فأعده على أربابه ، ليدعو لك الناس ويحبوك [3] .

ويقول يزيد بن عمر بن هبيرة : ما رأيت رجلا فى حرب أو سلم أمكر ولا أنكر ولا أشد تيقظاً من المنصور ؛ لقد حاصرنى تسعة أشهر ، ومعى

---

(١) البيهقى : المحاسن والمساوئ ٢٧٠ ــ ٢٧١

(٢) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٧٢

(٣) الفخرى ص ١٣٦ ، ابن الأثير ٦ : ١٠

فرسان العرب ، فجهدنا كل الجهد حتى ننال من عسكره شيئاً فما قدرنا، لشدة ضبطه لعسكره ، وكثرة تيقظه ، ولقد حضرني وما في رأسي شعرة بيضاء ثم انقضى ذلك وما في رأسي شعرة سوداء [1].

ولا أدل على حذق المنصور وعمق تفكيره من تصرفه في مطلع خلافته : فقد استعان بأبي مسلم الخراساني في القضاء على عبد الله بن علي ، حتى إذا فرغ أبو مسلم من ذلك جاء الدور عليه ، وكذلك استعان بعيسى بن موسى في القضاء على محمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه ابراهيم ، واختار عيسى ابن موسى لأنه كان في ذلك الحين ولياً لعهده ،فهو حريص على سلامة هذا الملك الذي سيئول إليه فيما بعد ، ولما انتهى عيسى من مهمته كاشفه المنصور بنيته ، وأرغمه على أن يقدم المهدي على نفسه في ولاية العهد .

ولم يكن المنصور يحب الشراب ، ولا يسمح به على مائدته ، فقد قدم عليه بختيشوع الطبيب مرة ، فأمر المنصور أن يُعَدَّ له طعام ، فلما جلس بختيشوع إلى المائدة طلب شرابا ، فقيل له : لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين . فقال : لا آكل طعاما ليس معه شراب ، فأخبر المنصور بذلك، فقال : دعوه ؛ فلما حضر العشاء فُعل به مثل ذلك ، فطَلَبَ الشراب ، فقيل له : لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين ؛ فتعشى وشرب ماء دجلة ، فلما كان من الغد ، نظر إلى مائه وقال : ما كنت أحسب شيئا يجزى من الشراب ، فهذا ماء دجلة يجزى منه [2].

وكان لا يظهر لنديم قط ، فإذا جلس يسمع جعل بينه وبين الستارة

(١) ابن طباطبا : الفخرى ١٣٦ — ١٣٧

(٢) الطبرى ٩ : ٣٠٩ .

عشرين ذراعاً ، وبين الستارة والندماء مثلها ، وكان لا يثيب أحداً من ندمائه وغيرهم درهماً ، فيكون له رسماً فى ديوان ، ولم يقطع أحداً ممن كان يضاف إلى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض ، وكان يتذكر أعطياته مدة لا تقل عن عشر سنوات ، ويستطيع أن يَذكّر بها من نالها ، وكان أبو جعفر يقول : من صنع مثل ما صنع إليه فقد كافأ ، ومن أضعف كان مشكوراً ؛ ومن علم أن ما صنَع فإلى نفسه صُنع ، لم يستبطىء الناس فى شكرهم ، ولم يستزدهم فى مودتهم ؛ ولا تلتمس من غيرك شكر ما وقيت به عرضك ، واعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك ، فأكرم وجهك عن رده [1] .

ومن أجمل ما وُصف به أبو جعفر المنصور قول ابن هرمة :

إذا ما أتى شيئاً ، مضى كالذى أتى ... وإن قال : إنى فاعل ، فهو فاعل
كريم له وجهان : وجه لدى الرضا ... أسيل ، ووجه فى الكريهة باسل
فأم الذى آمنتَ آمنة الردى ... وأم الذى حاولت بالثكل ثاكل [2]

المهدى : (١٥٨ - ١٦٩ هـ).

كان أبو دلامة الشاعر أول من هنأ المهدى بالخلافة ، وعزاه بوفاة أبيه ، وكانت قصيدته فى ذلك رقيقة جميلة نقتطف منها :

عيناى : واحدةٌ تُرى مسرورة ... بأميرها جذلى ، وأخرى تذرف
تبكى وتضحك تارة ، ويسوؤها ... ما أنكرت ، ويسرها ما تعرف

---

(١) التاج للجاحظ ص ٣٤ .
(٢) أبو على القالى : ذيل الأمالى والنوادر ص ٤٠

فيسوؤها موت الخليفة محرما ويسرها أن قام هذا الأرأف
أهدى لهذا الله فضلَ خلافةٍ ولذاك جناتِ النعيم تزخرف (١)

وقد سبق أن تحدثنا عن كرم المهدى وسخائه ، ونضيف الآن قصة أخرى تدل على هذا السخاء ؛ ذكر عبد الأعلى بن عبد الله الجمحى أنه حمل دَيْنا فى عسكر المهدى ، وأن المهدى ركب يوما بين أبى عبيد الله وعمر بن بزيغ ، وركب الجمحى وراءه على برذون قطوف [ضعيف المشى] ، فقال المهدى : ما أنسبُ بيت قالته العرب ؟ فقال أبو عبيد الله :

وما ذرفت عيناكِ إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مُقَتَّل

فقال المهدى : هذا أعرابى قح — فقال عمر بن بزيغ : قول كثير :

أريد لأنسى ذكرها ، فكأنما تَمَثَّلُ لى ليلى بكل سبيل

فقال المهدى : ما هذا بشىء ؛ إنه يحاول أن ينسى ذكرها ، فقال الجمحى : حاجتك عندى يا أمير المؤمنين ، فقال : الحقنى . قلت: لا لحاق لى مع دابتى . فقال : احملوه على دابة . فقلت : هذا أول الفتح . وحملتُ عليها فلحقته ، فقال : ما عندك ؟ فقلت قول الأحوص :

إذا قلت إنى مُشتفٍ بلقائها فحُمَّ التلاقى بيننا زادنى سقما

فقال : أحسنت والله . اقضوا دينه (٢) .

وكان المهدى فى أول أمره يحتجب عن الندماء متشبها بالمنصور نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم ؛ فأشار عليه أبو عون بأن يحتجب عنهم ، فقال : إليك عنى يا جاهل ، إنما اللذة فى مشاهدة السرور ، وفى الدنو ممن سرنى ،

(١) السيوطى تاريخ الخلفاء ١٠٦ — ١٠٧
(٢) الجهشارى : الوزراء والكتاب ١٤٤ — ١٤٥

فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ ولو لم يكن فى الظهور للندماء والأخوان إلا أنى أعطيهم من السرور بمشاهدتى مثل الذى يعطونى لجعلت لهم ذلك حظاً موفراً [1]

وكان المهدى لا يشرب النبيذ ، ولكن أصحابه كانوا يشربون عنده فكان يعقوب بن داود ينهاه عن ذلك ويعظه ، ويقول : ليس على هذا استوزرتنى ولا عليه صحبتك ؛ بعد الصلوات الخمس فى المسجد الجامع يُشرب عندك النبيذ ، فضيق على المهدى حتى قيل :

فدع عنك يعقوب بن داود جانبا وأقبل على صهباء طيبة النشر [2]

وكان المهدى كثير العطايا ، يواترها ، قل من حضره إلا أغناه ، وكان لين العريكة ، سهل المعاملة ، لذيذ المنادمة ، ضاحك السن ، قليل الأذى والبَذاء [3] .

وكان كثير العفو ؛ يروى أنه عتب غير مرة على بعض القواد ، وقال له فى آخر الأمر : إلى متى تذنب ؟ فأجاب : إلى أبد نسيء ويبقيك الله فتعفو عنا . فاستحيا منه ورضى عنه [4].

ومن حيله الطريقة التى لجأ إليها ليقلل من ورع أحد علماء عصره وعفته ، ماذكره الفضل بن الربيع قال : دخل شريك ـ وكان كثير الورع والابتعاد عن مواطن الشبه ـ على المهدى يوما ، فقال له المهدى : لابد أن تجيبنى إلى خصلة من ثلاث . قال : وماهن يا أمير المؤمنين ؟ قال : إما أن

---

(١) الجاحظ : التاج ٣٤ — ٣٥
(٢) ابن الأثير ٦ : ٢٤
(٣) الجاحظ : التاج ص ٣٥
(٤) ابن الأثير ٦ : ٢٧

تلى القضاء ، أو تُحدِّث ولدىَّ وتعلمهم ، أو تأكل أكلة . ففكر ثم قال : الأكلة أخفهن على نفسى . فطلب المهدى إلى الطباخ أن يُعدَّ له مائدة كثيرة الخير ، وبدأ شريك ، واستهواه الطعام اللذيذ فأكل حتى شبع ؛ قال القيم على المطبخ للمهدى بعد ذلك : يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً . قال الفضل بن الربيع : فمال شريك بعد هذا إلى حياة الرخاء فوَلِىَ القضاء وعلم الأولاد ، وحدَّث ، ولقد كَتِبَ بأرزاقه مرة إلى الجهبذ ، فضايقه فى النقص ، فقال له الجهبذ : إنك لم تبع قمحاً . قال له شريك . بلى والله لقد بعت أكبر من القمح ، لقد بعت دينى (١) .

واختلف فى سبب موت المهدى ، فقيل إنه طرد ظبيا فى احدى مرات خروجه للصيد ، فدخل الظبى بابَ خرِبة ، فدخل فرس المهدى خلفه دون أن يتمكن المهدى من رده ، وكانت عتبة الباب العليا غير مرتفعة ، فاصطدم بها الخليفة ، فسقط ومات لساعته ؛ وقيل إن بعض جواريه جعلت سماً فى بعض المآكل لجارية أخرى ، فأكل المهدى منه تظرفا وهو لا يعلم ، فمات ؛ وقال أبو العتاهية يصف جواريه وقد برزن بعد موته وعليهن المُسُوح :

رحن فى الوشى وأقبلـــنَ عليهن المُسُوح
كل نطاح له يو ما من الدهر نَطـُوح
لست بالباقى ولو عُمِّــــرتَ ماعمر نوح
فعلى نفسك نُح إنْ كنت لابد تنوح (٢)

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٤٧
(٢) الفخرى ص ١٥٧

الهادى : (١٦٩ - ١٧٠ هـ)

يقول الجاحظ عن الهادى [١] : كان الهادى شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الإغضاء ، سيء الظن ، قل من توقاه وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال ، وكان يأمر للمغنى بالمال الخطير الجزيل ، فيقول : « لا يعطينى بعدها شيئا » فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية .

وكان الهادى حازماً ، يعرف اللهو ، ولكن اللهو لا يشغله عن واجبه ، بل يعطى الجد وقته ، ويدع للهو مجالسه ؛ لم يستفد منه لاه أكثر مما يجب أن يستفيد ، ولا أوذى منه جادٌ وإن سبب جده للهادى بعض الحرمان ؛ جلس الهادى يوما وعنده بعض المغنين فقال لهم : من أطربنى اليوم منكم فله حكمه . فغناه ابراهيم الموصلى :

سليمى أجمعت بينا

فطرب حتى قام عن مجلسه واستعاده ، فأعاد . فقال : أنت صاحبى فاحتكم . فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، حائط عبد الملك بن مروان ، وعينه الخرّارة بالمدينة . فدارت عينا الهادى فى رأسه حتى صارتا جمرتين ثم قال : يا ابن اللخناء ، أردت أن تسمع العامة أنك أطربتنى ، وإنى حكمتك فأقطعتك ، أما والله لولا بادرة جهلك التى غلبت على صحيح عقلك وفكرك ، لضربت الذى فيه عيناك ، ثم سكت هنيهة ، قال إبراهيم : فرأيت ملك الموت قائماً بينى وبينه ينتظر أمره . ثم دعا إبراهيمَ الحرانى فقال : خذ

(١) التاج ص ٣٥

بيد هذا الجاهل فأدخله بيت المال فليأخذ منه ما شاء . . . [1] .

وكان عبدالله بن مالك يتولى شرطة المهدى ، قال : فكان المهدى يأمرنى بضرب ندماء الهادى ومغنيه وحبسهم صيانة له منهم ؛ فكنت أفعل ، وكان الهادى يرسل إلىّ بالتخفيف عنهم فلا أفعل ، فلما مات المهدى وولى الهادى أيقنت بالتلف ، فاستحضرنى يوماً ، فدخلت عليه وهو جالس على كرسى والسيف والنطع بين يديه ، فسلمت ، فقال : لا سلَّم الله عليك ، أتذكر يوم بعثت إليك فى أمر الحرانى وضربه فلم تقبل قولى ؟ وكذلك فعلتُ فى فلان وفلان - وعدد ندماءه - فلم تلتفت إلى قولى ؟ قلت : نعم ، أفأذن لى فى ذكر الحجة ؟ قال : نعم . قلت : ناشدتك الله ، لو أنك قلدتنى ما قلدنى المهدى ، وأمرتنى بما أمر ، فبعث إلىّ بعض بنيك بما يخالف أمرك فاتبعت قوله ، وتركت قولك ، أكان يسرك ذلك ؟ قال : لا . قلت : فكذلك أنا لك ، وكذلك كنت لأبيك . فاستدنانى فقبلت يده ، ثم أمر لى بالخلع ، وقال : وليتك ماكنت تتولاه ، فامض راشدا ، فمضيت مفكرا فى أمرى وأمره ، وقلت : حَدَثٌ يشرب ، والقوم الذين عصيته فى أمرهم هم ندماؤه ووزراؤه وكتابه ، وكأنى بهم حين يغلب الشراب عليه يغلبون على رأيه ، ويحسنون له هلاكى . قال : فإنى لجالس وعندى بنَيَّة لى والكانون بين يدى ، وقدامى رقاق وكامخ ، وأنا أشطره بالكامخ وأسخنه بالنار وآكل وأطعم الصغيرة ، وإذا بوقع حوافر الخيل ، فظننت أن الدنيا قد زلزلت ، فقلت : هذا ماكنت أخافه ، وإذا بالباب قد فتح ، وإذا الخدم قد دخلوا والهادى فى وسطهم على دابته ، فلما رأيته وثبت فقبلت يده . . . فقال لى :

---

(١) الجاحظ : التاج ٣٦ - ٣٧

يا عبد الله إنى فكرت فى أمرك، فقلت : ربما سبق إلى ذهنك أنى إذا شربت وحولى أعداؤك أزالوا حسن رأيي فيك فيقلقك ذلك ، فصرت إلى منزلك لأونسك ، وأعلمك أن ما كان عندى من الحقد عليك قد زال جميعه ، فهات وأطعمنى مما كنت تأكل ، لتعلم أنى قد تحرّمت بطعامك [1] .

ومن جهة الشراب ، فقد خطا الهادى خطوة جديدة فى طريق نشره ؛ لقد كان المنصور - كما سبق - لا يشرب ولا يسمح بالشراب على مائدته ، فخطا المهدى الخطوة الأولى بأن سمح لندمائه بالشرب فى حضرته ولو أنه هو لم يشرب ، ولكن الهادى والرشيد شربا ، إذ كانا قد تعلما الشراب فى قصر أبيهما وهما أميران ؛ يروى ابراهيم الموصلى - وكان كثير الشرب شغوفا به - أن المهدى قال له : لا تدخل على موسى وهرون ألبتة فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن ولأصنعن فقلت : نعم . ثم بلغه أنى دخلت عليهما وشربت معهما، وكانا مستهترين بالنبيذ ، فضربنى ثلاثمائة سوط ، وقيدنى وحبسنى [2] .

هذا وقد اتضح شرب الهادى قبل خلافته وبعدها من قصة عبد الله بن مالك التى سبق ايرادها .

الرشيد : (١٧٠ — ١٩٣ هـ)

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، يحج سنة ويغزو سنة طيلة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشيا ولم يحج خليفة ماشيا غيره ، يتشبه فى أفعاله بالمنصور إلا فى بذل المال ، فانه لم ير خليفة أسمح منه بالمال ، وكان لا يضيع عنده

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٤ — ٣٥ ، الفخرى ١٦٥ — ١٦٦

(٢) الأغانى ٥ : ٤

إحسان محسن ولا يؤخر ؛ يحب الشعر والشعراء ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، وكان كثير التواضع للعلماء [1] .

ومن أبرز صفات الرشيد أنه ريح عاصفة حينا ، ونسيم رخاء حيناً آخر ، وأن عواطفه أكثر تحكما فيه من عقله ؛ يثور فيزأر ويضطرب ؛ ويوعظ فيبكى وينتحب ، وكان يقرب الفَكِهَ المهذار ، كما يدنى الفارس المغوار .

حبس الرشيد أبا العتاهية ، وجعل عليه عينا يأتيه بما يقول ، فرآه يوما قد كتب على الحائط :

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم
إلى ديّان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد فبكى وأحضره واستحله وأعطاه ألف دينار [2] .

وقال الأصمعى : صنع الرشيد طعاماً ، وزخرف مجالسه ، وأحضر أبا العتاهية وقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا . فقال أبو العتاهية .

عش ما بدا لك سالماً ... فى ظل شاهقة القصورِ

فقال الرشيد : أحسنت ، ثم ماذا ؟ فقال :

يُسعَى إليك بما اشتهيـ ... ـت لدى الرواح أو البكورِ

فقال : حسن ، ثم ماذا ؟ فقال :

فاذا النفوس تقعقعت ... فى ظل حشرجة الصدورِ
فهناك تعلم موقنا ... ما كنت إلا فى غرورِ

---

(1) الفخرى ١٦٩ ــ ١٧٠ .
(2) ابن الأثير ٦ : ٧٢ .

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى لأبى العتاهية : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته! فقال الرشيد: دعه ، فإنه رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا منه[1].

وقد أدرك بعض المقربين إليه من الشعراء هذه النزعة العاطفية فيه ؛ فكان أبو العتاهية مثلا يستغل هذه النزعة ليمكر بالرشيد ، وليثير أحزانه ويستنزل دموعه انتقاماً منه فى بعض الأحيان ؛ حدث أبو العتاهية قال : كان الرشيد يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء أن يعملوا لهؤلاء شعرا يغنون فيه . فقيل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو فى الحبس ؛ قال أبو العتاهية : فوجَّه إلىَّ الرشيد أن أقول شعراً ليسمعه منهم ، ولم يأمر بإطلاقى ، فغاظنى ذلك ، فقلت : والله لأقولن شعرا يحزنه ولا يُسَرُّ به ، وعملت شعرا ، ودفعته إلى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطرف الطموح　　أيها القلب الجموح
لدواعى الخير والشـــر دنو ونزوح
هل لمطلوب بذنب　　توبةٌ منه نصوح ؟
كيف إصلاح قلوب　　إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن　　الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا　　بين ثوبيه فضوح

(١) الفخرى ١٦٩ ــ ١٧٠ ، ابن الأثير ٦ : ٧٢ ــ ٧٣ .

كم رأينا من عزيز طويت عنه الكشوح

صاح منه برحيل صائح الدهر الصدوح

موت بعض الناس في الأر رض على قوم فتوح

سيصير المرء يوما جسداً ما فيه روح

كلنا فى غفلة والـ موت يغدو ويروح

قال: فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب [١].

وكما كان الرشيد سريع البكاء كان سريع الضحك ؛ فقد روى ابن الأثير [٢] أن الرشيد كان لا يصبر عن ابن أبي مريم المضحاك الفكه حتى أنه أسكنه معه فى قصره ؛ وقد مرَّ به الرشيد فى فجر ليلة وهو نائم ، فكشف اللحاف عنه وقال: كيف أصبحت؟ فأجاب : ما أصبحتُ بعد ، إذهب إلى عملك . قال الرشيد : قم إلى الصلاة . فأجاب : هذا وقت صلاة أبي الجرود ، وأنا من أصحاب أبي يوسف [٣] . فمضى الرشيد يصلى ، ثم قام ابن أبي مريم ، وجاء حيث يصلى الرشيد ، فسمعه يقرأ فى الصلاة « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » [٤] فقال ابن أبي مريم : ما أدرى والله !! فما تمالك الرشيد أن ضحك ، ثم قال وهو مغضب : أفى الصلاة أيضاً ؟

---

(١) الأغانى ٣ : ١٧١ — ١٧٢

(٢) الكامل فى التاريخ ٦ : ٧١ — ٧٢

(٣) أبو الجرود أحد الفقهاء الذين يرون التبكير بصلاة الصبح ويميلون إلى أدائه فى الغسق ، وكان أبو يوسف لا يرى ذلك

(٤) سورة يس الآية رقم ٢٢

قال ابن أبي مريم : ما صنعتُ ؟ قال قطعتَ على صلاتى . قال : والله ما فعلتُ ، إنما سمعت منك كلاماً غمَّنى حين قلت : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » فقلت: لا أدرى. فعاد الرشيد إلى الضحك ، ثم قال : إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما .

وكان الرشيد واسع العطاء كثير السخاء ، يهتف به الشاعر فيستجيب ويفيض جوده ، حتى يصل به إلى حد السرف ؛ وقف رجل من بنى أمية فى طريق الرشيد ومعه كتاب فيه :

يا أمين الله إنى قائل ... قول ذى لب وصدق وحسب
لكم الفضل علينا ، ولنا ... بكمُ الفضل على كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما ... وهما بعد لأم وأب
فصلِ الأرحام منا إنما ... عبد شمس عم عبد المطلب

فأمر له بكل بيت ألف دينار وقال : لو زدتنا لزدناك [1]

هذا مثل عادى من جود الرشيد ، ولن نحاول إثبات أمثلة أخرى ، فجود الرشيد الزاخر تفيض به كل كتب الأدب والتاريخ .

الأمين : (١٩٣ — ١٩٨ ﻫ)

هناك رأى يثير الشك حول ما كتب عن خلاعة الأمين ومجونه ، ويرى أن هذا الذى كتب كان متأثراً بهزيمة الأمين وانتصار المأمون ونفوذه ، وأنا لا أقبل هذا الرأى لأن فيه تشكيكا فى التراث العلمى الضخم الذى بين أيدينا ، ثم إن ما كتب عن الأمين لم يكتب كله ولا جله فى عهد

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٨٠

المأمون ، وإذاً فلا نفوذ للمأمون فى توجيه هذا التأريخ ، وقد كَتَبَ عن الأمين كثير من ثقات المؤرخين والكتاب ، وكلهم أجمعوا على خلاعته وإسرافه فى التهتك والمجون مع أنهم استقوا معلوماتهم عن مصادر مختلفة ، ورواة متعددين ، ولا يمكن أن نعتقد أن هذه المصادر وأولئك الرواة قد أجمعوا على باطل ، هذا ولم يتول الخلافة أحد من ذرية المأمون ، وعلى ذلك فلا يمكن أن نقول إن نفوذ المأمون عاش طويلا ، وأثَّر فى كتابة تاريخ هذه الحقبة ، وهناك دليل قاطع على خلاعة الأمين ومجونه ، وهو المديح الذى سجله الحسين بن الضحاك وأبو نواس وغيرهما فى شعرهم ؛ ففى هذا المديح ذكرٌ لا لمواقف عظمة وبطولة حربية ، وإنما وصف لحراقات دجلة وليالى الأنس فيها والجوارى والغلمان [1] .

وقد رضى المعتصم والواثق والمتوكل عن الحسين بن الضحاك أو الخليع كما يسميه الأصفهانى ونادموه وشربوا معه مع أنه كان النديم المفضَّل لدى الأمين ، وكان مغضوبا عليه من المأمون ، وهذا يدل على أن تيار السخط ضد الأمين وأتباعه كان قد توقف ، فلا بد بعد ذلك أن يكون المؤرخون قد كتبوا بوحى من النزاهة والعدالة يدعونا إلى أن نجل آراءهم ، ونثق فى كتابتهم إلى حد كبير ، وليس معنى هذا أن كل ما كتب عن الأمين صحيح فى جملته وتفصيله ، فإنى أميل إلى القول بأن بعض الرواة استغلوا حماقة الأمين ومجونه فوضعوا بعض الأقاصيص عنه ، ولكن هذا يجب

---

(١) اقرأ ديوان أبى نواس فى مواضع متعددة واقرأ كذلك عصر المأمون لفريد رفاعى ٣ : ٢٩٨–٣٠٢ وترجمة الحسين بن الضحاك فى الأغانى ٦ : ١٦٥ — ٢٠٥ وسيرد بعض هذا الشعر هنا .

ألا يثير الشكوك حول التراث العلمى الضخم الذى كتبه الثقات من المؤرخين؛ هذا ومن مهمة المؤرخ الحديث أن يزن الأمر فى صدد دراسته للعصر الذى يكتب عنه فينتقى للكتابة ما تدل الدلائل على صحته وصدقه ؛ فلنعد إلى الأمين إذاً فى ظل هذا الاتجاه :

يروى الجاحظ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه قال : ما كان أعجب أمر المخلوع ؛ أما تبذله فما كان يبالى أين قعد ومع من قعد ، وكان لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب خرّقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من أعطى خلق الله لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال إذا طرب أو لها ، وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته فى ليلة بوقر زورق ذهبا فانصرف به ، وأمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحملت أمامى ... وقد رأيته يوما وعلى رأسه بعض غلمانه فنظر إليه فقال : ويلك !! ثيابك هذه تحتاج إلى أن تغسل ، انطلق فخذ ثلاثين بدرة فاغسل بها ثيابك [البدرة كيس فيه عشرة آلاف درهم (١)] .

وكان الأمين فى نهاية الشدة والقوة والبطش حتى يروى أنه قتل مرة أسدا بيديه ، وله فصاحة وبلاغة وأدب ، ولكنه كان سيء التدبير ، ضعيف الرأى ، أرعن ، لا يصلح للإمارة (٢) .

وعقب بيعته أرسل فى طلب الخصيان وابتياعهم ، ووجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم إليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب

---

(١) التاج ٤٢ ـ ٤٣

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء صفحة ١١٦

عن أخويه وأهل بيته ، واستخف بهم وبقواده ، وقسم ما فى بيوت الأموال ، وما بحضرته من الجواهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته ، وعمل خمس حراقات فى دجلة على صورة الأسد والفيل والعقرب والحية والفرس ، وأنفق فى عملها مالا عظيما ، فقال أبو نواس فى ذلك :

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برًّا ... سار فى الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على صو ... رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحـ ... ـين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء إذا ما اسـ ... ـتعجلوها بجيئة وذهاب (١)

ويسجل لنا أبو الفرج الأصفهانى عن مخارق صورة ناطقة من صور مجون الأمين وخلاعته وهى تدل على أن الرجل كان ينغمس فى المرح والخلاعة إلى قمته ، وانه كان ينسى نفسه إذا دقت الدفوف وحفت به الجوارى ، قال مخارق : مرت بى ليلة ما مر بى قط مثلها ؛ جاءنى رسول محمد الأمين وهو خليفة ، فأخذنى وركض بى إليه ركضا ، فحين وافيت وجدت ابراهيم بن المهدى قد أُتِىَ به على مثل حالى ، فنزلنا فإذا هو فى صحن لم أر مثله ، قد مُلِئَ شمعاً من شمع محمد الأمين الكبار ، وكانت الدار مملوءة بالوصائف يغنين ويطبلن ، ومحمد فى وسطهن يرتكض ، فجاءنا رسوله فقال : قوما فى هذا الباب مما يلى الصحن فارفعا أصواتكما بالغناء وإياكما أن

(١) ابن الأثير ٦ : ٩٩ ــ ١٠٠

تقصَّرا، ثم أخذ الجوارى والمخنثون يزمرون ويضربون :

هذى دنانير تنسانى وأذكرها وكيف تنسى محبا ليس ينساها

فما زلنا نشق حلوقنا ونرفعُ أصواتنا خوفا من التقصير، ومحمد يجول دون سأم ؛ يدنو إلينا مرة ويتباعد أخرى ، ويحول الجوارى بيننا وبينه أحيانا حتى أصبحنا [1] .

ومن عجيب ما روى عن الأمين أنه ظل سادرا فى ضلاله ومجونه حتى الساعة التى كان فيها عرشه يهتز من تحته ، والشدة تحيط به من كل جانب ؛ حدث عُلَّوَيْه أن الأمين كان يجلس إلى إحدى جواريه تغنيه وقد أحيط به ، وبلغت حجارة المنجنيق بساطه [2] .

ومن ذلك أيضاً ما رواه إبراهيم بن المهدى قال : استأذنت على الأمين يوماً ، وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه ، فلما دخلت إذا هو كالواله وحوله خدمه وغلمانه ، وكلهم يبحثون فى بركة ماءِ القصر ، وفى المجرى الذى يصل البركة بدجلة والأمين يتبعهم ويشرف عليهم ، فسلمت عليه فلم يرد ، فثنيت بالسلام ، فقال : لا تؤذونى ؛ فمقرطتى قد ذهبت من البركة إلى دجلة . والمقرطة سمكة كانت قد صيدت له وهى صغيرة ، فقرطها حلقتين من ذهب ، فيهما حبتا درٍّ . قال إبراهيم بن المهدى : فخرجت وأنا مؤيس من فلاحه ، وقلت : لو ارتدع فى وقت لكان هذا الوقت [3] .

ومما يدل على تفاهة عقل الأمين ما حدث به حماد بن إسحق قال :

---

(١) الأغانى ١٦ : ١٣٣

(٢) الجاحظ : التاج ص ٤٣

(٣) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣٠١ — ٣٠٢

دخلت على الأمين فرأيته مغضباً كالحاً ، فقلت له : ما لأمير المؤمنين ، تمم الله سروره ولا نقصه ، أراه كالحائر ؟ قال : غاظنى أبوك الساعة لا رحمه الله ، والله لو كان حيا لضربته خمسمائة سوط ، ولولاك لنبشت الساعة قبره وأحرقت عظامه . فقلت : أعوذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين ، ومَنْ أبى وما مقداره حتى تغتاظ منه ؟ وما الذى غاظك فلعل له فيه عذرا ؟ فقال : شدة محبته للمأمون ، وتقديمه إياه علىّ ، حتى قال فى الرشيد شعراً قدَّم فيه المأمونَ علىَّ ، وغُنِّيته الساعة فأورثنى هذا الغيظ ، فقلت : والله ماسمعت بهذا قط ، ولا لأبى غناء إلا وأنا أرويه ، ما هو ؟ فقال :

أبو المأمون فينا والأمين | له كنفان من كرم ولين

فقلت له : يا أمير المؤمنين ، لم يقدم أبى المأمونَ لشدة محبته له ، وإنما لأن الشعر لا يصح وزنه إلا هكذا . فقال : كان ينبغى له إذ لم يصح الشعر إلا هكذا أن يدعه إلى لعنة الله ، فلم أزل أداريه وأرفق به حتى سكن ، فلما حضر المأمون سألنى عن هذا الحديث فحدثته به ، فجعل يضحك ويعجب منه (١)

المأمون : (١٩٨ – ٢١٨ هـ)

كان المأمون عالم بنى العباس وحكيمهم ، وكان فطنا شديداً كريما ، وكان من أفضل خلفائهم وحلمائهم .

ولما تسلم الخلافة تسلم تركة مثقلة ، وإمبراطورية مضطربة ، تتجاذبها القوى وتصطدم فيها الأهواء ، فالخراسانيون وعلى رأسهم الفضل بن سهل

---

(١) الأغانى ١٠ : ١١٨ — ١١٩

يرون أن هذه الدولة قامت بسيوفهم ، وأنه لا بد أن يكون لهم فيها النفوذ والسلطان ، والعرب تأخذهم الغيرة من بقاء المأمون بخراسان وانحيازه لجانبهم ، وانتهز أخلاط من الناس هـــذا الاضطراب فقاموا بثورات كثيرة وفتن ؛ ومن أهم ما شهده عصر المأمون من تمرد :

١ ـ خروج أبي السرايا السرى بن منصور الشيبانى واستيلاؤه بالقوة على البصرة والكوفة ومكة والمدينة وكان يدعو للطالبيين [١] .

٢ ـ انتقاض بغداد على الحسن بن سهل بسبب استبداد الفضل بن سهل بالمأمون فى خراسان ، وإخراج الخلافة من بنى العباس للعلويين بالمبايعة لعلى الرضا بولاية العهد ، وقتل هرثمة ، ولهذا كله خلع البغداديون المأمون وولوا عليهم ابراهيم بن المهدى [٢] .

٣ ـ خروج نصر بن شَبَث وهو عربى شريف قام ليثأر للأمين ، وليدافع عن العنصر العربى الذى رأى نفوذه يضعف ، ويطغى عليه الفرس [٣] .

٤ ـ الزط ـ وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة ، وعاثوا فيها وأفسدوا [٤] .

ولكن المأمون لم ينزعج لهذا ولا لأكثر منه ، وأعد عدته ، ورسم خطته ، فهزم أبا السرايا بواسطة هرثمة بن أعين ، وانتقل بنفسه إلى بغداد وفى الطريق إليها تخلص من الفضل بن سهل ومن على الرضا ، فرحب به

---

(١) انظر ابن خلدون : العبر ٣ : ٢٤٢ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٥

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٢

(٤) المرجع السابق صفحة ٢٥٧

البغداديون ، وعادوا إلى تأييده ، وضغط على نصر بن شبث حتى طلب الأمان وجاء إليه ؛ وقلم أظفار الزط وأزال خطرهم [قضى عليهم المعتصم فيما بعد] .

ويعتقد المؤرخون أنه لولا شخصية المأمون وكفاءته لهزت هذه الأحداثُ الدولةَ الإسلامية ولعرضَّتها للخطر والانحلال .

وفى عهد المأمون نال العلويون حظوة الخليفة العباسى ، ولأول مرة فى تاريخ هذه الدولة يعلن الخليفة العباسى أنه نظر فى ولد العباس وولد على فلم يجد فى وقته أفضل ولا أحق بالأمر من على بن موسى الرضا ، فبايع له بولاية العهد ، وضرب اسمه على الدنانير والدراهم ، وزوجه ابنته أم حبيبة ، كما زوج ابنته الأخرى أم الفضل من محمد بن على بن موسى الرضا ، وأمر المأمون كذلك بخلع السواد شعار العباسيين ولباس الخضرة شعار العلويين ، وربما كان ذلك اتساعا فى أفق المأمون ، أو ربما كان فى ذلك محققا لآمال الخراسانيين الذين كانوا إلى أولاد علىّ أميل ، غير أن العباسيين ثاروا ببغداد لخروج الخلافة منهم ، وخلعوا المأمون وولوا عليهم ابراهيم بن المهدى ، ولم يجد الخليفة بدأ من الاستجابة لآل بغداد ، فانتقل إليهم من مرو ، وحقق ما كانوا يطلبونه منه فتخلص من على الرضا ، أو أن عليا الرضا مات فى الطريق ، ثم خلع المأمون الخضرة عقب وصوله إلى بغداد وعاد إلى لبس السواد ، غير أن هذا لم يغير من حسن صلته بالعلويين بل ظل يرعى شئونهم ويجلهم ويقربهم منه (١) .

وكان العفو من أبرز صفات المأمون ، وهو كما يصفه شيخ كوفى « يوسفى

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣٣٢ — ٣٣٣ ، ابن الأثير ٦ : ١١١

العفو فى قلة التثريب [١]. . وقد عفا المأمون فى مواضع قل من يعفو فى نظائرها ، وعفا عن أشخاص جل ذنبهم وعظمت جريرتهم إليه ، وكان يقول : لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلى بالذنوب[٢] ولا معنى لعقوبة بعد قدرة [٣].

عفا عن الفضل بن الربيع الذى هيج عناصر الشر عليه ، وأعد قيداً من فضة وسلمه إلى على بن عيسى ليقيده به عقب القبض عليه ، واكتفى المأمون عقب انتصاره بأن قال : أجعلُه بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا لم يجب ، ورد عليه داره ولم يوقع به أى عقاب [٤].

وعفا عن إبراهيم بن المهدى الذى نصب نفسه خليفة فى بغداد حينما كان المأمون فى مرو على الرغم من أن المعتصم والعباس بن المأمون أشارا بقتل ابراهيم ، ولكن المأمون هتف : أطلقوا عن عمى حديده ، وردوه إلى مكرماً ، فلما رُدَّ قال : ياعم ، صر إلى المنادمة ، وارجع إلى الأنس ، فلن ترى منى أبداً إلا ما تحب ، وخلع عليه وحمله ، وأمر له بخمسة آلاف دينار [٥].

وعفا عن الحسين بن الضحاك الذى يقول فى رثاء محمد الأمين :

فلا تمت الأشياء بعد محمد ولا زال شمل الملك فيه مبددا
ولا فرح المأمون بالملك بعده ولا زال فى الدنيا طريداً مشردا

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣١٩
(٢) الفخرى ص ١٩٥
(٣) فريد رفاعى : عصر المأمون ١ : ٣٥٠
(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٠٣
(٥) الأغانى ٩ : ٥٧

والذى يقول :

أردّ يداً منى إذا ما ذكرته على كبد حرَّى وقلب مفتّتِ
فلا بات ليل الشامتين بغبطة ولا بلغت آمالهم ما تمنتِ

ويطلب الحسين العفو فتدمع عينا المأمون ويقول : قد عفوت عنك ، وأمرت بإدرار أرزاقك وإعطائك ما فات منها ، وجعلت عقوبة ذنبك امتناعى عن استخدامك (١) .

وكان المأمون قليل اللهو ، أقام بعد قدومه بغداد عشرين شهرا لم يسمع حرفا من الغناء ، ثم سمعه من وراء حجاب ، متشبهاً بالرشيد ، فكان كذلك سبع حجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين (٢) .

وكان يشرب النبيذ قليلا (٣) . وقد صرفه عن اللهو والشراب انصرافُه إلى العلم ، وحبه للكتب وتمتعه باللذة العقلية ، ثم إعادة بناء الدولة بعد أن أوشكت أن تنصدع ، وتذهب ريحها .

ومن المسائل التى أثيرت فى عهد المأمون مسألة خلق القرآن ، أو محنة خلق القرآن كما اصطُلِح على تسميتها . وقد وقف فيها المعتزلة مؤيِّدين بالمأمون ضد أهل السنة والمحدِّثين ، وكانت المعتزلة تقول بنفى صفات المعانى عن الله تعالى ومنها الكلام ، لأن إثباتها يؤدى إلى تعدد القدماء ، وذلك ينافى التوحيد ، وكان من النتائج اللازمة لذلك قولهم : إن القرآن مخلوق لأنه أصوات وحروف ، ولكنها ليست قائمة بذاته ، بل يخلقها الله فى غيره

---

(١) الأغانى ٦ : ١٧٥
(٢) الجاحظ : التاج ص ٤٣
(٣) انظر الطبرى ١٠ : ٢٥٦

كاللوح المحفوظ أو جبريل أو النبي ؛ وكان المعتزلة يؤيدون قولهم بأدلة عقلية وأدلة نقلية ، ولكن أهل السنة والمحدثين عارضوهم بإصرار وبدون أدلة قوية يعضدون بها وجهة نظرهم ، وتدخل المأمون تدخلا عنيفاً واستغل سلطانه ليرغم الناس على القول بخلق القرآن ؛ ويأخذُ عليه كثير من الكتاب هذا الموقف الذى حارب فيه الحريات ، واستعمل السيف لتقوية جانبه ، وأرهق علماء عصره الذين عارضوه فيما اعتقد ، ولكن المنصف ربما استطاع أن يلتمس العذر للمأمون ، لأنه لم ير المسألة تمسه هو فلو كانت تمسه لعفا كشأنه فى حب العفو ، ولكنه رأى المسألة أعمق ؛ رآها مسألة إسلامية تتعلق بصميم العقيدة ، ورأى من لم يعترف بها خارجا على الدين ، فأعلن أن من واجبه وهو خليفة للمسلمين يقوم بشئون دينهم ودنياهم ألا يستعمل فى أمور الدولة هؤلاء الخارجين ، وأن من واجبه أن يحمى جماهير الناس من فكرتهم التى يراها مارقة كافرة ، وقد زاد سخطُ المأمون على المحدثين، لجمود موقفهم، ولعدم دفاعهم عن آرائهم بالمنطق أو بالمنقول ، ومن ثم استهدفوا لغضبه وإيقاعه بهم ، وقد وضَّح المأمون المشكلة وموقفه منها فى كتابين أرسلهما وهو بالرقة إلى نائبه ببغداد اسحق بن ابراهيم ، ومن هذين الكتابين نقتطف ما يلى :

أما بعد ، فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحمّلهم رعاية خلقه ، وإمضاءَ حكمه وسنته ، والائتمام بعدله فى بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفةِ التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا

لرعاياهم سمتَ نجاتهم ، ويقفوهم على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم، ويكشفوا لهم عن مغطَّيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم ، ويتذكروا ما الله فرضه من مساءلتهم عما حُمِّلوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله .

ومما بينه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع فى الدين من وَكَفِهِ [الوكف : العيب والإثم] وضرره ، ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد (ص) باقياً لهم ، واشتباهِهِ على كثيرين منهم ، حتى حسن عندهم ، وتزين فى عقولهم ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان به عن خلقه ، وتفرد جلالته بابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته التى لا يُبلَغ أولاها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شىء من دونه خلقاً من خلقه ، وحدثا هو المحدِث له ، وإن كان القرآن ناطقا به ، ودالا عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ؛ وضاهوا به قولَ النصارى فى ادعائهم فى عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق ؛ إذ كان كلمة الله ؛ والله عز وجل يقول عن القرآن : « إنا جعلناه قرآنا عربيا[1] » وتأويل ذلك إنا خلقناه كما قال جل جلاله : « وجعل منها زوجها ليسكن إليها[2] » ، وقال « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشا[3] »

---

(١) الزخرف الآية رقم ٣
(٢) الأعراف الآية رقم ١٨٩
(٣) سورة النبأ الآية رقم ١٠

«وجعلنا من الماء كل شيء حي»[1] ، فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة [أي في حسن الصنعة] وأخبر أنه جاعله ، وحده فقال : «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ»[2] ، فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه (ص) «لا تحرك به لسانك لتعجل به»[3] ، وقال : «وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث»[4] ، وقال : «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته»[5] ، وجعل له أولا وآخرا فدل على أنه محدود في قوله : «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[6] ، وقرر أنه نُسِخَ بعضه في قوله تعالى : «ما ننسخ من آية أو ننسها»[7] ، وقال عز وجل «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق»[8] ، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها ، وقال : «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[9] ، وكل محكَم مفصَّل له محكِم مفصِّل ، والله محكم كتابه ومفصّله ، فهو خالقه ومبتدعه .

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى

---

(١) الأنبياء الآية رقم ٣٠

(٢) البروج الآيتان ٢١ ، ٢٢

(٣) سورة القيامة الآية رقم ١٦

(٤) الأنبياء الآية رقم ٢

(٥) الأنعام الآية رقم ٢١

(٦) فصلت الآية رقم ٤٢

(٧) البقرة الآية رقم ١٠٦

(٨) طه الآية رقم ٩٩

(٩) هود الآية رقم ١

السنة ، وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال .

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن ، الثَّلْمَ فى دينهم ، والجرح فى أماناتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم ، حتى عرّفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التى هى لله وحده ، وشبهوه به ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُحلَّ أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ، ولا عدالة ، ولا شهادة ، ولاصدقٍ فى قول ولاحكاية ، ولا تولية لشىء من أمور الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم ، وعرف بالسداد مسدَّد فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا ، فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن اسحق القاضى كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك وانصصهما على علمهما فى القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شىء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فإن قالا بقول أمير المؤمنين فى ذلك ، فتقدم إليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم فى القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وإن ثبت عفافه بالقصد والسداد فى أمره ، وافعل

ذلك بمن فى سائر عمالك من القضاة ، واشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة فى بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك إن شاء الله[1].

وقد تزعم أحمد بن حنبل الفريق الذى عارض فكرة خلق القرآن ، ولكن المطلع على كتب الأدب والتاريخ يدرك أن أحمد بن حنبل وأنصاره لم يدافعوا دفاعا عقليا ولا نقليا عن رأيهم ؛ ومن أمثلة ذلك أن الواحد منهم كان يقول : إن القرآن مجعول لقوله تعالى : « إنا جعلناه قرآنا عربيا[2] » فإذا سئل : هل المجعول مخلوق ؟ أجاب : نعم . فإذا قيل له فالقرآن إذاً مخلوق رفض أن يجيب بالإيجاب[3].

وقد احتمل أحمد بن حنبل وبعض أصحابه كثيراً من الأذى والضر لموقفهم ذاك ، وعدم تحولهم عن رأيهم ، وقد اعتبرت الجماهير هذا لونا من ألوان البطولة والايمان فيهم ، وينبغى أن نبرز أن الضرب المتلف وقع بهؤلاء بعد وفاة المأمون ، ويخيل لى أن شيئاً من هذه القسوة العنيفة ما كان ليحصل لو كان المأمون حيا ، ولكن المأمون نصح أخاه المعتصم بأن يأخذ الناس بالقول بخلق القرآن ، وكان المعتصم رجل حرب ، فتلقى هذا التوجيه من أخيه كما يتلقى الجندى أوامر قائده . ونفذه تنفيذاً حرفياً فكان فيه قاسياً وغليظاً .

المعتصم : (٢١٨–٢٢٧هـ)

نكتب عن المعتصم والواثق كلمات قليلة استكمالا للحديث عن خلفاء

---

(١) احمد زكى صفوت : جمهرة رسائل العرب ٢ : ٥٤٠ — ٥٤٧

(٢) الزخرف الآية رقم ٣

(٣) أنظر نماذج من هذه المناقشات فى طبقات الشافعية ١ : ٢٠٥ — ٢١٥

هذا العصر ، إذ أنى اعتقد أن طابع الدولة قد تغير منذ عهد المعتصم ؛ والمعتصم من أشهر أبطال العباسيين وشجعانهم ، وقد حرمه الرشيد ولاية العهد لقلة حظه من العلم ، ولكن المأمون رأى الدولة تموج وتضطرب ، وتهاب البطل الصنديد أكثر مما تهاب العالم النحرير ، فولاه عهده ، وقد جلب المعتصم الأتراك ورباهم ، فلما زاد خطرهم فى بغداد بنى من أجلهم العاصمة الجديدة سامرا ، وانتقل بهم إليها .

الواثق :(٢٢٧-٢٣٢هـ)

لم يكتب ابن طباطبا عن الواثق إلا كلمات قليلة نقتبسها منه ونكتفى بها: كان الواثق من أفاضل خلفاء بنى العباس ، وكان لبيبا فطنا فصيحا شاعراً ، وكان يتشبه بالمأمون فى حركاته وسكناته ، ولما ولى الخلافة ، أحسن إلى بنى عمه الطالبيين وبرهم (١) .

ونختم حديثنا فى الفصل الأول بكلمة عن المذاهب فى الشراب ؛ لقد رأينا مواقف الخلفاء تجاه الشرب ، وكيف كان نهجهم ، ثم كيف انتصر الميل إلى الشرب والمنادمة لدى الخلفاء ، وبذلك شاع الشراب بين طبقات الناس ، فما هى الاتجاهات فى هذه المسألة ؟ يبدو لى أنه كان هناك اتجاهات ثلاثة نحو هذا الموضوع :

١ - مذهب أهل الورع والتقى وهؤلاء استجابوا لقوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء

---

(١) الفخرى ص ٢٠٩

فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون؟[1]»
وقد عدّ هؤلاء القوم كل مسكر خمرا ، فحرموا كل أنواع المسكرات ، ثم حرموا قليلَ مايسكر كثيرُه ، وقد قال بهذا الأئمةالثلاثة ، مالك والشافعى وابن حنبل .

٢ — مذهب المستهترين من الشعراء ومن جرى مجراهم ، وهؤلاء أعلنوا تمردهم وشربوا كل الأنواع ، وأمضوا لياليهم بين الكاس والطاس ، وقد عبر عنهم أبو نواس بقوله :

فإن قالوا : حرامٌ قل : حرام ... ولكن اللذاذة فى الحرام

وقوله :

حجُّ مثلى زيارةُ الخمّار ... واقتنائى العَقَار شربُ العُقَار
ما أبالى إذا المدامة دامت ... قول ناهٍ ولا شناعة جار[2]

وقوله :

لمثلى من الفتيــان حلت أخى الخمرُ
وطابت له اللذات واسترخِص السكر[3]
فقد كان شربى لا يكدر مجلسى
ولا يعترى فيه خِصامٌ ولا هُجُرُ[4]

٣ — مذهب الإمام أبى حنيفة وأكثر أهل العراق الذى يفسر الخمر فى الآية السابقة بعصير العنب ، ويقولون بحصر الحرمة فيها ، أما النبيذ وهو

(١) المائدة الآيتان ٩١ — ٩٢
(٢) ديوان أبى نواس ص ٢٠٥
(٣) صار السكر مرخصا به
(٤) ديوان أبى نواس ص ٢٠٦

ما أخذ من التمر والزبيب فليس حراماً إذا لم يسكر ويستدلون على هذا بقوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقا حسنا »[1]. مادام ذلك لم يسكر، فإذا أسكر كان خمرا ، كما يستدلون على ذلك بقوله (ص): حُرمة الخمرة بعينها والسكر من كل شراب . ويُروى أن عيسى بن موسى استحضر ابن عباس وسأله عن النَّبيذ فقال : حلالٌ ، وقد أدركنا أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه ؛ ورَوَى بعضهم أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ الشديد ويقول : إنا نأكل لحوم هذه الابل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها فى بطوننا[2] [أى ليساعد فى عملية الهضم] ، ويروى الجهشيارى[3]. أن شَريكا القاضى تحدث عند أبى عبيد الله معاوية بن يسار يوماً بحديث فى تحليل النبيذ ، فقال عافية القاضى وكان حاضراً : ما سمعنا بهذا الحديث ، فقال شريك : وما يضر عالما أن جهل جاهل ؟ .

وذكر أبو سهل الرازى عن منصور بن أبى مزاحم قال :

كنت عند أبى عبيد الله ، وحسن بن حسن عنده ، وشريك حاضر . فقال أبو عبيد الله لشريك : حدثنا فى النبيذ . فحدثه بحديث همام عن عمر ابن الخطاب فيه . فقال حسن : ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق . فقال شريك : أجل ، شغلك عنه جلوسك على الطنافس ، فى صدور المجالس ، وعرفناه بسعينا فيه . فاستزاده أبو عبيد الله ، فقال : لا أعرض الحديث للمكذب[4] .

---

(١) سورة النحل الآية رقم ٦٧ .

(٢) الاصفهانى : محاضرات الادباء ١ : ٤١٢ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٤٤

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة

الفصل الثانى

مؤامرات فى قصور الخلفاء

تقـــديم :

أمدنا الفصل السابق بمـادة غزيرة عن العناء الذى مُنىَ به العباسيون قبيل إقامة دولتهم ، وبعد أن أقاموها ، وعن القلق الذى ظل يساور نفوسهم خليفة بعد خليفة ، من أجل المحافظة على كيان هذه الدولة ، التى كانت تتوالى عليها الهزات والمحن ، وتقوم فى وجه خلفائها المشكلات والمتاعب بين حين وحين ، ففى الشام يوجد للأمويين أنصار وأشياع ، حتى فكر عبدالرحمن الداخل فى إعادة هذه البلاد إلى سلطان الأمويين (١) ؛ وكانت ثورات العلويين تنتشر فى كل مكان ، وفى كل عهد ، ينجح بعضها فيقطع من جسم الدولة دولةً تظل شوكة فى ظهر العباسيين ، ويخفق بعض بعد أن يرهق الخلفاء ويُـقِضّ مضاجعهم ؛ وبين هذا وذاك يهب الخوارج والزنادقة لتقويض بنيان الامبراطورية وتحطيم مثلها ؛ ويقف البيزنطيون بالمرصاد على حدود العباسيين لينتهزوا فرصة اضطراب داخلى ليزحفوا على الدولة ويكثروا فيها القتل والأسر والتنكيل . هذا وغيره مما مر ذكره جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة بالفنـاء والزوال ، وأنه ينبغى أن يقتلوا كل من حامت حوله شبهة ، أو من خيف منه المروق ، وأصبحت المسألة دفاعا عن النفس ، فقدأحس الخلفاء العباسيون أنهم سيكونون وقودا لكل انقلاب يتم ، أو مؤامرة تنتصر ؛ وإذاً فليستعمل العباسيون كل سلاح يضمن لهم السلامة ، ويكفل لهم النصر ، وكان من أبتر الأسلحة التى انتفعوا

---

(١) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ٢ : ١٨٥ ، وانظر كذلك ابن الأثير ٦ : ٦٣ عند كلامه عن سبب انتقال الرشيد من بغداد إلى الرقة

بها سلاح الائتمار والفتك بكل من يخشونه ، ولو كان ممن آمنوا وعاهدوا ، وقد برعوا فى استغلال هذا السلاح ليتقوا به شر من يخشى تمردُه ، أو ليثأروا به من عدو قديم .

وفيما يلى سجل لأبرز مؤامرات هذا العصر :

أبو سلمة الخلال :

هو حفص بن سليمان ، وسمى الخلاَّل نسبة إلى خِلل السيوف وهى أغمادها ، فقد كان يعملها . وكانت العرب تسمى من يعملها الخلال [1] ، وقيل إنه سمى الخلال نسبة إلى الخلّ فقد كانت له حوانيت يعمل فيها الخل [2] .

ولأبى سلمة ولصهره بكر بن ماهان من قبله نصيب كبير فى إقامة الدولة العباسية ، فلقد كان أبو سلمة عالماً بالسياسة والتدبير ، ذا غنى ويسار ، حسن التصرف فيما يعترض الدعوة من مشكلات ، كما كان ينفق ماله بسخاء من أجل الدعوة وعلى رجالها ، وكان مركزه الكوفة نقطة الاتصال بين الحميمة وخراسان ، كما سبق القول ، ولكنه كان ينتقل كثيراً إلى خراسان للإشراف على تقدم الدعوة ونجاحها ، ومن هنا يجب أن نعترف بفضل هذا الرجل فى الوصول بالدعوة الجديدة إلى هذا النجاح العظيم .

ولما زحفت جيوش الخراسانيين من نصر إلى نصر ، ووصلت الكوفة ، أظهرَ قوادُها أبا سلمة ، وسلموا إليه الرئاسة ، وسموه وزير آل محمد ، فدبر الأمور ، وأظهر الإمامة الهاشمية ، ولم يُسَمِّ الخليفة [3] .

وبينما كانت الامبراطورية الإسلامية ترتعد تحت الخليفة الأموى

---

(١) الجهشيارى ص ٨٤
(٢) الفخرى ص ١٣١
(٣) الجهشيارى ص ٨٤

الأخير ، كان هذا لا يعرف اليد الكامنة التي تحرك هذه العاصفة ، إلى أن عثر على كتاب من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم . . فعرف أن إبراهيم هو غريمه فقبض عليه ، وأحس إبراهيم بنهايته تقترب فأوصى بالأمر لأخيه السفاح وأمر أهله بمغادرة الحميمة إلى الكوفة ، فلما ورد هؤلاء الكوفة ، أنزلهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد الجمال مولى بني هاشم ، وتولى خدمتهم بنفسه ، وكتم أمرهم [١] .

ثم إن وزير آل محمد فكر فيمن يُسْنِد له الخلافة بعد أن علم بموت إبراهيم . فهداه تفكيره - على ما يقال - إلى ثلاثة من أعيان العلويين هم جعفر الصادق ، وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي ، وعمر الأشرف بن زين العابدين ، فأرسل إليهم الكتب مع رجل من مواليهم ، وقال له : اقصد أولا جعفر الصادق ، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يجب فالقَ عبد الله المحض ، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر ، وإن لم يجب فالق عمر . فذهب الرسول إلى جعفر الصادق أولا ودفع إليه كتاب أبي سلمة ، فقال : مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري ؟ فقال له الرسول : إقرأ الكتاب . فقال الصادق لخادمه : أدْنِ السراج مني ، فأدناه . فوضع الكتاب على النار حتى احترق . فقال الرسول ألا تجيبه ؟ فقال : قد رأيت الجواب . ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه وقبَّله ، وركب في الحال إلى الصادق وقال : هذا كتاب أبي سلمه يدعوني فيه إلى الخلافة ، قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان . فقال له الصادق : ومتى صار أهل خراسان شيعتك ؟ أأنت وجهت إليهم أبا مسلم ؟

(١) الجهشياري ص ٨٥ والفخري ص ١٢٤ .

هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : هذا الكلام منك لشيء . فقال الصادق : قد علم الله انى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم ، فكيف أدخره عنك ؟ فلا تُمَنِّ نفسك بالأباطيل ، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء . وقد جاءنى مثل الكتاب الذى جاءك . فانصرف عبد الله من عنده وقد عدل عن الاستجابة لدعوة أبى سلمة . وأما عمر بن زين العابدين فإنه رد الكتابَ وقال أنا لا أعرف صاحبه ، فأجيبه [1] .

كان هذا يجرى والسفاح وذووه يقيمون بالكوفة دون أن يعرف أحد من خبرهم شيئاً سوى أبى سلمه وخاصة خدمه ؛ وكانت جيوش الخراسانيين تعسكر فى ذلك الوقت بظاهر الكوفة بحمام أعْيَن [2] ، واستمر الحال على ذلك نحوا من أربعين يوما ، فسأل الخراسانيون أبا سلمة عن الإمام فأجاب : لا تعجلوا ، ليس هذا وقت خروجه لأن واسطا لم تفتح بعد [3] . فَهُمْ فى ذلك معه ، إذ خرج محمد بن ابراهيم الحميدى ، ويكنى : أبا حميد السمرقندى ، يريد الكِنَاسَة فلق سابقا الخُوارَزمى ، وهو غلام كانوا أهدوه لابراهيم الامام ، فسأله أبو حميد عن الخبر ، فأخبره أن إبراهيم الإمام قد قتله مروان ، وأنه أوصى قبل مقتله إلى أخيه أبى العباس واستخلفه من بعده ، وأنه قدم الكوفه ومعه عامة أهل بيته ، فسار معه أبو حميد حتى دخل على القوم فعزَّاهم فى إبراهيم الإمام وسأل عن ابن الحارثية ، فأشاروا إلى أبى العباس ، فسلم عليه بالخلافة ، وقبَّل يده

(١) الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ٨٦ والفخرى ص ١٣٢
(٢) مكان بالكوفة منسوب إلى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص .
(٣) ابن الأثير ٥ : ١٥٣

ورجله وبايعه، وخرج فأعلم جماعة من القواد المرابطين بظاهر الكوفة بحمام أعين، فاستقر رأيهم على المضى إلى أبى العباس ومبايعته، فخرجوا إليه، فلما عرف أبو سلمة هذا ركب فى أصحابه إلى أبى العباس، فأغلق الباب دونه فاستفتح أصحاب أبى سلمة الباب، وقالوا: وزير آل محمد. فأسمعوه من الداخل بعض ما يكره ثم أدخلوه، فاستقبل القبلة، فسلم ثم سجد، وقبّل يد أبى العباس وقدميه، وبدأ فى الاعتذار، فقال أبو العباس: عذرناك ياأباسلمة، غير مُفنَّد، وحقك لدينا معظم، وسابقتك فى دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة، انصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل، فانصرف إلى معسكره بحمام أعين [1].

ولكن الحقيقة أن أبا العباس قال هذا وهو يضمر غيره، فلم تكن سابقة أبى سلمة مشكورة عنده، ولازلته مغفورة لديه، ولكن أبا العباس كان لايزال فى حاجة إلى تأييد أبى سلمة ومناصرته ومن هنا قال هذا القول وهو يخفى سواه.

خرج أبو العباس بعد هذا إلى المسجد، وخطب الناس وأخذ بيعتهم، ووزع أهله وذويه على الجيوش المحاربة فى الميادين المختلفة، كما ولى أخصاءه الإمارة على البلاد التى دانت لهم. ثم التفت بعد ذلك إلى أبى سلمة ليأتمر به انتقاماً منه لما اقترف، ناسياً يده الطولى، وجهده الكبير فى تكوين هذه الدولة.

ولكن أبا العباس حينما همّ بأبى سلمة قال له داود بن على: لا آمن عليك أبا مسلم إن فعلت أن يستوحش؛ ولكن اكتب إليه فعرفه ما كان

(١) الطبرى ٩ : ١٢٥، والجهشيارى ٨٦ — ٨٧، وابن الأثير ٥ : ١٥٣

من أبي سلمة . فكتب أبو العباس إلى أبي مسلم يعلمه بما عزم عليه أبو سلمة من نقل الدولة عنهم ، ويقول له : إنني قد وهبت جرمه لك ؛ ولكن باطن الكتاب كان يفيد حث أبي مسلم على قتل أبي سلمة . فلما قرأ أبو مسلم الكتاب ، فطن لغرض السفاح ، فوجه بالمرّار بن أنس الضبي ومعه قوم من أهل خراسان لقتل أبي سلمة ؛ فلما وافى المرّار ومن معه ، أمر السفاحُ منادياً ينادي بالكوفة : إن أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة ؛ ثم دعاه قبل مقتله بيوم واحد فخلع عليه ، ثم دعاه في الليلة التالية فسهر معه عامة ليله ، ثم انصرف إلى منزله ، فاعترضه المرّار بن أنس وأصحابه فقتلوه ، وأغلقت أبواب المدينة ، وقيل لأبي العباس : إن أبا سلمة قتله الخوارج . فقال : لليدين وللفم [1] .

وكان مقتل أبي سلمة في رجب سنة ١٣٢ هـ [2] .

بقيت لي كلمة عن ذلك الموضوع ننصف بها بالقول ذلك الرجل الذي غُدر به ، والذي شاء له الخليفة أن يَنكَبّ على وجهه فلا يفيق ، وأنا لا أقصد بهذه الكلمة الدفاع عن أبي سلمة ، ولكنه عرض هادئ أعتقد أنه عادل مستقيم .

من الواضح أنه لم يثبت بشكل قاطع أن أبا سلمة كتب للعلويين

---

(١) دعاء بالسوء . ومعناه كبه الله حتى يسقط على يديه وفمه .

(٢) انظر لذلك الموضوع : الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٩٠
ابن الأثير : الكامل ٥ : ١٦٣ — ١٦٤
ابن خلكان : الوفيات ١ : ١٦٣ ، ابن خلدون : العبر ٣ : ١٧٦
ابن طباطبا : الفخري ص ١٣٣

يستدعيهم ليسند إليهم الخلافة، وقد جاء فى رواية ابن خلكان [1] ما يوحى بالتشكيك فى هذه القضية فقد قال: « إن القوم توهموا من أبى سلمة أنه مال إلى العلويين » .

وشىء آخر ؛ ألا يُحتمل أن يكون أبو سلمة وقع فى هذا لأنه كان قد خدع فى فهم دعوة الحميمة ، التى كانت تسير باسم الرضا من آل محمد ، كما كان زعماء الحميمة أنفسهم يعلنون ذلك ؟ فلما نجحت الدعوة وجد أبو سلمة - وهو وزير آل محمد - أن من واجبه أن يعين الخليفة ، وهداه تفكيره إلى أن العلويين أولى بهذه الدعوة من سواهم ؛ إذ قامت الدعوة الجديدة باسمهم واستغلت رفاتهم وضحاياهم، ثم هم أكثر شهرة بين الناس ، وتعرفهم الجماهير أكثر مما يعرفون بنى العباس .

وإذا كان أبو سلمة قد أخطأ فى هذا التصرف أما كان يشفع له جهاده الطويل وكفاحه المرير وثروته العريضة التى أنفقها من أجل الدعوة ونجاحها؟ وبخاصة أنه لم يُخش منه تحول بعد ذلك ؟ ولا خيف منه رجوع إلى العلويين بدليل مارواه ابن خلكان [2] من أنه كان صفىَّ أبى العباس وكان هذا يأنس به .

وإذا كان أبو العباس ينوى قتله ، فلماذا يوثق على نفسه العهود ، ويخلع عليه ، ويدع منادياً ينادى أن أمير المؤمنين راض عنه ؟ مع أنه لو قتله بدون ذلك ، وادعى أن الخوارج قتلوه كما فعل ، ما تغير فى الوضع شىء ، وبخاصة بعد أن دبر ذلك أبو مسلم الخراسانى .

إن الاستهانة بالعهود كانت كما وضح وكما سيتضح مما يلى ، شيمةً من شيم أكثر خلفاء هذا العصر .

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ١٦٣

(٢) المرجع السابق

يزيد بن عمر بن هبيرة :

بطل من أبطال العرب ، ودعامة من دعائم الخلافة الأموية ، كان كما يقول ابن قتيبة [1] أحد القواد القلائل الذين جُمع تحت أمرهم العراقان (الكوفة والبصرة) ، وكان يزيد شيخاً جسيما طويلا خطيباً شجاعاً ، ظل يحارب العباسيين حتى بعد أن أعلنوا خلافتهم ، ولم يثنه عن مداومة العداء إلا قتل مروان بن محمد وانتهاء ملك الأمويين ، وهكذا كانت واسط التى تحصن بها ابن هبيرة ، آخر حصن عزَّ على العباسيين تسوُّرُه ، وما دخلوه إلا صلحا [2] ولنعد إلى المسألة بشىء من التفصيل :

لما دخل أبو مسلم الخراسانى مدينة مرو حاضرة خراسان سنة ١٣٠ ﻫ أقام بها ووجه قَحْطَبة بن شبيب الطائى - وكان قد وفد عليه حديثاً من قبل ابراهيم الإمام - فى جيش من الخراسانيين لقتال جيوش الأمويين ؛ فواتاه النصر عليهم حتى بلغ العراق ، وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والياً عليه ، فأراد قحطبة أن يعبر الفرات ليواصل الضغط على ابن هبيرة ، ولكن معن بن زائدة الشيبانى أحد الأبطال العرب الذين كانوا فى ذلك الحين مع ابن هبيرة ضرب قحطبة ضربة أوقعته فى الماء فأغرقته ، وحينئذ تولى الحسن بن قحطبة قيادة جيش العباسيين مكان أبيه ، وواصل زحفه على جيش الأمويين حتى لحق ابنُ هبيرة بمدينة واصل ، وتحصن بها تحصناً محكما ، استمر أحد عشر شهراً ، حتى جاءهم خبر مقتل مروان بن محمد ، أتاهم به اسماعيل بن عبد الله القسرىّ وقال لهم: علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان ؟ فجنحوا حينئذ إلى الصلح [3].

---

(١) المعارف ص ٢٤٩

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٦٧ — ٣٦٨ ، ابن الأثير ٥ : ١٦٤ وما بعدها

(٣) ابن الأثير ٥ : ١٦٥

أما عن جيش العباسيين فإنه بعد مقتل قحطبة وقيام ابنه مكانه ، رأى أبو العباس أن يدعم ذلك الجيش لعله يستطيع أن يقضى على ابن هبيرة ، الذى كان شوكة فى ظهورهم ، فأرسل أخاه المنصور لمعاونة الحسن ، وكتب إلى الحسن يقول : إن العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولكنى أحببت أن يكون أخى حاضراً ، فاسمع له وأطع ، وأحسن مؤازرته ؛ فلما قدم أبو جعفر المنصور على الحسن تحول الحسن عن خيمته وأنزله فيها ، وكان الحسن هو المدبر لذلك العسكر بأمر المنصور [١] .

وقد أدرك المنصور قوة ابن هبيرة وأنصاره من أبطال العرب، كما يئس ابن هبيرة من النصر بعد أن قتل مروان ودالت دولة الأمويين ، فجرت بينهما محادثات للصلح ، ونشط السفراء بين الاثنين ، حتى جعل أبو جعفر لابن هبيرة أماناً ، وكتب به كتاباً ، مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ، فأنفذه إلى أبى جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى أخيه السفاح ، فأمر بإمضائه . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن على أبى جعفر ولى أمر المسلمين ، ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم فى مدينة واسط وأراضيها من المسلمين والمعاهدين ، ومن معهم من وزرائهم ؛ إنى أمنتكم بأمان الله الذى لا إله إلا هو ، الذى يعلم سرائر العباد ، ويعلم ما تخفى الصدور ، وإليه الأمر كله ، أماناً صادقاً لا يشوبه غش ، ولا يخالطه باطل ، على أنفسكم وذراريكم وأموالكم ، وأعطيت يزيد بن هبيرة ، ومن أمنته فى أعلى كتاب هذا الوفاء بما جعلت

(١) المرجع السابق .

لهم من عهد الله وميثاقه الذى واثق به الأمم الماضية من خلقه ، وأخذ عليهم به أمره ، عهداً خالصاً مؤكداً ، وذمة الله[1] وذمة محمد ، ومن مضى من خلفائه الصالحين ، وأسلافه الطيبين ، التى لا يسع العبادَ نقضُها ، ولا تعطيلُ شيء منها ، ولا الاحتقار لها ، وبها قامت السموات والأرض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها ، تعظيما لها ، وبها حقنت الدماء. وذمة روح الله وكلمته عيسى بن مريم، وذمة ابراهيم ، واسماعيل، واسحق، ويعقوب ، والأسباط ، وأعطيتك ماجعلت لك من هذه العهود والمواثيق، ولمن معك من المسلمين وأهل الذمة ، بعد استئمارى فيما جعلت لك منه أميرَ المؤمنين ، أعز الله نصره ، وأمر بإنفاذه لكم ، فاطمئنَّ إلى ما جعلتُ لك من الأمان والعهود والمواثيق ، وثق بالله وبأمير المؤمنين فيما سلَّم منه ورضى به ، وجعلتُه لك ولمن معك على نفسى ، ولك علىّ الوفاء بهذه العهود والمواثيق والذمم أشد ما أخذ الله وحرّمه ، وما أنزل الله تبارك وتعالى على نبيه محمد (ص)، فإنه جعَله كتابا مبينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونوراً وحُجَّةً على العباد ، حتى ألقى الله وأنا عليه . وأنا أُشهد اللهَ وملائكته ورسله، ومن قرىء عليه كتابى هذا من المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق، وإقرارى بها على نفسى، وتوكيدى فيها ،وعلى تسليمى لك ماسألت ،لايغادَر منها شىء ، ولاينكث عليك فيها ،وأدخلتُ فى أمانك هذا جميعَ مَن قبلى من شيعة أمير المؤمنين من أهل خراسان ، ومن لأمير المؤمنين عليه طاعة من أهل الشام والحرب وأهل الذمة وجعلت لك ألاّ ترى منى انقباضاً ، ولامجانبةً ، ولاازوراراً ، ولا شيئاً تكرهه فى دخولك علىّ إلى مفارقتك إياى ، ولا ينال أحداً معك أمرٌ يكرهه ، وأذنت لك ولهم

(١) معطوف على قوله فيما سبق « من عهد الله وميثاقه »

فى المسير والمقام ، وجعلت لهم أمانا صحيحاً ، وعهداً وثيقا ، وأن عبد الله ابن محمد [يعنى نفسه] إن نقض ما جعل لكم فى أمانكم هذا ، فنكث أوغدر بكم ، أو خالف إلى أمر تكرهه ، أو تابع على خلافه أحدا من المخلوقين فى سر أو علانية ، أو أضمر لك فى نفسه غير ماظهر لك ، أو أدخل عليك شيئاً فى أمانه ، وما ذكر لك من تسليم أمير المؤمنين ، التماسَ الخديعة والمكرِ بك ، وإدخالِ المكروه عليك ، أو نوى غيرماجعل لك من الوفاء لك به ، فلا قَبِلَ الله منه صرفا ولا عدلا ، وهو برىء من محمد بن على ، وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويتبرأ من طاعته ، وعليه ثلاثون حِجَّةً يمشيها من موضعه الذى هو به من مدينة واسط إلى بيت الله الحرام الذى بمكة حافيا راجلا ، وكل مملوك يملكه من اليوم إلى ثلاثين حِجَّةً [سنة] بشراء أوهبة أحرار لوجه الله ، وكل امرأة له طالق ثلاثاً ، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أوغير ذلك فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه ، والله عليه فيما وَكَّدَ وجعل على نفسه فى هذه الأيمان راع وكفيل ، وكفى بالله شهيداً »(١) .

ذلك هو كتاب الأمان ، وقد أثبتّه كلّه ليرى القارىء ما فيه من قوة وتوكيد ، وأنه لم يَدَعْ ثُغْرة للغدر وعدم الوفاء ؛ فهل وفّى العباسيون بما عاهدوا الله عليه ؟ سنرى .

لما تم كتاب الأمان خرج ابن هبيرة إلى أبى جعفر فى ألف وثلثمائة ، فاستقبله الحاجب وأذن له وحده أن يدخل على المنصور ، وقضى معه ساعة ثم خرج ، وظل يتردد عليه يوما بعد يوم فى خمسمائة فارس وثلثمائة راجل ،

---

(١) ابن قتيبة : الأمامة والسياسة ٢ : ١٦٣ — ١٦٦

فقيل لأبى جعفر : إن أبا هبيرة يأتى فيتضعضع له العسكر ، وما نقص من سلطانه شيء ، فأمره أبو جعفر ألا يأتى إلا فى حاشيته ، فكان يأتى فى ثلاثين ، ثم صار يأتى فى ثلاثة أو أربعة [1] . وكلم ابنُ هبيرة المنصورَ أول ما اتصل به فقال : إن دولتكم هذه جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوتها ، وجنِّبوهم مرارتها ، لتسرع محبتكم إلى قلوبهم ، ويعذب ذكرُكم على ألسنتهم ، وما زلتُ منتظراً لهذه الدعوة ، فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه . فنظر إلى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأن قلبه ، فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه : عجباً لمن يأمرنى بقتل مثل هذا . [2]

ولكن دواعى الغدر تكاثرت على أبى جعفر فاستجاب لها ، وتحركت فيه ميوله بعدم الحرص على العهود ، وكان أبو مسلم الخراسانى أول وأهم من أشار بقتل أبى هبيرة ، فقد كتب إلى أبى العباس السفاح يقول : « إنه قلَّ طريقٌ سهل تُلقَى فيه حجارةٌ إلا ضرَّ ذلك بأهله ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فكتب أبو العباس إلى أبى جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة ، وألح عليه فى ذلك ، فكتب المنصور إليه « لا أفعل وله فى عنق بيعة وأيمان » فكتب إليه أبو العباس « والله لتقتلنه أو لأبعثن إليك من يخرجه من عندك ويتولى ذلك عنك » [3] . وإزاء ذلك الإصرار نزل أبو جعفر على رأى السفاح ورأى أبى مسلم ودبَّر مؤامرة للقضاء على ابن هبيرة ، الذى كان كل ذنبه أنه لم يَخُنْ خليفته ، ولم يستسلم بسهولة أمام

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٥

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٩٣ طبعة لجنة التأليف ، والمبرد : الكامل ١ : ١٤٤

(٣) الإمامة والسياسة ٢ : ١٦٧ وابن خلكان ٢ : ٣٦٨

جيوش العباسيين الزاحفة ، وقد وصف ابن الأثير [1] وابن خلكان [2] هذه المؤامرة التي حيكت للتخلص من ابن هبيرة وهذا موجز لها :

بعث أبو جعفر مَن ختم بيوت المال في واسط ، ثم بعث إلى وجوه مَنْ مع ابن هبيرة من القيسية والمضرية فأحضرهم ، فأقبل محمد بن نباتة ، وحوثرة بن سهيل في اثنين وعشرين رجلا ، فخرج حاجب أبي جعفر ، واستدعى ابن نباتة وحوثرة فأُدخِلا حجرةً دون حجرة أبي جعفر ، بها ثلاثة من خواص المنصور ومائة من رجاله ، فلما دخل ابن نباتة وحوثرة نُزِعت سيوفهما وكُتِّفَا ، ثم أدخل بعدهما اثنان وفعل بهما كذلك ، وهكذا إلى أن نزعت سيوف الجميع وكتفوا فقال أحدهم : أعطيتمونا الأمان ثم ختم . إنا لنرجو أن يدمركم الله ؛ وقال آخر : كأني كنت أنظر إلى هذا ؛ ثم قتل الجميع وأخذت خواتمهم ، ثم أرسل المنصور نحوا من مائة من أشداء رجاله إلى ابن هبيرة بحجة أنهم يريدون نقل خزائن بيت المال ، فقال ابن هبيرة لحاجبه : انطلق فدلَّهم عليها ، ولكنهم بدل أن يأخذوها بدءوا ينظرون هنا وهناك ليطمئنوا أنه ليست هناك قوة تدافع عن ابن هبيرة ، فأنكر ابن هبيرة نظرهم وقال : أقسم بالله إن في وجوه القوم لشرا ، وكان معه ابنه داود ، وكاتبه عمر بن أيوب ، وحاجبه ، وعدّةٌ من مواليه ، وابن له صغير في حجره ، فأقبل رسل أبي جعفر نحوه ، فقام حاجبه في وجوههم ، فضربه أحدهم ضربة صرعته ، وقاتل ابنه داود فقُتِل ، وقتل الموالي . ونَحَّى ابنُ هبيرة الصغيرَ من حجره ، وخرّ ساجدا ، فقتل وهو ساجد ، ومضوا

---

(1) ٥ : ١٦٦

(2) ٢ : ٣٦٩

برءوسهم إلى أبي جعفر ؛ وهكذا كانت النهاية الأليمة لهذه الطائفة من صناديد العرب وأبطالها .

عبد الله بن على :

سبق أن تحدثنا عن عبد الله بن على وهزيمته أمام أبي مسلم الخراسانى فى مطلع عهد المنصور بعد حرب ظلت خمسة شهور ، وقلنا إنه هرب فى الموقعة الأخيرة ، ولجأ إلى البصرة حيث يقيم أخواه سليمان وعيسى ، فبلغ ذلك المنصور ، فأرسل إلى سليمان وعيسى فى إشخاص عبد الله ، فتوسطا له عند المنصور ليرضى عنه ، ولا يؤاخذه بما جرى منه ، فقبل شفاعتَهما ، واتفقوا على أن يكتبوا له أمانا من المنصور ، وكان عبدالله بن المقفع يعمل كاتبا لعيسى ابن على فطلب إليه عيسى وسليمان أن يعمل نسخة للأمان فعملها ووكدها ، واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع فيها ، وترددت بين أبي جعفر وبينهم فى النسخة كتبٌ إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، بحيث لا يتهيأ لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها لفرط توكيد ابن المقفع ، واحتياطه ، وفيما يلى فقرات من هذا الكتاب الطويل :

« وإنْ أنا نلت عبدالله بن على أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً سراً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نفىّ من محمد بن على بن عبدالله ومولود لغير رَشدة [أى ولد سفاح وزنى]، وقد حل لجميع أمة محمد خلعى وحربى والبراءةُ منى ، ولا بيعة لى فى رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتى ، وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين ، وأنا

متبرىء من الحول والقوة ، ومُدَّعٍ ، وكافر بجميع الأديان ، ألقى ربى على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب ، والمناكح والمركب والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطى ، ولا نية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه والوفاء به [1].

فوقع المنصور الكتاب وأرسله إلى عمه عيسى قائلا ، إذا وقعت عينى عليه فهذا الأمان له ، لأنى لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتى له ، فيسير فى البلاد ، ويسعى علىّ بالفساد ، فقدم سليمان وعيسى بعبد الله وقواده ومواليه على المنصور فى ذى الحجة سنة ١٣٩ هـ ، فلما قدموا عليه أذن لسليمان وعيسى فدخلا عليه ، وأعلماه حضور عبد الله ، وسألاه الإذن له ؛ فشغلهما بالحديث ، وكان قد هيأ لعبد الله مكانا فى قصره ، وأمر به أن يصرف إليه بعد دخول سليمان وعيسى فَفُعِل به ذلك ، ثم نهض المنصور وقال لسليمان وعيسى : خذا عبد الله معكما . فلما خرجا لم يجدا عبد الله ، فعلما أنه قد ألقى القبض عليه ، فرجعا إلى المنصور فمُنعا عنه ، وأُخذت عند ذلك سيوف من حضر من أصحابه وحبسوا ، ثم أمر المنصور بقتل بعضهم بحضرته ، وبعث الباقين إلى أبى داود خالد بن ابراهيم بخراسان فقتلهم بها [2].

أما عبد الله فقد ظل فى الحبس حتى سنة ١٤٧ هـ وقد أراد المنصور أن يحج هذا العام بعد تقليده المهدى العهد وتقديمه إياه على عيسى بن موسى ، ولكن المنصور كان يتوق إلى أن يتخلص نهائيا من عمه عبد الله بن على ،

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٠٣ — ١٠٤
(٢) ابن الأثير ٥ : ١٨٥

ويود لو استطاع أن يجعل المؤامرة مزدوجة فيتخلص فى الوقت نفسه من ابن أخيه عيسى بن موسى ، وهكذا دبر المنصور المؤامرةَ التى يحكيها لنا الجهشيارى [١] ، وابن الأثير [٢] كما يلى .

دفع المنصورُ عمَّه عبد الله بن على إلى عيسى وأمره سراً بقتله ، وقال له : إن الخلافة صائرة إليك بعد المهدى ، فاضرب عنقه ، وإياك أن تضعف فتنقض علىَّ أمرى الذى دبرتُه ؛ ثم مضى إلى مكة ، وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه ما فعل فى الأمر الذى أمره به ، فكتب عيسى فى الجوابَ : قد أنفذتُ ما أمرتَ به ؛ فلم يشك أنه قتله ، وكان عيسى حين أخذ عبد الله من المنصور دعا أحد كتابه وأخبره الخبر ، فقال الكاتب : أراد أن تقتله ثم يقتلك به ، لأنه أمر بقتله سراً ، ثم يدعيه عليك علانية ، فلا تقتله ، واكتم أمره ، ففعل عيسى ذلك ؛ فلما قدم المنصور ، أوعز إلى أعمامه من يحركهم على الشفاعة فى أخيهم عبد الله ، ففعلوا وشفعوا ، فشفعهم ، وقال لعيسى فى حضرتهم : إنى كنت دفعت إليك عمى وعمك عبد الله ليكون فى منزلك ، وقد كلمنى عمومتك فيه ، وقد صفحت عنه فأتنا به ؛ قال يا أمير المؤمنين، ألم تأمرنى بقتله فقتلته ، قال : ما أمرتك ، قال: بلى أمرتنى ، قال : ما أمرتك إلا بحبسه ، وقد كذَبتَ . ثم قال المنصور لعمومته: إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم، قالوا: فادفعه إلينا للقوَد ، فسلمه إليهم، وخرجوا به إلى الرحبة ، واجتمع الناس ، وشُهِرَ الأمر ، وقام أحدهم ليقتله ، فقال عيسى : أفاعل أنت ، قال : إى والله . قال : ردونى إلى أمير

(١) الوزراء والكتاب ص ١٣٠
(٢) الكامل فى التاريخ ٥ : ٢١٥ — ٢١٦

المؤمنين ، فردوه إليه، فقال له : إنما أردتَ أن أقتله لتقتلني ، هذا عمك حيّ سوى ، قال ائتنا به ، فأتاه به ، قال : يدخل حتى أرى رأيي . ثم انصرف الجمع .

وإذا خفقت هذه المؤامرة، أعمل المنصور فكره لينجح في مؤامرة أخرى، فدفع عبد الله بن على إلى أبي الأزهر المهلب بن أبي عيسى ، فلم يزل عنده محبوساً ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ، وأخذ معه جارية له ، فبدأ بعبدالله فخنقه حتى مات ، ثم مده على الفراش ، ثم أخذ الجارية ليخنقها ، فقالت : يا عبدالله ، قِتلةً غير هذه ، فكان أبو الأزهر يقول : ماجزعت لأحد قتلته غيرها ، ثم وضعها بعد أن خنقها على الفراش بجانب عبدالله ، وأدخلت يده تحت جنبها ، ويدها تحت جنبه كالمعتنقين ، ثم أحضر القاضي ابن علام وغيره فنظروا إلى عبدالله والجارية على تلك الحال فاستحقا بذلك الرجم ، فأمر بالبيت فهدم عليهما [1] .

وقيل في قتله : إن المنصور جعله في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه فمات [2] .

وهكذا قضى عبدالله . لم يغن عنه حسبه ولا نسبه ، ولا جهاده لتكوين الدولة ، ولا وقوفه في وجه مروان وأمام جيوش الأمويين ، ولا كتاب الأمان المُحْكمَ ، ومن العجيب أن هذه السنوات الطويلة بين هزيمة عبدالله سنة ١٣٦هـ وبين مقتله سنة ١٤٧هـ كرواية ابن الأثير ، أو سنة ١٤٩هـ كرواية الطبري ، لم تستطع أن تخفف من حنق المنصور عليه ، أو بغضه له ، وحق

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٤٤

(٢) ابن الأثير : ٥ : ٢١٦

للإنسان أن يتساءل : ما كان ضرّ المنصور لو عفا عنه بعد أن تقلمت أظفاره، كما عفا المأمون عن ابراهيم بن المهدى ، والفضل بن الربيع [1] .

أبو مسلم الخراسانى :

يقترن اسم أبى مسلم الخراسانى بالانتصارات التى أحرزها العباسيون ، أو قل : يقترن اسمه بدولة العباسيين ، ومن الحق أن نوضح أنه حين كان بنو العباس يستمتعون بهدوء الحميمة ، وصفاء العيش فيها كان أبو مسلم يحمل العبء كله فى خراسان ، لقد زوده ابراهيم الإمام حين أرسله إلى خراسان بعض النصائح وبعث له براية النصر ، ولكنه لم يزوده بالمال ، ولم يرسل له فيالق الجنود ، بل ترك الأمر إلى أبى مسلم ، ليجمع حوله الجند ، وتكاليف الكفاح .

وكانت فى أبى مسلم ملامح النجابة ، وقوة العزم ، والنبوغ النادر ، وكل هذا لم يفارقه قط طيلة المدة التى لمع فيها اسمه ، وكان اسم أبى مسلم معروفاً فى العالم الاسلامى بأسره ، فى المدة بين ١٢٨ و١٣٢ هـ حينما كان إبراهيم الإمام وأبو العباس السفاح والمنصور لا يعرفهم إلا خاصة ذويهم فى الحميمة ، وبقى أبو مسلم بعد سنة ١٣٢ هـ الدرع الواقى للدولة الجديدة ، فهو يحبط كل مؤامرة تثور فى وجهها ، وهو يرسل الجيوش والقواد لتحاصر ابن هبيرة ، وتحارب عبد الله بن على ويُلْقَى به كلما حزب أمر ، أو هبت عاصفة .

فالفتك بأبى مسلم بعد هذا ، وبدون جريرة تستأهله ، أمر لا يقره الاسلام الحنيف ، ولا تجيزه شرعة الأخلاق إن أجازته شرعة السياسة ؛ ولنعد إلى المسألة بشئ من التفصيل :

(١) إقرأ عن هذا الموضوع غير المراجع السابقة : الفخرى : ص ١٤٤ وما بعدها ، وابن خلدون : العبر ٣ : ١٨٥

طفولة أبي مسلم قد اختلفت فيها الآراء (١). ولعل من أوضحها أنه كان مولى لبكر بن ماهان الذى سبق الحديث عنه ، وعن بكر تلقى أبو مسلم أصول التشيع ، ثم اتصل بمحمد بن على سنة ١٢٥ هـ ثم بابنه إبراهيم ، وكانت تظهر عليه مخايل النجابة ، وقوة العزم ، ونبوغ الشباب ، وكانت الشيعة بخراسان فى حاجة إلى مثله ليشرعوا فى العمل ، فاختاره إبراهيم لتلك المهمة ، وأرسله إلى خراسان وأوصاه (٢).

ونزل أبو مسلم خراسان ليجد نفسه أمام بطل من أبطال العرب ، هو نصر بن سيار ، ومعه الجند والمال ولكن أبا مسلم أعمل الحيلة على النحو الذى سبق إيضاحه ، حتى كتب له النجاح ، ودانت له خراسان ، وزحفت جيوش أبي مسلم تتبع فلول الأمويين ، وتهاجم العراق ؛ حتى كتب لها النصر هنا ، كما كتب لها هناك .

وكان أبو مسلم غيوراً على الدعوة مخلصا لها الإخلاص كله ، حتى لقد دبر قتل أبي سلمة الخلال حينما اتهم هذا بالميل للعلويين ، مع ما بين الاثنين من صلة الصداقة والرحم (٣) وحينما اتهم سليمان بن كثير بأنه قال لأحد العلويين : « إذا شئتم فادعونا إلى ما تريدون » ، لم يتردد أبو مسلم أن يستدعى سليمان ، ويسأله : أتحفظ قول الإمام لى « ومن اتهمته فاقتله » ؟ فأجاب سليمان : نعم . قال أبو مسلم : فإنى أتهمك . قال سليمان : أنشدك الله ، فأجاب : لا تناشدنى ، فإنك منطوٍ على غش الإمام ؛ وقتَلَه (٤) .

---

(١) انظر فى ذلك ابن خلكان ١ : ٢٨٠ — ٢٨١

(٢) الخضرى . محاضرات تاريخ الدولة العباسية ص ٢٨

(٣) كان أبو سلمة صهر بكر بن ماهان ، وكان أبو مسلم مولى بكر .

(٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ٢ : ١٦١

وهكذا كان موقف أبي مسلم من الدعوة ومن العباسيين ، لا يكاد الانسان يجد فيه شيئا من المروق أو التمرد ، وكل ما يمكن استنباطه هو أن أبا مسلم كان مسرورا بالنصر الذى أحرزه ، فبدا منه شيء من الاغتباط أو التيه ، وأن الخلفاء العباسيين كانوا يخشون أن ينقلب عليهم أبو مسلم ، والعباسيون أعرف الناس بقدرته وشجاعته وبراعته ، وبخاصة بعد أن أصبح معه المال والرجال . وكان المنصور أكثر العباسيين حقداً على أبي مسلم ، وكراهيةً له ، أما أسباب هذه الكراهية ، ودواعى ذلك الحقد ، فلا شيء فيما أظن سوى التنافس وخوف المروق . سأل أبو جعفر سَلْم ابن قتيبة : ماترى فى أبي مسلم ؟ قال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »[1] ، قال المنصور : حسبك الله أبا أمية . لقد أودعتها أذنا واعية[2] .

وقد تزعم المنصور ـ منذ كان وليا للعهد ـ حركة خفية ترمى إلى الايقاع بأبي مسلم والفتك به[3] . وبخاصة بعد أن زار خراسان ، ورأى بنفسه نفوذ أبي مسلم هناك ، فعاد يقول للسفاح : لستَ بخليفة ما دام أبو مسلم حيا .[4] وفى سنة ١٣٦ هـ استأذن أبو مسلم السفاحَ فى القدوم عليه للحج ،

---

(١) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٢

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٩٣ . ابن خلكان ١ : ٢٨٢

(٣) ويبدو أنه من الأسباب التى دعت المنصور وهو ولى للعهد أن يبغض أبا مسلم ويكيد له ، أن المنصور كان يتوقع أن يجله أبو مسلم ويكبره إبان حياة السفاح ، ولكن أبامسلم كان يتجه بالإجلال والإكبار إلى الإمام فقط ، ويترفع بنفسه عن أن ينحنى لسواه ، وسترد فى هذا البحث أمثلة تؤيد هذا الاتجاه فى أبي مسلم وتزيد هنا مارواه ابن عبد ربه (العقد الفريد ١ : ٢٠) أن أبا مسلم دخل على السفاح وعنده المنصور ، فسلم على أبي العباس ، فقال له : ياأبا مسلم ، هذا أبو جعفر : فأجاب أبو مسلم : يا أمير المؤمنين . هذا موضع لا يؤدى فيه إلا حقك .

(٤) البداية والنهاية ١٠ : ٥٤

وكان منذ ولى خراسان لم يفارقها ، فأذن له فى القدوم مع خمسمائة من الجند ، فكتب إليه أبو مسلم : إنى قد وترت الناس ولست آمن على نفسى ؛ فكتب إليه أن : أقبل فى ألف ، فإنما أنت فى سلطان أهلك ودولتك ، وطريق مكة لا يحتمل العسكر ، وأمر السفاحُ القوادَ وسائر الناس أن يتلقوه ، فجاء أبو مسلم ودخل على السفاح فأكرمه وعظمه (١) .

وقد انتهز المنصور فرصة بُعد أبي مسلم عن خراسان ووجوده فى عاصمة الخلافة فى جند قليلين ، فقال للسفاح : يا أمير المؤمنين ، أطعنى ، واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه لغدرة ، وحاول السفاح أن يثنى أخاه عن ذلك قائلا له : يا أخى قد عرفتَ بلاءه وما كان منه ، ولكن المنصور أجاب : إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنوراً لقام مقامه ، وبلغ ما بلغ فى هذه الدولة ، وخضع السفاح لهذا الضغط المتواصل ، فسأل المنصورَ : كيف تقتله ؟ فأجاب المنصور : إذا دخل عليك وحادثته ، وأقبل عليك . دخلتُ فتغفلتُه ، فضربته من خلفه ضربة أتيت بها على نفسه ؛ فسأل أبو العباس : كيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم ودنياهم ؟ فأجاب المنصور : لو علموا أنه قتل تفرقوا وذلوا ؛ ولكن التردد غلب على السفاح . فقال : عزمت عليك إلا كففت عن هذا .

وثابر المنصور على إصراره ، فهتف : أخاف والله إن لم تتغد به اليوم أن يتعشى بك غدا . فاستسلم أبو العباس وقال : دونكه فأنت أعلم . وبينما يستعد المنصور لهـــذا الأمر كان أبو العباس يراود نفسه ؛

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٧١ ، وابن خلدون ٣ : ١٧٩

فرجع عن موافقة المنصور، وبعث إليه ألا ينفذ الأمر الذى عزم عليه [1]

وإذا كانت هناك بقية من الوفاء فى نفس السفاح حالت دون الفتك بأبى مسلم ، فإن أبا مسلم لم يفلت من ضغط السفاح ، وتضييقه عليه ، ومحاولة الحد من نفوذه وسلطانه ، وقد رأينا كيف أنه حدد لأبى مسلم عدد الجند الذين يقدم فيهم ، ليقلل من جلال موكبه ، وليزيل عظمة ركبه ، وحينما استأذن أبو مسلم السفاح فى القدوم عليه للحج ، وأذن السفاح له ، أدرك الخليفة أن من الطبيعى أن يكون أبو مسلم أمير الحج فى ذلك العام ، ولكنه لم يرد أن يمنحه هذا الشرف ، فكتب إلى أخيه المنصور - وكان أميراً على الجزيرة وأرمينية واذربيجان - يقول : « إن أبا مسلم كتب إلىّ يستأذن فى الحج، وقد أذنت له ، وقد ظننت أنه إذا قدم فسيسألنى أن أوليه إقامة الحج للناس ، فاكتب لى تستأذننى فى الحج ، فإنك إذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك ، فكتب أبو جعفر يستأذن فى الحج ، فأذن له ، فوافى الأنبار .

واجتمع بالأنبار العدوان اللدودان فجرت محاولات أبي جعفر سالفة الذكر ، ولكنها لم تنجح ، وحينما وافى موسم الحج قال أبو العباس لأبى مسلم : لولا أن أبا جعفر حاج لوليتك الموسم ؛ ويهمس أبو مسلم معلقاً على هذا بقوله : أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا ؟ . [2]

ويذهب الفارسان العظيمان للحج ، ويتباريان فى الإعطاء والسخاء ، ويحتفى الحجيج بهذا أو ذاك . فتزيد الهوة بين الاثنين .

وبينما كان أبو جعفر وأبو مسلم فى الحجاز ، ورد الخبر بوفاة السفاح

---

(١) الطبرى : ٩ : ١٥٣ ، الإمامة والسياسة ٢ : ١٧٠ ، ابن الأثير ٥ : ١٧١
(٢) ابن الأثير ٥ : ١٧٥

وتولية المنصور الخلافة ، ويقف أبو مسلم من المنصور موقفاً رائعاً كان من الواجب أن يرجح كل ما عُدَّ عليه من هفوات ، وما يمكن أن يكون قد ارتكبه من ذنوب (١) .

يروى ابن الأثير (٢) أن المنصور حينما بلغته وفاة السفاح والبيعة له كتب إلى أبي مسلم يستدعيه ، فأقبل أبو مسلم إليه ، فأخبره المنصور الخبر ، فبكى أبو مسلم واسترجع ، ونظر إلى أبي جعفر وقد جزع جزعا شديداً ، فقال له : ما هذا الجزع وقد أتتك الخلافة ؟ قال أتخوف شرّ عمى عبد الله وشغبه علىّ ، فأجاب أبو مسلم : لا تخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه من خراسان ، وهم لا يعصوننى فسُرِّىَ عن أبي جعفر . وفي رواية أخرى لابن الأثير أيضاً (٣) : أن أبا مسلم عرف الخبر قبل المنصور فكتب إليه : عافاك الله ومتع بك ، إنه أتانى أمر قطعنى ، وبلغ منى مبلغاً لم يبلغه منى شيء قط ، وفاةُ أمير المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك ، ويحسن الخلافة عليك ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصفى نصيحة وحرصا على ما يسرك منى . ويسوق ابن الأثير أيضاً (٤) : وابن طباطبا (٥) : رواية تدل على استعداد أبي مسلم للفناء في خدمة المنصور ، وهاك نصها :

لما عاد أبو مسلم والمنصور من الحج قال أبو مسلم له : إن شئتَ جمعتُ

(١) سترد فيما بعد ذنوب أبي مسلم كما يعددها المنصور وهو يحاسبه قبيل الفتك به
(٢) الكامل في التاريخ ه : ١٧٢
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة
(٤) المرجع السابق ص ١٧٣
(٥) الفخرى ص ١٤٤

ثيابي في مِنطَقَتي وخَدَمتُك ، وإن شئتَ أتيتُ خراسان فأمددتك بالجنود ، وإن شئت سرتُ إلى حرب عبد الله ؛ فأمره المنصور بالمسير لحرب عبد الله

ولي أبو مسلم الأمر وزحف إلى عبد الله كما سبق القول . واستطاع أبو مسلم أن يثبّت العرش الذي شيده ، وأن ينتصر على أعداء الخليفة العباسيّ .

وما أن انتهت هذه العاصفة بفضل أبي مسلم حتى أسفر المنصور عن عدائه إليه ، ووجد الفرصة سانحة ؛ فقد مات السفاح الذي كان درعا له ، ثم إن أبا مسلم بعيد عن خراسان عرينه الحصين ، فصمم أبو جعفر ألا يدع أبا مسلم يعود إلى ذلك العرين ، ومرت الأحداث سراعا على النحو التالي :

لما ظفر أبو مسلم بعبد الله بن علي ، بعث أبو جعفر إليه مولاه أبا الخصيب ، ليكتب ما أصاب أبو مسلم من الأموال فهمّ أبو مسلم بقتله ، وقال : أمين على الدماء ، خائن في الأموال ؟ ثم كلّم أبو مسلم في أبي الخصيب . وقيل له : إنما هو رسول ، فخلّى سبيله ، فرجع إلى أبي جعفر فأخبره بما كان (١) .

ظهرت حينئذ الوحشة بين الاثنين ، وحرص المنصور على منعه من الرجوع إلى خراسان ، فكتب إليه كتاباً مع يقطين بن موسى يقول فيه : قد وليتك مصر والشام ، فهي خير لك من خراسان ، فوجّه إلى مصر من أحببت ، وأقم بالشام لتكون بقرب أمير المؤمنين ، فإن أحب لقاءك أتيته

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٧٥

من قريب . فلما أتاه هذا الكتاب غضب وقال : يوليني الشام ، وخراسان لي ؟ فكتب الرسول إلى أبي جعفر بذلك ، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف ، وخرج يريد خراسان ، فسار المنصور من الأنبار إلى المدائن ، وكتب إلى أبي مسلم فى المسير إليه ، فاستشار أبو مسلم بعض خواصه ، فأشاروا عليه ألا يذهب إلى المنصور بعد ما كان بينهما ، فكتب إليه أبو مسلم : « إنه لم يبق لأمير المؤمنين - أكرمه الله - عدو إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان : أنَّ أخوف ما يكون الوزراء ، إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ماوفيتَ ، حريُّون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضتُ ما أبرمتُ من عهدك ضناً بنفسى »[1] .

وهكذا أسفر العداء ووضح البغض ، وأدرك المنصور أن إفلات أبي مسلم منه ، ووصوله إلى خراسان ، سيكون صدعا للدولة ، وربما كان قضاءً عليها ؛ فأعمل فكره ، واتخذ كل الوسائل ليحول بين أبي مسلم وبين خراسان . والحقيقة أن هذا كان امتحاناً قاسياً مرَّ به أبو جعفر المنصور ، واستطاع بمواهبه أن ينجح فيه ، بعد أن استغل له كل السبل التى كانت بين يديه :

فأولا — أرسل إلى أبي مسلم كتابا يردّ به على كتابه السابق وفيه : قد فهمتُ كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكَهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فلمَ سوَّيت نفسك

(١) الطبرى ٩ : ١٦١ وابن الأثير ٥ : ١٧٤ — ١٧٥

بهم؟ وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ، وليس مع الشريطة التى اشترطتها سماع منك ولا طاعة ، وحمَّل إليك أميرُ المؤمنين عيسى بنَ موسى رسالةً لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يُفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبّه من الباب الذى فتحه عليك ».

وثانياً : طلب المنصور من عمه موسى بن على ومن حضر من بنى هاشم أن يكتبوا إلى أبى مسلم ، فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ، ويسألونه أن يتم ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذرونه عاقبة البغى ، ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور .

وثالثاً : لما ظهر للمنصور أن الملاينة أصبحت لا تفيد ، وعرف إصرار أبى مسلم على المسير إلى خراسان خوفاً من أبى جعفر ، ونزولا على إشارة ناصحيه وأصفيائه ، أرسل له أبا حميد المروروزى وقال له : كلم أبا مسلم بألين كلام ؛ أمّنه ، وأعلمه أنى رافعه ، وصانع به من الخير ما لم يصنعه أحد إن هو صلح ورجع ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : لستُ من العباس ، وإنى برىء من محمد ، إن مضيتَ مشاقا ولم تأتنى ، إن وكلتُ أمرَكَ إلى أحد سواى ، أو لم اقاتلك بنفسى ، ولو خضتَ البحر لخضته ، ولو اقتحمتَ النار لاقتحمتُها حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك . فذهب أبو حميد وألقى برسالة اللين واللطف واستعمل فيها أسلوباً رقيقاً عذباً وأفسح لأبى مسلم من الآمال ، ورسم له صورة رائعة للمستقبل ،

ولكن أبا مسلم لم يقبل ، فلما يئس أبو حميد ألقى بالرسالة الأخرى وحذر ، فاضطربت لها نفس أبي مسلم .

ورابعاً : أرسل أبو جعفر إلى أبي داود خليفة أبي مسلم بخراسان كتاباً يوليه هذه البقاع ، ليضمن انحيازه إلى الخلافة وكان في الكتاب : إن لك إمرة خراسان ما بقيت ، وقد سُرّ أبو داود بهذا المنصب الخطير فكتب إلى أبي مسلم : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله ، وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالفن إمامك ، ولا ترجعن إلا بإذنه .

وخامساً : أراد أبو مسلم أن يستوثق من الحالة لدى المنصور ، ومن هوى الهاشميين نحوه ، فأرسل أحد أصفيائه ، واسمه أبو إسحاق ، فلما قدم هذا أحسن بنو هاشم استقباله وأجازه المنصور ، وقال له : اصرفه عن وجهه ولك ولاية خراسان ، فرجع أبو إسحاق وخدع أبا مسلم ، وقال له : ما أنكرت منهم شيئاً ، رأيتهم معظمين لحقك ، يرون لك ما يرونه لأنفسهم وأشار عليه أن يرجع إلى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان [1] .

وهكذا سُدَّت كل الطرق في وجه أبي مسلم وجازت عليه الحيلة ، فلم يكن بد من رجوعه إلى المنصور .

وواصل أبو جعفر الحيلة ، وأبو مسلم في الطريق إليه ، خوفا من أن يتردد فيعود إلى التمرد ، فنرى الخليفة يوعز إلى أبي أيوب المورياني أن يرسل إلى أبي مسلم من يخبره أن أمير المؤمنين قد عزم على أن يوليه ماوراء بابه ، ويريح نفسه ، ويتودع ، ويبلغه هذا لا على أنه رسالة ، وإنما على أنه شيء عرفه فسارع من نفسه ليبلغه ، طمعا في أن يكافئه على هذه البشرى

(١) الطبرى ٩ : ١٦١ وما بعدها ، وابن الأثير ٥ : ١٧٦ — ١٧٧

عندما تصير له الأمور .[1] وحين اقترب أبو مسلم من الأنبار نجد المنصور يأمر الناس بتلقيه والاحتفاء به ، فيتلقاه بنو هاشم وعيون الناس مرحبين مستبشرين[2] .

ووصل أبو مسلم ، ودخل على المنصور فاستقبله هذا استقبالا حسنا ، وقبّل أبو مسلم يده ، وجالسه ساعة ، ثم أمره المنصور أن ينصرف ليروّح عن نفسه ، ويدخل الحمام ويستريح .

والآن . . وقد تمكن المنصور من أبي مسلم كان من الممكن أن يفتك به بصور شتى . ولكن المنصور سلك طريقاً آخر جعل للفتك بأبي مسلم لونا خاصا فى التاريخ ؛ فقد استدعى المنصور أبا مسلم فى اليوم التالى لوصوله ، وأجرى له محاكمة ، أهملها بعض المؤرخين وذكرها بعضهم ، ولكن أحداً على العموم لم يبرز خطرها ، ولم يبين أهميتها . وتمتاز هذه المحاكمة بشيئين هامين :

أولهما : أن الخصم فيها كان وحده الحكم .

ثانيهما : أن الحكم كان قد حُدِّد قبل بدء المحاكمة ، فإن المنصور كان قد دعا عثمان بن نهيك . وأربعة من الحرس ، منهم شبيب بن رواح ، وحرب بن قيس ، وأجلسهم خلف الرواق ، وأمرهم بالدخول ، وقتل أبي مسلم إذا صفق بيديه .

وجرت المحاكمة ، وكشف القناع عن تهم أبي مسلم على النحو التالى :

المنصور : أخبرنى عن سيفين لعبد الله بن علىّ أصبتهما .

---

(١) الجهشيارى ص ١١٢

(٢) ابن الأثير ٥ : ١٧٧ .

المتهم : هذا أحدهما، وانتضاه أبو مسلم، وناوله للمنصور فقلّبه وهزه، ثم وضعه تحت فراشه.

المنصور: كتبت إلى السفاح تنهاه عن الموات، كأنك أردت أن تعلمنا الدين.

المتهم : ظننتُ أنه لا يحل، فلما أتانى كتابه اقتديت برأيه.

المنصور : أخبرنى عن تقدمك إياى بطريق مكة.

المتهم : كرهت اجتماعنا على الماء. فيضر ذلك بالناس.

المنصور : فجارية عبد الله بن على، أردتَ أن تتخذها لنفسك ؟.

المتهم : لا، إنما وكلت بها من يحفظها.

المنصور : فمراغمتك، ومسيرك إلى خراسان ؟

المتهم : خشيت منك، فقلت آتى خراسان، وأكتب بعذرى، فأذهب ما فى نفسك.

المنصور : فالمال الذى جمعته بحرّان ؟

المتهم : أنفقته فى الجند تقوية لكم.

المنصور : ألستَ الكاتب إلى تبدأ بنفسك ؟ وتخطب آسية بنت على ؟ وتزعم أنك ابن سليط بن عبدالله بن عباس ؟. لقد ارتقيتَ - لا أم لك - مرتقى صعبا. وما الذى دعاك إلى قتل سليمان بن كثير، مع أثره فى دعوتنا ؟

المتهم : أراد الخلاف فقتلته.

وضاق أبو مسلم بهذه التهم الصغيرة التى تتضاءل أمام كفاحه من أجل الدولة فقال : كيف يقال لى هذا بعد بلائى وما كان منى ؟

فأجاب المنصور : يا ابن الخبيثة، لو كانت أمة مكانك لأغنَتْ، إنما

ذلك بدولتنا وريحنا . فأقبل أبو مسلم يقبّل يد الخليفة ويعتذر ، ولكن المنصور ازداد غضبا ، فكبر ذلك على أبى مسلم وصاح :

دع هذا فإنى أصبحت لا أخاف إلا الله .

فشتمه المنصور ، وصفق بيديه فخرج الكمين وأخذوه بسيوفهم حتى قتلوه ولفوه بالبساط وكان ذلك فى شعبان سنة ١٣٧هـ وخرج الوزير فصرف الناس وقال : الأمير قائل عند أمير المؤمنين ؛ فانصرفوا وأمر لهم بالجوائز ، ودخل عيسى بن موسى فسأل عن أبى مسلم . فقال المنصور : كان هنا . فأخذ عيسى يثنى على أبى مسلم وبلائه وطاعته فقال المنصور : والله ما أعلم على وجه الأرض عدوا أعدى لكم منه ، هو ذا فى البساط ، فاسترجع عيسى ، فأنكر عليه المنصور وقال : وهل كان لكم ملك معه ؟

ومما قاله المنصور والسيوف تعتور أبا مسلم :

زعمت أن الدَّين لا ينقضى ... فاستوف بالكيل أبا مجرم
سُقيتَ كأسا كنت تَسْقِى بها ... أمرّ فى الحلق من العلقم (١)

ومما قاله أبو دلامة فى ذلك :

أبا مسلم خوفتنى القتل فانتحى ... عليك بما خوفتنى الأسد الورد
أبا مسلم ما غير الله نعمة ... على عبده حتى يغيرها العبد (٢)

وهكذا خفت ذلك الصوت الذى طالما أرعد . وانكبت ذلك الأسد

---

(١) المسعودى . مروج الذهب ٢ : ٢٣٥ وما بعدها ، وابن الأثير ٥ : ١٧٧ ـ ١٧٨ ، وابن خلدون . العبر ٣ : ١٨٣ ـ ١٨٤ .

(٢) الأغانى ٩ : ١١٥

المصور الذى طالما أخاف ، ومن العجيب أن يُقتَل أبو مسلم المنتصر الظافر قبل أن يقتل عبدالله بن على المغلوب المنهزم ، ولكنها الدنيا ، لا تسير بمقياس المنطق فى أغلب الأحيان ، ولله فى خلقه شئون .

عبد الله بن المقفع :

يقول الدكتور عبداللطيف حمزة فى كتابه « ابن المقفع »[1] : « إن حياة أبى جعفر المنصور - وبخاصة الجانب الخفى منها - تدل دلالة واضحة على نزعته ، وتوضح للمؤرخين بجلاء كيف أصبحت الخلافة على أيدى العباسيين ملكا يستهان فيه بواجبات الدين والقرابه والأخلاق معاً . ولا ينظر فيه إلا للمطامع المادية والأهواء السياسية ليس غير . » .

والقضاء على ابن المقفع والفتك به شىء له جانب خاص من الخطر ، ذلك لأنه قطع لتيار من الثقافة الرفيعة ، وقضاء على قبس من النور الوهاج ، وقد عبر ابن المقفع عن هذا المعنى فى مقطوعة أدبية رائعة قذف بها فى وجه قاتله فقال : والله إنك لتقتلنى ، فتقتل بقتلى ألف نفس ، ولو قُتل مائة مثلك ما وفوا بواحد ، ثم أنشد :

إذا ما مات مثلى مات شخص ... يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدرى ... بموتك لا الصغير ولا الكبير[2]

ومات ابن المقفع غدراً كما سيأتى بيانه ، ولكن الغدر بهذا الرجل حدثٌ جليل ؛ لأنه كان مثالا فى الوفاء ، فمن المؤلم أن تكون نهاية هذا

---

(١) ص ٢٣٣
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١٠ .

الوفى الأمين ، غدراً وخيـــانة . وقد حدثنا الجهشيارى عن وفاء ذلك الرجل فقال :

طُلِبَ عبدُ الحميد بن يحيى كاتبُ مروان بن محمد عقب قتل هذا الخليفة ، وكان عبد الحميد صديقاً لابن المقفع . ففاجأهما الطلب ، وهما معاً . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا . خوفا من أن يُنال صاحبه بمكروه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا إلى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا . فإن فىّ علامات ، فوكّلوا بنا بعضكم ، ويمضى بعضٌ يذكر تلك العلامات لمن وجّه بكم ، ففُعل ذلك ، وأخذ عبد الحميد[1]

وكان بين ابن المقفع وبين عمارة بن حمزة مودة ، فأنكر أبو جعفر على عمارة فى وقت من الأوقات شيئاً ونقله الى الكوفة ، وكان ابن المقفع إذ ذاك بها . فكان يأتيه فيزوره ،فبينما هو ذات يوم عنده ، ورَدَ على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وأن ضيعته لاتصلح إن ملكها غيره ، وأن كلا من الضيعتين تساوى ثلاثين ألف درهم ، وإنه إن لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعته ، فقرأ عمارة الكتاب وقال: نحن مع حالنا فى الاضاقة والإملاق الى البيع أحوج ، وكتب إلى وكيله ببيع ضيعته والانصراف إليه ، وسمع ابن المقفع الكلام ، وانصرف إلى منزله ، ومن هناك أرسل سُفْتَجة[2] إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم . وكتب إليه على لسان عمارة : إنى قد كنت كتبت اليك ببيع ضيعتى ، ثم حضرنى مال،

(١) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

(٢) السفتجة : أن يعطى مالا لآخر ، وللآخر مال فى بلد المعطى فيوفيه إياه ثم . كما فى القاموس المحيط ١ : ١٩٤ .

وقد أنفذت إليك سُفْتَجة ، فابتع الضيعة المجاورة ، ولا تبع ضيعتى ، وأقم بمكانك ، وأنفذ الكتاب بالابتياع إلىّ ، فورد الكتاب على الوكيل فنفّذ ما فيه ، وكتب إلى عمارة يذكر له أنه قد اشترى الضيعة المجاورة ، وأنه صارت له ضيعة نفيسة ، فلما قرأ عمارة الكتاب أكثر التعجب ، ولم يعرف السبب ، ثم سأل عمن حضر عند ورود كتاب الوكيل ، فقيل له : ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدّثا ، قال عمارة : بعثتَ بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل ، وكنا إليها ها هنا أحوج . قال : فإن عندنا فضلا ، وبعث إليه بثلاثين ألف أخرى .[1]

ولكن خلق الوفاء النادر لم يغن عن ابن المقفع شيئا ، بل غدر به واغتيل ، فلماذا ؟ ثم إن ابن المقفع رجل أديب . ليست له أطماع سياسية يخشى منها على كيان الدولة ، كما كان يخشى على الدولة من أبى سلمة ، أو ابن هبيرة ، أو أبى مسلم الخراسانى . ومن هنا يتساءل الباحثون - دون جواب شاف - عن السبب الذى حدا بتدبير مؤامرة اغتيال هذا الأديب الكبير ، ومن هنا يحاول الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه عن ابن المقفع[2] أن يتلمس العلة التى دعت للفتك بهذا الرجل ، ويميل ، أو على حد تعبيره « يزعم أن الزندقة كانت من أسباب قتل الرجل ، بل كانت السبب الذى تذرع به المنصور فى قتله »[3] ولكن الدكتور حمزة يعود فيسأل : « وإذا كان ابن المقفع قتل لزندقته ، فلماذا يقتله المنصور غدرا ،

(١) المرجع السابق ١٠٩ — ١١٠
(٢) المرجع السابق من ص ٢٢٧ الى ص ٢٤٠
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٦

وبطريق المؤامرة، وكان يكفى أن يتذرع المنصور بهذه التهمة الكبرى فيقتله جهراً وبعلمٍ من الناس جميعا .؟، ولست أدرى كيف أصر حضرته على أن ابن المقفع قتل لزندقته مع أنه لم يجب عن السؤال الذى وضعه إلا بترجيح أن المنصور قتله صراحة، وهو بهذا يخالف جميع المصادر التى بأيدينا .

ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين أن رسالة الصحابة [1] وحدها كانت السبب فى قتل ابن المقفع [2] لأن ابن المقفع كتب هذه الرسالة للمنصور، ووضع نفسه فيها موضع الناقد وصاغ هذا النقد فى صورة بلاغية رائعة فيها إجلال واحترام ودعاء، ولكن النقد لم يَخْفَ على المنصور، لحنق عليه، إذ أن الحاكم المستبد يكره النصح ويضيق بالنقد مهما كان رقيقاً مهذباً، ويضيف أستاذنا الدكتور طه حسين أن هذه الرسالة كانت برنامج ثورة .

وأيا ما كانت الأسباب فإن السبب المباشر، وطريقة تنفيذ المؤامرة، يوضحها لنا كل من الجهشيارى، وابن خلكان وهاك خلاصة ذلك :

مر بنا أن ابن المقفع هو الذى أملى كتاب الأمان الذى أمضاه المنصور لعبدالله بن على، وقد سبق أن أوردنا نصه ،وظهر منه أن ابن المقفع وكّده توكيداً عظيما استجابة لرأى عيسى بن على وأخيه سليمان اللذين كانا يعرفان خلق الغدر فى ابن أخيهما المنصور، فأرادا أن يحتاطا لأخيهما عبدالله ابن على، وألا يدعا للمنصور فرصة للحنث بعهده ، فطلبا من ابن المقفع

---

(١) اقرأها بجمهرة رسائل العرب التى جمعها الاستاذ أحمد زكى صفوت جـ ٣ من ص ٢٥ الى ص ٤٧

(٢) انظر « من حديث الشعر والنثر » ص٤٧

مزيدا من الاحتراس والحيطة . وقد استجاب لهما ابن المقفع ، ولكنه - والحق يقال - ارتكب الشطط فى ذلك وأسفّ ، فما كان له أن يكتب على لسان الخليفة عبارة مثل « وإنْ أنا نلت عبد الله بن على بمكروه . . . . فأنا نفيٌّ من محمد بن على بن عبد الله ، ومولود لغير رشدة » [أى ولد سفاح وزنى] فهذا ومثله مما ورد فى الكتاب ، أثار حنق المنصور على الكاتب ، فسأل : منْ كتب هذا الأمان ؟ فقيل : ابن المقفع ، كاتب عيسى ابن على . فقال أبو جعفر : فما أحد يكفينيه ؟ [1] .

لقد حكم المنصور بالإعدام على ابن المقفع بهذه الجملة ، فقد كان حوله أعوان سوء ، يعرفون كيف تحقق أمثال هذه الرغبات ، وكان ضمن حاشية الخليفة مولاه أبو الخصيب مرزوق بن روقاء الذى كان يعرف أن سفيان بن معاوية والى البصرة يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة [2] ويتمنى لو تتاح له الفرصة لينتقم منه على استخفافه به واحتقاره له ، فكتب أبو الخصيب إلى والى البصرة - وكان ابن المقفع يقيم بها مع عيسى بن على - يخبره برغبة الخليفة ، فسُرَّ سفيان والى البصرة بهذا التفويض الذى يشفى غلته ، وظل ينتهز الفرصة لينفذ ما طلب منه ، وما يتوق له .

وحدث بعد ذلك أن عيسى بن على قال يوماً لابن المقفع : صر إلى سفيان فقل له كذا وكذا ؛ فقال له : وجّه معى إبراهيم بن جبلة فأنى لا آمن سفيان . فقال : كلا ، انطلق إليه ولا تخف ، فإنه لم يكن ليعرض لك وهو يعلم مكانك منى ، فقال ابن المقفع لابراهيم بن جبلة : انطلق بنا

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٤

(٢) انظر صوراً منها فى الجهشيارى ١٠٤ - ١٠٥ ، وابن خلكان ١ : ١٥٠

إلى سفيان نبلّغه رسالة الأمير . فضيا ، فجلسا على باب الديوان ، وبعثا إلى سفيان يطلبان الإذن بالدخول عليه ، فجاء الآذن وأذن لإبراهيم ابن جبلة فدخل ، ثم خرج فأذن لابن المقفع ، فلما دخل عدل به إلى مقصورة أخرى فيها شيرويه الملاديسى ، وعتّاب المحمدى ، فأخذاه فشداه كتافاً ، فقال إبراهيم لسفيان : ايذن لابن المقفع . فقال سفيان للآذن : إيذن له ، فخرج الآذن ثم رجع فقال : قد انصرف ؛ فقال سفيان لإبراهيم : هو أعظم كبراً من أن يقيم وقد أذنت لك قبله ، ما أشك فى أنه قد غضب . ثم قام سفيان وقال لإبراهيم : لا تبرح حتى أعود لك ؛ ودخل المقصورة التى فيها ابن المقفع . فقال له لما رآه : وقعتَ والله . فقال ابن المقفع : أنشُدُك الله . فقال سفيان : أمى مُغْتلمة كما كنت تقول ، إن لم أقتلك قِتْلَةً لم يقتل بها أحد قط . وأمر بتنّور فسُجِر ، ثم أمر فقُطعت أعضاؤه عضواً عضواً وألقى فى التنور ، وكان ابن المقفع وهو يُعذَّب ينشد قبل أن تزهق روحه البيتين اللذين سبق إيرادهما :

إذا ما مات مثلى مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدرى بموتك لا الصغير ولا الكبير

ولما فرغ سفيان من ابن المقفع ، رجع إلى إبراهيم فحدّثه ساعة ، ثم خرج إبراهيم ، فقال له غلام ابن المقفع : ما فعل مولاى ؟ قال : ما رأيته ؛ قال . بلى قد دخل بعدك ؛ فقال : ما رأيته ؛ ورام الرجوع إلى سفيان فحجب ، وانصرف ، وانصرف معه غلام ابن المقفع ، وهو يبكى ويصيح : قَتَلَ سفيانُ مولاى (1) .

---

(1) الوزراء والكتاب ١٠٥ ـ ١٠٧

ولما عرف عيسى بن على وسليمان أخوه أن ابن المقفع دخل دار سفيان سليما ولم يخرج منها، ثارا وتوعدا ، وخاصما سفيان إلى المنصور ، وأحضراه اليه مقيداً ، وحضر الشهود الذين شاهدوا ابنَ المقفع وقد دخل دار سفيان ولم يخرج ، فأقاموا الشهادة عند المنصور ، فقال لهم المنصور : أنا أنظر فى هذا الأمر، ثم قال لهم : أرأيتم إن قتلت سفيان به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت ، وأشار إلى باب خلفه ، وخاطبكم ؛ ما ترونى صانعاً بكم ؟ أأقتلكم بسفيان ؟ فرجعوا كلهم عن الشهادة ، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره ، وعلموا أنه قُتل برضا المنصور .(١)

الهادى :

ننتقل إلى مؤامرة عجيبة حدثت أيضاً فى قصور الخلفاء العباسيين ، وإن النفس لتوشك أن تنتفض عند ذكرها والتفكير فيها ؛ تلك هى إعداد الخيزران مؤامرة لقتل ابنها الهادى ، وأسارع فأقرر أن الانسان يحس أن الطبيعة الأنسانية تأبى أن ترتكب أمٌ هذا المنكر الجسيم مع ابنها ، ولهذا يتردد بعض المؤرخين المحدثين فى التسليم بهذه المؤامرة ، ولهم الحق فى التردد ، غير أن الطبيعة الانسانية أيضاً تقرر أن نفس الإنسان أعز عليه من كل نفس ، وأن حق الدفاع عن النفس مشروع .

فإذا جاز مايذكره بعض المؤرخين من أن الهادى حاول أن يسمَّ أمه، كان فى ذلك ما يرجح إمكان تدبير الخيزران مؤامرة للفتك بالهادى ، دفاعاً عن نفسها ، ورغبة فى استعادة نفوذها الذى فقدته بسبب صرامة

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٥٠

الهادى وشراسته ، ولنسق فيما يلى من المعلومات التاريخية مايلقى الضوء على هذه التيارات الخفية ، وهذه الدسائس التى وَجدَت فى قصر الخلافة فى ذلك العهد مرعى خصباً وجواً صالحا .

كان المهدى سمحاً ، رضىّ الخلق ، صفىّ النفس ، قطيع الخنا ، ضاحك السن ، قليل الأذى والبذاء [1] وكانت زوجته الخيزران امرأة قوية ، تحب النفوذ ، وتهوى السلطان ، وقد وجدت فى أخلاق المهدى ماوافق طبيعتها وشجعها على التمادى ، فكانت تأمر وتنهى ، وتشفع وتبرم وتنقُض . [2] ويقولُ Sayed Ameer Ali: [3] إن المهدى جعل لها السيادة عليه وعلى من فى بلاطه ، فازدحم قصرها بالأمراء والعظماء والطامعين فى المناصب وطلاب الحاجات .

ولما مات المهدى ، وتولى الهادى الخلافة ظنت المرأة أن سلطانها سيتسع ، ونفوذها سيمتد ، وتخيلتْ أن الابن سيكون أكثر استجابة لها من الزوج ، وحسبتْ أنها ستتغلب على ذلك الشاب الحدث ، وتطويه تحت جناحها أكثر مما فعلت مع أبيه ؛ ولكن الهادى كان يختلف اختلافا بينا عن المهدى ؛ لقد كان كما يقول الجاحظ [4] : « شكس الأخلاق ، صعب المرام قليل الاغضاء ، سيء الظن » . وكانت الغيرة من أبرز صفاته ، فقد حكى ابن الأثير [5] : ان المهدى مات والهادى بجرجان يحارب اهل طبرستان ،

---

(١) الجاحظ : التاج : ص ٣٥

(٢) الفخرى ص ١٦٧

(٣) A Short History of the Saracens p. 231.

(٤) التاج ص ٣٥

(٥) الكامل فى التاريخ ٦ : ٢٩

فشغب جند بغداد يطالبون بأرزاقهم ، فاستدعت الخيزران يحيى البرمكي والربيع بن يونس لتستشيرهما فيما يمكن تدبيره حتى يصل الخليفة الجديد ، فأما الربيع فدخل عليها ، واما يحيى فامتنع لما يعلم من غيرة الهادى ، وعمل على جمع المال وتهدئة الجند ، فلما علم الهادى بذلك كتب إلى الربيع يتهدده بالقتل ، وكتب إلى يحيى يشكره ، ولولا حيلة اشار بها يحيى على الربيع ، لكان من المحتمل ان يوقع الهادى بالربيع .

ولكن اولئك الذين منحوا حساسية مرهفة كحساسية يحيى بن خالد كانوا قليلين ، ومن اجل هذا بقى باب الخيزران كما كان من قبل ملجأ الوزراء ، والأمراء ، والعلماء ، والشعراء ، وطلاب الحاجات ، وكانت الخيزران تستبد بالأمور دون الهادى . وتسلك به مسلك المهدى ، حتى مضت اربعة اشهر كان الناس ينثالون إلى بابها خلالها ، وكانت المواكب تغدو وتروح إليها [1] .

واحتمل الهادى هذه الفترة بدافع البر بأمه ، ولكن المرأة تمادت ، واوشكت ان تنكر وجوده ، وكانت تبرم الأمر ، وتقدمه إليه ليوقعه ويمضيه فتيقظت شخصيته ، وتحركت نفسه ، ووجد ألا مناص من وقف هذا التيار الجارف ، ووضع حد لهذا العدوان الصارخ على مسئولياته وواجباته .

وبدأ الهادى مقاومته بتأجيل النظر فى طلباتها ، وعدم الاسراع فى تلبية رغباتها ؛ سألته مرة ان يولى خاله العطريف اليمن ؛ فوعدها بذلك ؛ ثم كتبت له يوماً رقعة تتنجز فيها امره ؛ فردّ إليها رسولها يقول لها : خيّريه بين اليمن وطلاق ابنته [زوجة الهادى] ، او المقام عليها دون ان يولىَّ اليمن .

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٣

فأيهما اختار فعلتُه ، فأخطأ الرسول فى فهم كلام الهادى ، وعاد للخيزران ليقول لها : يقول لك الخليفة : اختارى له ، فظنت انه يخيرها بين ولايات متعددة فاختارت ولاية اليمن ، واعادت الرسول بذلك ، فقال للهادى : اختارت ولاية اليمن ، فغضب الهادى ، وطلق ابنة خاله ، ولما وصل خبر الطلاق بيت الهادى ، ارتفع الصياح منه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : من دار بنت خالك ، وخُبّر ان الرسول اخطأ فى تبليغ الرسالة (١) .

ثم تقدمت الخيزران بمطلب جديد ، واخطأها فى هذه المرة التوفيق ايضاً ، وبلغ طغيانها القمة ، فقد بدا للهادى : اولا - انها لا ترجو ولكنها تأمر ، وتضمن النفاذ سلفا لصاحب الحاجة ، وثانيا - انها لا تكتفى بالتوسط فى الأمور العادية ، ولكنها تبرم الرأى ايضاً فى عظائم الأمور ، وثالثاً - ظهر للهادى أن صلتها ليست مقصورة على اخيها الغطريف وامثاله من محارمها ، بل تمتد إلى غيرهم من القادة والرؤساء ؛ فتحركت فيه النخوة والغيرة ، وأصر على ان يثبت شخصيته ، ويسيطر وحدة على زمام الأمر ، فبدأت العاصفة ، ولنسمع إلى المسعودى ، وابن الأثير ينقلان لنا هذه الرواية :

كلمت الخيزران ابنها الهادى ذات يوم فى امر ، فلم يجد إلى إجابتها سبيلا ، فاعتل عليها بعلة ، فقالت : لابد من إجابتى ؛ قال : لا افعل ؛ قالت: فإنى قد ضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك ؛ فغضب الهادى ، وقال : ويلٌ لابن الفاعلة ، قد علمت انه صاحبها ، لا قضيتها لك ؛ قالت : إذاً والله لا اسألك حاجة ابداً ؛ قال : إذاً والله لا ابالى ، وقامت مغضَبة . فقال :

---

(١) الاغانى ١٣ : ١٢ - ١٣ والطبرى ١٠ : ٤٣

مكانك ، فاستوعي كلامي ، والله - وإلا كنت نفياً من قرابتي من رسول الله (ص) - لئن بلغني أنه وقف ببابك احد من قوادي وخاصتي ، لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك ؟ اما لك مغزل يشغلك ؟ او مصحف يذكّرك ؟ او بيت يصونك ؟ إياك وإياك . لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي . فانصرفت وهي لا تعقل ماتطأ ، فلم تنطق بحلو ولا مر بعدها . ثم إنه قال لأصحابه : أيما خير ؛ أنا وأمي أم أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك ؛ قال : فأيكم يحب ان يتحدث الرجال بخبر امه ، فيقال : فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ؟ قالوا : لا نحب ذلك ؛ قال : فما بالكم تأتون امي فتتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها [1].

وهكذا تأزمت الأمور بين الخليفة وامه ، واحست الخيزران بفراغ كبير بعد ان جفاها الناس ، ولم يعد احد يستطيع ان يسعى إليها ، فنقمت على ابنها ذلك وكرهته ، ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل جدّت امور اخرى تفاقم الخلف بسببها ، وعظمت الهوة ؛ فالهادي يصر على خلع الرشيد ، والرشيد هو الأمل الباقي للخيزران ، لأنه الابن الوديع السمح ، الذي يُرجى ان يكون صورة من ابيه ، تستعيد الخيزران في ظله نفوذها ومكانتها الذابلة [2] ، وامتلأ القصر في ظل هذه الحركات بالجواسيس ؛ فللهادي عيون على امه من خدمها ، وللخيزران على ابنها عيون من خدمه ، وتعرف الخيزران من عيونها ان الهادي يتسقط اخبارها ، ويحوطها بحصار قوي ، وتقع فريسة للانفعالات المختلفة والعواطف المتباينة ، فمرة تثور نفسها ،

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ٢ : ٢٠٧ — ٢٠٨ وابن الاثير ٦ : ٣٣ — ٣٤

(٢) الفخري ص ١٦٨

ويتجلى خوفها على الرشيد فتتمنى لو تنتقم من الهادى وتزيله من الوجود ، ولكن كيف ، وهو ابنها وقطعة من كبدها ، فهل تقوى على ذلك ؟

ويعرف الهادى ان امه تؤلب الرشيد عليه ، وتحثه على الا يخلع نفسه ، فيتزايد حنقه عليها . ويصر على ان يفعل شيئاً ، فيرسل لها طعاماً مسموماً ، ولكنها تختبر هذا الطعام قبل ان تتناوله فتلقى بعضاً منه إلى كلب ، فيترنح ، ويهوى لساعته ، ويسألها الهادى عن الطعام ، فتقول : كان طعاماً طيباً ؛ ولكنه يدرك انها لم تأكل منه فيقول : ما اكلتِ منه ، ولو فعلتِ لاسترحتُ منك ، متى أفلح خليفة له أم ؟ (١) .

وتصبح المسألة بالنسبة للخيزران دفاعا عن النفس ، ويتحقق لها أن الهادى عاق ، وأن من الممكن أن تضع مكانه ابناً آخر عرف بالبر والرحمة والحنان . فيقال : إنها أوعزت إلى بعض الجوارى فقتلنه بالجلوس على وجهه وهو مريض ، وظللن يكتمن أنفاسه حتى زهقت روحه ، فأرسلت إلى يحيى بن خالد تعلمه بموته (٢) .

الفضل بن سهل :

نحن الآن أمام مؤامرة دبرها المأمون ، ومن الحق أن نقرر أن المأمون كان لا يحب سفك الدماء ، وكان يكره الغدر ، ويميل إلى العفو والتسامح ، وأنه إن كان قد لجأ إلى التآمر للتخلص من بعض الأفراد ، فإن ظروفاً قاهرة كانت تدفعه ، ومشكلات عظيمة كانت تؤثر فيه ، فهو لم

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٣٤

(٢) المرجع السابق ، وابن خلدون ٣ : ٢١٧ ، والفخرى ص ١٦٨

يرتكب هذا العمل ليشفى به غلة ، أو يرضى نفساً متعطشة للدم ، لا ، ولكن المأمون ارتكبه ليسكن به فتنة ، ويهدىء ثورة ، فلم يكن القتل هنا للتشفى والانتقام ، وإنما كان للضرورة الملحة التى تحتمه .

وظاهرة أخرى بدت فى أعمال الفتك التى أوعز بها المأمون ، فان فتكه كان مقصوراً على من يخشى أذاه لايتعداه إلى أهله أو إلى مصادرة أمواله .

وظاهرة ثالثة كانت تلازم المأمون فى هذا الشأن كذلك ، وهى أنه كان يبدو وكأن لايدله فيما حدث ، ولاتدبير منه ، فهو لايجاهر به بعد فعله ، ثم كان يبذل أقصى الجهد ليخفف وقع المصاب عن أهل ضحيته وذويه .

فالفرق كبير جداً بين ضحايا المأمون ، وضحايا المنصور ، لقد كان المأمون يرعى القيم الأخلاقية ، ويحترم النفس البشرية ، أما المنصور فكثيرا ما أهدر هذه القيم ، وازدرى تلك النفس ، وقد كان من الممكن أن ندافع عن المنصور لو أنه ارتكب هـــذه الأحداث قاصداً تثبيت الدولة ، أو حراستها ، ولكنه قتل عبد الله بن على بعد أن تقلمت أظفاره وهدَّمه السجن وقتل ابن المقفع وما كان يحمل فى يده سيفاً يزعج ، ولا فى رأسه ثورة تخيف ، وإنما كان بين بنانه قلم يسطر الحكمة ، وفى عقله نور يهدى السبيل ؛ فاستحق المنصور بهذا لوم التاريخ ، والتمس العذر للمأمون فيما دبر من مؤامرات .

ولنعد إذاً إلى الكلام عن الفضل بن سهل :

من الممكن أن نقرر بادىء ذى بدء أن دولة المأمون منحة قدمها له الفضل بن سهل ، وأنه لولا الفضل لما كانت دولة المأمون ، ولعُلب هذا على أمره ؛ وقد كان الفضل بن سهل - منذ عهد الرشيد - يكتب للمأمون ،

ويتولى أمره كله ، ومنذ ذلك الحين أخذ الفضل يرى ويدبر ليضمن للمأمون حقه ، وليحميه من أن يطغى عليه سلطان أو يستبد به مستبد ، وأول لبنة وضعها الفضل ليشيّد عليها دولة المأمون كانت فى حياة الرشيد ، فإن خراسان لما انتقضت على الرشيد بقيادة رافع بن الليث بن نصر بن سيار ، وعجزت جيوش الخلافة عن ردها إلى الطاعة . رأى الرشيد أن يخرج لها بنفسه فغادر الرَّقَّة [وكان الرشيد انتقل إليها من بغداد [1]] واستخلف عليها ابنه القاسم ، وفى طريقه إلى خراسان مرّ ببغداد فاستخلف عليها ابنه محمدا الأمين ، وأمر المأمون بالبقاء معه ببغداد ، وهنا بدت حنكة الفضل ، فقد قال للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير مأمون إنْ يحدث عليه حادث أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة ، وأخواله من بنى هاشم ؛ فسأله المأمون إشخاصه معه ، وألح ؛ فأجابه بعد امتناع . [2]

وقد بدأ المأمون بهذا يفلت من استبداد الأمين ، وسطوته . وسار المأمون مع الرشيد فى طريقهما إلى خراسان ، غير أن العلة استفحلت على الرشيد فى أثناء رحلته ، فاضطر إلى التخلف بالطريق ، وأمر المأمون

---

(١) يعلل الرشيد انتقاله من بغداد إلى الرقة بقوله : والله إنى لاطوى مدينة ما وضع بشرق ولا غرب مدينة أيمن ولا أيسر منها ، وانها لدار مملكة بنى العباس ، مابقوا وحافظوا عليها ، ولا رأى أحد من آبائى سوءاً ولا نكبة فيها ، ولنعم الدار هى ، ولكنى أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى ، والحب لشجرة اللعنة بنى أمية . مع مافيها من المارقة ، والمتلصصة ، ومخيفى السبيل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد (ابن الاثير . ٦ : ٦٣)

(٢) الجهشيارى ص ٢٦٦ وابن الاثير ٦ : ٦٨

أن يأخذ بعض الجند ويواصل سيره إلى خراسان ففعل، وصحب معه كاتبه ومدبر أمره الفضل بن سهل، أما الرشيد فقد حط رحاله في طوس، وأحس بالمرض يزداد فجدد العهد لأبنائه الثلاثة، وأوصى بما معه من مال وعتاد لابنه المأمون، كما أوصى أن يلحق بالمأمون ما تبقى بطوس من القواد والجنود؛ ولم يطل به المقام فلفظ أنفاسه الأخيرة بطوس ودفن بها .

وتوالت بعد ذلك أيادي الفضل بن سهل على المأمون، ولم يدخر وسعاً في نصحه والإخلاص إليه :

عند ما حنث قواد الرشيد وجنوده بالعهد، ورجعوا من طوس إلى بغداد، همّ المأمون بأن يلحقهم ببعض جيشه ليردهم، ولكن الفضل ابن سهل قال له : إن فعلت ذلك لم آمن أن يقبضوا عليك ويجعلوك هدية الى محمد . [1] .

ورأى الفضل أن الهوة تتسع بين الأمين والمأمون، فأخذ يعد المأمون للأمر العظيم، ويمهد له الطريق إلى الخلافة، فحببه إلى الناس، وحبب اليه العدالة والانصاف، وقال له : قد قرأتَ القرآن، وفهمتَ أمر الدين، والرأيُ أن تجمع الفقهاء، وتدعوهم إلى الحق والعمل به، وإحياء السنة وأن تقعد على اللبّود، وتواصل النظر في المظالم، وتكرم القواد والرؤساء وأبناء الملوك، ففعل ذلك، وحط عن خراسان ربع الخراج [2] .

وبهذا أحبه أهل خراسان وأقبلوا عليه، وكانوا يقولون : ابن أختنا،

---

(١) الجهشياري : ٢٧٧ وابن الاثير ٦ : ٧٤ .

(٢) الجهشياري ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

وابن عم رسول الله ، ولما رأى رافع بن الليث سيرة المأمون انقاد له ، ودخل فى طاعته سنة ١٩٤ ﻫ فأعطاه الأمان ، فصار اليه وأكرمه وخصَّ به [١] .

ولما اشتد الخلف بين الأمين والمأمون من أجل ولاية العهد خاف المأمون عاقبة ذلك فرقاً وعزم على الاجابة إلى خلع نفسه ، ومبايعة موسى بن الأمين ، فخلا به الفضل وشجعه على الامتناع وضمن له الخلافة ، وقال له : هى فى عهدتى [٢] وكان مما قاله الفضل للمأمون : إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها ايام المنصور ، فخرج عليه المقنع وهو يدعى الربوبية ، وقيل طلب بدم أبى مسلم ، فضعضع العسكر بخروجه بخراسان ، وخرج بعده يوسف البرم وهو كافر ، فتضعضعوا أيضاً له ، ثم أخبرنى أيها الأمير ، كيف رأيتَ الناس ببغداد عند ما ورد عليهم خبر رافع ؟ قال : رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً ؛ قال : فكيف بك وأنت نازل بين أخوالك وبيعتك فى أعناقهم كيف يكون اضطراب أهل بغداد ؟ اصبر وأنا أضمن لك الخلافة. قال المامون : قد فعلت ، وجعلت الأمر إليك [٣] .

وتأزمت الأمور بين الأخوين ، ولم يعد يفض الخلافَ إلا السلاحُ ، وحينئذ تظهر مهارة الفضل بن سهل ، فقد أوعز إلى رجال من عيون خراسان أن يكتبوا لعلى بن عيسى بن ماهان واليهم السابق الذى عزله الرشيد لطغيانه وجوره ، يؤكدون له أنه إن قاد جيوش الأمين فله منهم السمع والطاعة ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٩ .
(٢) الفخرى ص ١٨٩ .
(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٤

وإن جاءهم غيره قاوموه ، فأطلَعَ على بن عيسى الأمينَ على هذه الكتب ، ثم كان للفضل بن سهل عين عند الفضل بن الربيع ، فكتب ابن سهل إلى ذلك العين أن يُحسن لابن الربيع إيفاد على بن عيسى ويعلل ذلك بأن علياً أعرف بمسالك البلاد وحصونها ، وله صلة ببعض رجالها . ولما تحققت أمنية ابن سهل ، وعُيّن على بن عيسى قائداً لجيش الأمين ، أشاع ابن سهل بين اهل خراسان ان الطاغية فى طريقه إليهم ، وانهم إن لم يجدّوا فى قتاله ، استأنف فيهم تنكيله وتعذيبه ، فهرع القوم ليدافعوا عن انفسهم وحُرَمهم [1] .

اما الفضل بن سهل فقد اختار خيرة القواد لمحاربة جيوش الأمين ، اختار طاهر بن الحسين ، وهَرْثَمَةَ بن اعين ، وهما من صناديد القادة الذين لا يشق لهم غبار ، ثم هما صاحبا كياسة وبراعة فى إدارة الحروب وحسن الصلة بالجنود ، اختارهما الفضل وزودهما بالرجال والعتادوأرسلهما فكتب لهما النصر المؤزر ، وهزمت جيوش الأمين ، وحوصرت بغداد وسقطت ، وخر الخليفة اللاهى صريعاً ، وانتقلت الخلافة إلى المأمون [2] .

كل هذا جميل من الفضل بن سهل ، وكان المأمون أول المعترفين بأياديه وحسن تدبيره ، وما أن ظهرت للمأمون علامات نصره ، وبدأت جيوش الأمين تتراجع ، وتنهزم ، حتى أغدق المأمون على الفضل ومنّاه ، وعظم شأنه ، يحكى ابن الأثير [3] : أنه لما صح عند المأمون خبر قتل ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة قائدى الأمين ، أمر المأمون أن يخطب له ويخاطب

---

(١) انظر بن الاثير ٦ : ٧٩ وابن خلدون ٣ : ٢٣٣

(٢) انظرابن الاثير ٦ : ٧٩–٨١وابن خلكان ١ : ٤١٣والفخرى ١٨٨ ومابعدها.

(٣) الكامل فى التاريخ ٦ : ٨٥

بأمير المؤمنين ، ودعا الفضل بن سهل وعقد له على المشرق ، وجعل له عمالة ثلاثة ملايين من الدراهم ، وعقد له لواء على سنان ذى شعبتين ، ولقبه ذا الرياستين : رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج [1] .

وجعل المأمون للفضل لقب الإمارة مع لقب الوزارة ، وهو أول وزير يُجمع له اللقبان . [2]

وكتب له توقيعاً طويلا يدل على مدى إجلاله له ، واعترافه بفضله . وهاك نصه :

أغنيتَ يا فضل بنَ سهل بمعاونتك إياى على طاعة الله ، وإقامة سلطانى ، فرأيت أن أغنيك وأحببت أن أسبق إلى الكتابَ لك بخطى ، بما رأيته على نفسى ؛ وقد أقطعتك السّيب بأرض العراق ، عطاء لك ولعقبك ، لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتى ، ولما قمت به من حق الله وحقى ، فلم تأخذك فى لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد جعلتُ لك بعد ذلك مرتبة من يقول فى كل شىء فيُسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد مالزمتَ ما أمرتك به ، من العمل لله ولنبيه ، والقيام بصلاح دولة أنت ولىٌّ بقيامها ، وجعلت ذلك كله بشهادة الله ، وجعلته لك كفيلا على عهدى ، وكتبت بخطى سنة ١٧٦ هـ . [3]

وبلغ من إكرام المأمون له ، وتقريبه إليه أن عرض عليه أن يزوجه

---

(١) انظر كذلك الجهشيارى ٣٠٥ — ٣٠٦

(٢) الجهشيارى ص ٣٠٦

(٣) انظر الجهشيارى ص ٣٠٦

إحدى بناته على الرغم من عادة استهجان تزويج بنات الخلفاء من غير ذوى قرباهم ، وقد جهد المأمون فى إقناع الفضل ، ولكن الفضل استكثر هذا التكريم على نفسه . فشكر ، واعتذر .[1]

وسارت الأمور على هذا النحو من الحب والتعاطف بين الاثنين ، حتى قتل الأمين وانتهت الخلافة إلى المأمون ، وهنا يبدأ الانحراف ، ولكنه كان فى هذه المرة من جانب الوزير الذى أخذه الغرور بعد ذلك ، وكأنما خطر له أن يجعل هذا المُلْك مُلْكا له ، وأن يستعيد لخراسان سلطانها وسيادتها ، فمال إلى أن يجعل للمأمون الاسم ولنفسه القول والعمل ، وسلك طريقاً وعراً ، كان هو فاتحه ، وكان ضحيته .

وأول ما عنى به الفضل ان يمد سلطانه إلى بغداد عاصمة الدولة ، فان خضوعها له معناه سيطرته على شئون الخلافة كلها ، ولكن كيف له أن يستبد ببغداد وفيها البطلان الفاتحان طاهر وهَرثَمة ، ومن أجل ذلك نجده يسارع فيسعى بالإيقاع بطاهر لدى المأمون ، فإنه ما إن قَتَل طاهرٌ الأمينَ حتى دخل الفضل يقول للمأمون : ما فعل بنا طاهر ؟ سلّ علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيراً ، فبعث به عقيراً[2] .

وواصل الفضل جهده لإخضاع بغداد له ، ولإبعاد القائدين العظيمين عن العراق ، فأوعز إلى المأمون أن يولى الحسن بن سهل أخا الفضل كور الجبال والعراق والحجاز واليمن، فاستجاب المأمون وكتب إلى طاهر وهرثمة أن يسلما ما فى أيديهما إلى الحسن .[3]

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٧
(٢) الجهشيارى ص ٣٠٤
(٣) ابن الأثير ٦ : ١٠١

ولم يكتف الفضل بحرمان طاهر وهرثمة من الاستمتاع بثمار كفاحهما الطويل ، بل كتب إليهما ليشتبك كل منهما فى حرب جديدة ، فوجّه طاهراً لمحاربة نصر بن سيار بن شبث [1] ووجه هرثمة لمحاربة أبي السرايا ، واستمر يدس عليهما لدى المأمون . فقال عن طاهر : إنه غير جاد فى محاربة نصر ، وقال عن هرثمة : إنه هو الذى أوعز لأبى السرايا فى التمرد ، وكان أبو السرايا من أتباع هرثمة ثم خرج عليه مع بعض الجند لتأخر أجورهم ، وعلى الرغم من هذا الدس الذى قام به الفضل فإن النصر كان حليف القائدين العظيمين فى هذه المعارك الجديدة ، فقد قُتـــل أبو السرايا ، واستأمن نصر ، واستسلم للمأمون [2] .

وأدرك هرثمة ما يراد به ، وأدرك ان المأمون مغلوب على امره ، وان الأخبار تُحَرَّف عليه ، ولا تصله صحيحة ، فقرر ان يسير إلى المأمون ، فجاءته كتب الفضل فى الطريق بأن يرجع للشام ، فأبى وقال : لا ارجع حتى آتى امير المؤمنين ، وقرّر ان ينقل للمأمون مايدبره عليه الفضل بن سهل ، وما يكتم عنه من الأخبار ، والا يدع المأمون حتى يرده إلى بغداد ليتوسط ملكه ، فعلم الفضل بذلك ، فقال للمأمون : إن هرثمة قد اثقل عليك البلاد والعباد وجاء مشاقا مخالفاً ، وانه إن اطلق كان مفسدة لغيره ، فتغير قلب المأمون على هرثمة ، فلما بلغ هذا مرو خشى ان يُكتمَ قدومه عن المأمون فأمر بالطبول فدقت لكى يسمعها الخليفة ، فسمعها وقال : ما هذا ؟ فقال الفضل : هرثمة قد اقبل يرعد ويبرق ، فراد

---

(١) هو نصر بن شبيب كما يذكره ابن خلدون (٣ : ٢٤١)

(٢) انظر بن الأثير ٦ : ١٠١ وما بعدها ، وابن خلدون : العبر ٣ : ٢٤٢ وما بعدها

حنق المأمون عليه ، فلما قدم ادخله المأمون وصرخ فيه : وضعتَ ابا السرايا ليثور عليّ ، ومالأتَ اعدائى ؛ فرغب هرثمة ان يتكلم فلم يُقبل منه كلام ، وأمر به فضرب أنفه ، وسحب من بين يديه ، وسجن ، ثم دس الفضل اليه من قتله (١) .

وحسَّن الفضل بن سهل للمأمون أن يجعل على بن موسى الرضا ولى عهد المسلمين ، والخليفة من بعده ، فاستجاب المامون لذلك وأمر جنده بطرح السواد ولبس الثياب الخضر ، وكتب بذلك إلى الآفاق (٢) .

وقد فسرّ نعيم بن حازم هذا الصرف من الفضل بن سهل بقوله له : إنك إنما تريد ان تزيل الملك عن بنى العباس إلى ولد على ، ثم تحتال عليهم ، فتصير الملك كسرويا . (٣)

كان لهذه الأعمال التى أتى بها الفضل ، وبخاصة تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين صدى كبير فى العالم الإسلامى ، ولم يطق أهل بغداد صبراً على هذا العبث ، وخطر لكثير منهم أن يرحلوا إلى مرو ليخبروا المأمون بالحالة السيئة التى وصلت إليها الدولة ، والتى كانت نتيجة للسياسة العاشمة التى سار عليها الفضل ، ولكن هؤلاء خافوا ان يلاقوا نفس المآل الذى لاقاه هرثمة وهو يسعى لمثل هـــذا الهدف ، فاجتمع أهل بغداد ، وخلعوا المأمون ، وبايعوا ابراهيم بن المهدى بالخلافة ، ولم يتخلف احد

(١) ابن الاثير ٦ : ١٠٧ ، وابن خلدون ٣ : ٢٤٥
(٢) ابن لاثير ٦ : ١١١
(٣) الجهشيارى ص ٣١٣

من بنى هاشم عن مبايعته ، وبعد ان اخذ ابراهيم البيعة استطاع ان يسيطر على السواد والكوفة والمدائن وما حول ذلك [1] .

ولم يَنقل الفضل إلى المأمون شيئاً من هذا . وإنما موَّه عليه وكذبه ، وكان لايَدخل على المأمون إلا من وثق الفضل فيه ، ومن ثم بقيت الأخبار بمناى عن المأمون ، وكان على الرضا بمن يدخلون على المأمون فأخبره بما الناس فيه من فتنة وقتال منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل يستر عنه من اخبار ، وأخبره أن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون مسحور ، مجنون ، وانهم قد بايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فقال له المأمون : لم يبايعوه بالخلافة ، وإنما صيروه أميراً يقوم بأمرهم ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه فى هذا التبليغ ، وأن الحرب قائمة بين الحسن ابن سهل وإبراهيم . وقال للمأمون : إن الناس ينقمون عليك مكان الفضل والحسن منك ومكان بيعتك إلىَّ بولاية العهد ، فقال : ومن يعلم هذا غيرك ؟ فقال : يحيى بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وغيرهما من وجوه العسكر ، فأمر بإدخالهم فدخلوا ؛ فسألهم عما أخبره به على الرضا ، فلم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل ألا يعرض إليهم ؛ فضمن لهم خطه به ، فأخبروه بالبيعة لإبراهيم بن المهدى ، وأن أهل بغداد قد سموه الخليفة السنّى ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان على بن موسى منه ، وأعلموه بما فيه الناس ، وبما موَّه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما جاء لينصحه ، فقتله الفضل ، وأضافوا للخليفة أنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة من يده ، وأعلموه أن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته مايعلمه ، فأخرج من الأمر

(١) المرجع السابق ص ٣١٢ ، وابن الاثير ٦ : ١١٦ ، وابن خلدون ٣ : ٢٤٧

كله ، وجعل فى زاوية من الأرض بالرقة ، لا يستعان به فى شىء ، وأنه لو كان ببغداد لضبط المُلْك [1].

فأدرك المأمون حقيقة الأمر ، وعرف الفخ الذى نصبه له الفضل ، وأنكر عليه تمويهه الأمر وكَذِبه عليه ، وتحركت شخصية المأمون القوية التى تكره أن تخضع ، وتأبى أن تقنع بالاسم وتدع للغير القول والفعل ، وعزم أمره على أن يحطم ذلك السجن الذى نسقه حوله الفضل وأعوانه ، وقرر أن يرحل إلى بغداد ، ووجد من الحكمة أن يدارى أمره ، وألا يجاهر بالعداء حتى يفلت من هذا الحصار ، وبدأ المأمون رحلته فى أوائل سنة ٢٠٢ ﻫ تلك الرحلة التى لها شأن كبير فى التاريخ :

سار المأمون من مرو ، ومعه حاشية كبيرة على رأسها الفضل ابن سهل ، ومعه كذلك بعض الجنود ، وظل الركب يسير حتى وصل سرخس فحط الركب رحاله ، وفيها دبر المأمون من فتك بالفضل بالحمام فى شعبان سنة ٢٠٢ ﻫ ثم تظاهر المأمون بالحزن العظيم ، وطلب قاتليه حتى وجدهم فقتلهم فيه ، وأرسل رءوسهم إلى الحسن بن سهل مع تعزية رقيقة ، ثم استأنف الركب سيره إلى طوس فحط رحاله مرة أخرى ، وفيها مات على الرضا فجأة آخر صفر سنة ٢٠٣ ﻫ من عنب أكله ، ويقال إن المأمون دس له السم فيه ، والإنسان يتردد فى قبول هذا الاتهام ، ولكن الظروف المحيطة ربما دفعت المأمون إلى ارتكاب مثل ذلك العمل ، وبخاصة أنه بعد موت على الرضا بادر فأرسل إلى بنى العباس وأهل بغداد

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١١٨ وابن خلدون ٣ : ٢٤٩

يعتذر من عهده إليه ويخبرهم أنه قد مات . ويدعوهم إلى الرجوع اطاعته [1] .

واستأنف الركب سيره من طوس ، وكتب المأمون إلى طاهر بن الحسين أن يوافيه من الرقة ، فسار إليه مع جيش عظيم ، وفى النهروان التقى المأمون وطاهر وأعيان أهل بيته والقواد ووجوه الناس الذين انفضوا من حول ابراهيم بن المهدى عند ما عرفوا أن المأمون عائد إلى بغداد ، وأن الفضل وعليا الرضا قد قضى عليهما ، وأما ابراهيم بن المهدى فإنه لما رأى ذلك توارى واختفى ؛ وسار هذا الركب العظيم إلى بغداد فدخلها فى صفر سنة ٢٠٤ هـ وقد التف الناس جميعاً حول المأمون ، وعادت إلى الخلافة سطوتها، ولم يبق من آثار الماضى سوى لبس الخضرة الذى خلعه المأمون بعد بضعة أيام من وصوله ، استجابة إلى رجاء قواده وأهل بيته [2] .

---

(١) كان على بن موسى من خيرة العلويين وأشرفهم ، وأنبلهم وأقلهم أطماعا ، وكان يقول : ينبغى لمن أخذ برسول الله أن يعطى به ، ولم يقل فيه أبو نواس شعرا قط ، فسأله بعض أصحابه : ما رأيت أوقح منك ؟ ما تركت خمرا ولا طردا ولا معنى إلا قلت فيه شيئا ، وهذا على بن موسى الرضا فى عصرك لم تقل فيه شيئا : فقال أبو نواس : والله ماتركت ذلك إلا أعظاماً له : وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله ، ونظم أبونواس هذه المحادثة فى قوله :

قيل لى: أنت أحسن الناس طرا ... فى فنون من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديح ... يثمر الدر فى يدى مجتنيه
فعلا ما تركت مدح بن موسى ؟ ... والخصال التى تجمعن فيه ؟
قلت : لا أستطيع مدح إمام ... كان جبريل خادما لأبيه

(ابن خلكان ١ : ٣٢١ ـ ٣٢٢)

(٢) ابن الأثير ٦ : ١١٨ وما بعدها وابن خلدون ٣ : ٢٤٩

لعل القارىء بعد هذا الشرح يوافقنى على أنه من الممكن أن نلتمس العذر للمأمون فيما دبر من مؤامرات .

ويجدر بنا أن نذكر أن المأمون بذل جهده فى تخفيف وقع المصاب على أهل الفضل ؛ فقد روى أنه دخل على أم الفضل فوجدها تبكى ، فقال لها : أنا ابنك مكانه يا أماه فدعى البكاء ؛ فقالت : إن ابنا ترك لى ابنا مثلك لجدير أن يبكى عليه [1] .

ولم يكتف المأمون بهذا ، بل استوزر الحسن بن سهل بعد أخيه ، ومال إليه وتزوج ابنته بوران [2] .

وأما بالنسبة لعلى الرضا فإن المأمون زوج ابنته الأخرى من ابن على الرضا وظل يغدق على العلوين ويحسن إليهم وعلى شيعتهم ، وكان عهده لهم عهد يسر ورخاء ، وقد مر الحديث عن ذلك .

---

(١) ذيل الأمالى ص ٨٦

(٢) الفخرى ص ١٩٧

الفصل الثالث

الربيع بن يونس وابنه الفضل ودورهما في المؤامرات

تقديم * :

فى مثل هذا الجو المملوء بالدسائس والمؤامرات كانت تعيش قصور العباسيين ؛ فكانت تموج بالفتن ، وتزدحم بالوشايات ، وكان من الخلفاء من يُعَدّون قادة فى هذا الشأن ؛ إذ أثاروا هذه الحركات ورعوها ، ووطدوا سلطانهم على رفات الآخرين ، وشيدوا مجدهم على أنقاض الأشياع والأعداء جميعاً ، ومن الطبيعى أن انتقل هذا الخلقُ من سادة القصور إلى الحاشية والأعوان ، وان تسرب الداء إلى النفوس ، وبخاصة الضعيفة منها ؛ فأصبحت القصور تموج بالدسائس ، وتتجاوب بالمؤامرات ، وكُوّنت فى القصر الواحد جماعات وأحزاب تتجاذب السلطان، وتنشط فى حبك الوقيعة وحوك المؤامرة . ولكن الربيع بن يونس وابنه الفضل كان لهما السبق فى هذا المضمار ، وكأنما صادف هذا الخلق هوى فى نفسيهما ، وميلا فى فطرة كل منهما . فاستجابا له أحسن ماتكون الاستجابة ، وأقوم مايكون الاتفاق، وبرعا براعة تامه فى الإيقاع بمن يريدان ، وفى التنكيل بمن يكرهان .

ولقد امتد العهد الذى عاش فيه الوالد وابنه ، حتى شمل العصر الذى

---

* هناك فرق بين المؤامرات التى سنذكرها فى هذا الفصل ، وبين تلك التى ذكرناها فى الفصل السابق ؛ ذلك هو أن سادة القصور كانوا أبطال المؤامرات هناك ، أما هنا فأبطالها من الرعايا الذين التحقوا بخدمة الخلفاء ، ولم يكن عند هؤلاء الرعايا من السلطان مايمكنهم أن يتولوا بأنفسهم التنكيل بأعدائهم ، فاتخذوا الخلفاء وسيلة لهذا : أوغروا صدورهم ضد هؤلاء الأعداء ، ومهروا فى السعاية والوشاية بهم حتى استجاب لهم الخلفاء ، فكانت العواصف والفتن .
أما قصور الخلفاء فقد كانت هنا كما كانت هناك المسرح الذى ظهرت عليه هذه المؤامرات ، وجرت به تلك الاحداث .

نتحدث عنه كلّه تقريباً من المنصور إلى المأمون ، فأتيح لدسائسهما أن تطول ، وللمؤامرات التى وَلِعَا بها أن تمتد .

وقبل أن نتحدث عن المؤامرات التى قام بها هذان الرجلان ، يجدر بنا أن نقدم أمثلة قليلة لمؤامرات قام بها سواهما فى قصور الخلفاء ، لنرى كيف شاع هذا الخلق فى القصور فى هذه العهود .

استوزر السفاحُ خالد بن برمك بعد قتل أبى سلمة الخلال ، فقام خالد بالأمر خير قيام ، وكان السفاح شديد الرضا عنه ، والتعلق به ، ولما مات السفاح أقره المنصور على الوزارة ، فبقى فيها سنة وشهورا ، وهو إلى نفس المنصور كما كان إلى نفس السفاح . وكان أبو أيوب المورياني قد غلب على المنصور ، ولكن خالدا كان يقف حجر عثرة فى طريقه ، فبدأ المورياني يسلك سبيل الحيلة ليبعد خالداً عن القصر ، فذكر للمنصور تغلب الأكراد على فارس ، وأنه لايكفيه أمرَها سوى خالد ، فندبه إليها . فلما بعُدَ خالد عن الحضرة استبد أبو أيوب بالأمر . (١)

ولم يكتف أبو أيوب بإبعاد خالد ، وإنما أخذ يسعى عليه ، ويحض أبا جعفر على مكروهه ، ويشى به ليسقطه من عينه ، لأنه كان يعرف ما فيه من الفضل ، ويتخوفه على محله ، ويخشى أن يرده أبو جعفر إلى ما كان يتقلده ؛ فلما كثر ذلك على أبى جعفر صرف خالدا عن فارس ونكبه ، وألزمه ثلاثة آلاف درهم ، ولم يكن عنده إلا سبعمائة ألف درهم ، فأقر بها خالد ، فلم يقبل المنصور منه ، وأمر بمطالبته بالمبلغ كله ؛ فأسعفه صالح صاحب المصلى بخمسين ألف دينار ، وأسعفه مبارك التركى بألف ألف درهم ، ووجهت

(١) ابن خلكان ١ : ١٠٦

الخيزران بجوهر قيمته ألف ألف درهم ومائتا ألف درهم ، رعاية للرضاع بين الفضل حفيد خالد وبين هارون ابنها . واتصل ذلك بأبى جعفر فتحقق عنده قوله : إنه لا يملك إلاّ ما حكى ، فصفح له عن المال . فشقّ ذلك على أبى أيوب ، وأحضر بعض الجهابذة ، ودفع إليه مالا ، وأمره أن يعترف أنه لخالد ، ودس إلى أبى جعفر من سعى بالمال ، فأحضر الجهبذ فسأله عن المال فاعترف به ، فأحضر خالداً فسأله عن ذلك ، فحلف بالله إنه لم يجمع مالا قط ، ولا ادخره ، ولا يعرف هذا الجهبذ ، ودعا إلى كشف الحال ، فتركه أبو جعفر بحضرته ، وأحضر الجهبذ فقال له : أتعرف خالداً إن رأيته ، قال نعم يا أمير المؤمنين ، أعرفه إن رأيته ، فالتفت إلى خالد وقال : قد أظهر الله براءتك ، وهذا مال قد أصبناه بسببك ؛ ثم قال للنصرانى : هذا الجالس خالد ، فكيف لم تعرفه ؟ قال : الأمان يا أمير المؤمنين ، وأخبره الخبر ، فكان لا يقبل من أبى أيوب بعد ذلك شيئاً فى خالد . (١)

ذلك مثل من أمثلة الوشاية فى قصر أبى جعفر ، وقد استطاع المنصور أن يتعرف حقيقة الأمر ويتدارك الخطب قبل أن يستفحل ، ولكن هناك حالات أخرى لم تتضح لهذا الخليفة إلا بعد فوات الأوان ، وهاك واحدة منها :

ضمّ المنصور رجلا يقال له فُضَيل بن عِمران من أهل الكوفة إلى جعفر ابنه ، يكتب له ويقوم بأمره ، بمنزلة أبى عبيد الله مع المهدى ، وكانت لجعفر حاضنة تعرف بأم عبيده ، فثقل عليها مكان فضيل ، فسعت

---

(١) الوزراء والكتاب ٩٩ ـ ١٠٠ .

به إلى أبي جعفر ، وادعت عنده أنه يلعب بجعفر ، فبعث المنصور بالريّان مولاه ، وهرون بن غَزْوان مولى عثمان بن نَهيك إلى فضيل وأمرهما بقتله ، وكتب لهما منشوراً بذلك ، فصارا إليه فقتلاه ، وكان الفضيل دينا عفيفاً ، فقيل للمنصور فى ذلك ، وأنه أبرأ الناس مما قُرِف به ، وأبعدهم منه ، فوجه رسولا ، وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ، فصار إليه ، فوجده قد قتل ولم يجف دمه ، واتصل خبر قتله بجعفر بن أبي جعفر ، فطلب الريان ، فلما جيء به إليه ، قال له : ويلك ! ما يقول أمير المؤمنين فى قتل رجل عفيف مسلم بغير جرم ولا خيانة ؟ فقال الريان : هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء ، فقال جعفر : ويلك ياريان ، أكلمك بكلام الخاصة ، وتكلمنى بكلام العامة ، خذوا برجله فألقوه فى دجلة ؛ قال الريان . فأخذوا والله برجلى ، فقلت : أكلمك ؛ فقال : دعوه ؛ فقلت أبوك إنما يسأل عن فضيل بن عمران وحده ، ومتى يسأل عنه وقد قَتَل عمه عبدالله بن على ، وقتل عبد الله بن حسن ، وغيره من أولاد رسول الله ظلما ، وقتل أهل الدنيا ممن لا يحصى ولا يعد ، وهو قبل أن يسأل عن الفضيل صؤابه تحت خصى فرعون [1] فضحك جعفر وقال : دعوه إلى لعنة الله [2] .

فإذا تركنا عهد المنصور وانحدرنا إلى العهود التى جاءت بعده ، وجدنا قصور الخلفاء تموج كذلك بالمؤامرات ، وتتجاوب بالفتن والدسائس ، ففى عهد المهدى كان يعقوب بن داود مسيطراً على شئون الخلافة فترة من

---

(١) الصؤابة بيضة القمل والبرغوث ، والمراد أنه إذا قيس بفرعون فى كثرة القتل كان كالصؤابة فى جسده .

(٢) الجهشيارى ١٢٩ — ١٣٠

الزمن ، فاستطاع أن يولى أخاه صالح بن داود البصرة فهجاه بشار ابن برد بقوله .

همو حملوا فوق المنابر صالحا أخاك ، فضجّت من أخيك المنابر

فبلغ يعقوبَ بن داود هجاؤه ، فدخل على المهدى فقال له : يا أمير المؤمنين . إن هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين ؛ قال : وما قال ؟ فقال : يعفينى أمير المؤمنين من إنشاده ذلك ، فأبى عليه ، وراجعه ، ولم يزل به إلى أن أنشده بيتين فيهما هجر القول وفحشه .(١)

فقال المهدى : وجّه إليه من يحمله لنا ، فخاف يعقوب أن يقدم بشار على المهدى فيمدحه ، فيعفو عنه ، فوجه إليه من استقبله فضربه بالسياط ، وقتله وألقاه فى البطيحة .(٢)

وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع ذكرها الجهشيارى (٣) ، وابن طباطبا (٤) ، وغيرهما من المؤرخين والكتاب ، ولكننا نكتفى هنا بهذا القدر لنسارع فنتتبع الربيع بن يونس وابنه الفضل ، فمن أجلهما عقد هذا الفصل .

مع أبى أيوب الموريانى :

ينسب أبو أيوب الموريانى إلى قرية تسمى « موريان » وهى من قرى الأهواز ، واسمه سليمان بن مَخلَد ، وكان خفيفاً طريفاً ، حسن التأتى لما يراد منه ، أخذ من كل علم طرفاً ، وكان يقول : ليس من شىء إلا وقد

(١) لا أحب أن أوردهما هنا لما فيهما من ألفاظ نابية . . وهما فى الأغانى ٣ : ٦٧

(٢) الأغانى ٣ : ٦٧ — ٦٨

(٣) انظر مثلا ص ٢٦٤

(٤) انظر ص ١٦٢

نظرت فيه إلا الفقه ، وقد نظرت فى الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر . [1]

وقد عرفه أبو جعفر قبل قيام الدولة العباسية ، وكان ذلك فى مناسبة وقف فيها أبو أيوب موقف الحامى لأبى جعفر المنصور والمدافع عنه ، فلقد روى أن أبا أيوب كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة والى مروان بن محمد على البصرة ، وكان المنصور ينوب عن سليمان فى بعض الكور ، فاتهمه سليمان بأنه احتجر المال لنفسه ، فأحضره وقال له : هات المال الذى اختنته . فقال : لا مال عندى ؛ فدعا له بالسياط ، فقال أبو أيوب : أيها الأمير ، لا تضربه ، فإن الخلافة إن بقيت فى بنى أمية فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وإن صار الملك إلى بنى هاشم لم تكن لك بلاد الإسلام بلادا ؛ فلم يقبل منه ، وأخذ يضرب أبا جعفر ، ولكن أبا أيوب ألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى أمسك عن ضربه ، فكان أبو جعفر يتذكر هذا لأبى أيوب ويشكره عليه . [2]

فلما قامت الدولة العباسية رأى أبو جعفر أن ينتفع بخبرة الموريانى وأن يكافئه على إحسانه إليه ، فاستدعاه إلى قصره وأسند له بعض الأعمال ، وكانت كفاءة أبى أيوب ، وإقبال أبى جعفر عليه كفيلين أن يرقيا بالرجل ويضمنا له المجد العريض ، وهكذا ترقى أبو أيوب حتى وصل إلى قمة المجد فأسندت له وزارة المنصور ، وضُمت إليه الدواوين مع الوزارة ، وغلب على المنصور غلبة شديدة ، وصرّف أهله فى الأعمال ، حتى قالت العامة :

---

(١) الجهشيارى ص ٩٧ وابن خلكان ١ : ٢١٦

(٢) هذه القصة مضطربة فى المراجع التى بين أيدينا ، وهذا أيسر وأدق ما استطعت أن أورده عنها . (انظر الجهشيارى ص ٩٨ وابن خلكان ١ : ٢١٦)

إنه سحر أبا جعفر ، واتخذ دهنا يمسحه على وجهه إذا أراد الدخول عليه ، وضَربت العامة المثل بدهن أبي أيوب ، وبلغ من حب المنصور له ، أن أم سليمان الطَّلْحيَّة اتخذت لأبي جعفر مجلساً في الصيف ، وجعلت فيه الرياحين والثلج وسائر الطيب ، فلما صار إليه أعجب ببَرْده وحسنه، ولكنه قال لها : ما أحس بهذا النعيم ؛ قالت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنه ليس معي أبو أيوب يحدثني ويؤنسني ؛ قالت : يا أمير المؤمنين ، إنما هيأته لسرورك فتبعث إليه ؛ فبعث إليه فحضر ، فقال له : يا أبا أيوب، لم يطب لي هذا الموضع ولذته دون أن تكون معي ؛ فدعا له أبو أيوب وأقام معه [1] .

وبينما كان أبو أيوب ينزل من نفس المنصور هذه المنزلة بسبب سالف إحسانه وعظم كفاءته ، كان هناك شخص آخر بادي الطموح يشغل منصباً كبير الخطر في قصر المنصور، ذلك هو الربيع بن يونس الذي كان له منصب الحجابة [2] ، وكان الربيع جليلا نبيلا منفذاً للأمور، فصيحاً ، كافياً ، حازماً ، عاقلا ، فطناً ، خبيراً بالحساب والأعمال ، حاذقاً بأمور الملك ، بصيراً بما يأتي ويذر [3] .

وكان الربيع يتطلع إلى منصب الوزارة ، ولكن كيف السبيل إليه وشاغله أبو أيوب الموريانى ، وهو من هو خبرةً ومقدرة وحسن صلة بالمنصور ، ولكن الربيع كان لا يعرف اليأس ولا يستكين للقنوط ، وكان إذا عزم على أمرٍ اتجه له بكل مواهبه ، وشق له كل السبل حتى

(١) الجهشيارى ٩٧ — ٩٨
(٢) ابن خلكان ١ : ١٨٥
(٣) الفخرى ١٥٤

يكتب له النصر ، ويصل إلى الهدف الذى يبتغيه ، وهو فى سبيل مآربه لا يرحم ولا يكترث بالمثل العليا .

وهناك سبب هام مهد الطريق للربيع ، وذلل صعابه؛ ذلك هو ثقته ان المنصور لا يدين كثيراً بخلق الوفاء ، وانه من الممكن ان يسخط فى الغد على من يرضى عنه اليوم ، وان يقطع الآن رأساً كان يقبله منذ عهد قريب وكان ابو ايوب المورياني نفسه يدرك ذلك فى المنصور ، رُوِى انه كان يجلس يوما ، يأمر وينهى وهو فى سلطانه وجلاله ، فأرسل له ابو جعفر يستدعيه ، فامتقع لونه وتغير ، ومضى إليه ثم رجع . فقال له بعض اصحابه فى ذلك ، فقال سأضرب لكم مثلا : زعموا ان البازى قال للديك ما فى الأرض حيوان اقل وفاء منك . قال الديك : وكيف ذلك ؟ . قال : اخـذك اهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت على ايديهم ، واطعموك فى اكفهم ، ونشأت بينهم ، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك احد إلا طرت ها هنا وها هنا وصحت وصوّتّ وانا أُخذت من الجبال كبيراً فعلمونى وألّفونى ثم يخلّىَّ عنى ، فآخذ صيدى فى الهواء وأجىء به إلى صاحبى . فقال له الديك : إنك لو رأيتَ من البزاة فى سفافيدهم المعدة للشَّىِّ ، مثل الذى رأيتُ من الديوك لكنتَ أكثر نفوراً منى . وعلّق أبو أيوب على هذه القصة بقوله لأصحابه : وأنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ماترون من تمكن حالى . [1]

وإذاً فليبدأ الربيع كفاحه السرى الصامت ضد أبى أيوب وليتخذ من الدسائس والسعايات سلاحه البتار ، وليفتح قلبه ، وليمد الأمل للذين يشون

(١) ابن خلكان ١ : ٢١٦ .

بأبى ايوب ويسعون به ، ووجد الربيع ضالـّته فى ابان بن صدقة ، الذى كان يكتب لأبى ايوب ويشى به . حدث الجهشيارى قال :[1] كان ابان يكتب لأبى ايوب وكان يشرف على امره كله ، فحسده مَخْلَد ابن اخى ابى ايوب ، فرفع عليه سعاية إلى ابى جعفر بمائة الف دينار ، فأمر المنصور بأخذه بها ، فأدخل ابان بيتاً وطيّن عليه بابه ، ثم ندم مخلد على مافعله ، ولامه عمه أبو أيوب لما وقف على ما كان منه ، فقال مخلد : أنا أؤدى عنه عشرة آلاف دينار ، وقال أبو أيوب : أنا أؤدى عنه كذا ، وقال مسعود أخو مخلد : أنا أؤدى كذا ، فتوزعها الموريانيون بينهم ، وأخرجوا أباناً من الحبس ، فخرج وفى نفسه ما فيها ، فكان يأتى أبا أيوب فيقيم عنده نهاره كله ، فإذا كان الليل انصرف ومعه غلمان أبى أيوب ، فإذا انصرفوا وعلم أنهم قد وصلوا إلى منازلهم ، خرج حتى يأتى الربيع ، فيسعى بأبى أيوب ، ويكتب له أخباره وأمواله ، فيوصل الربيع ذلك إلى المنصور .

وتغير قلب المنصور على أبى أيوب شيئاً فشيئاً ، وأخذ حبه له يضعف رويداً رويداً ، واستمر الربيع فى زحفه وسعيه ، حتى لا يدع لأبى جعفر فرصة للتحقق او اليقين ، وظل الحال على ذلك إلى ان كبا ابو ايوب كبوة ، وارتكب خطأ مالياً فاستغل الربيع ذلك اوسع استغلال ، وظل يغرى به المنصور حتى نال مناه ، فأوقع المنصور بوزيره وفتك به ، اما هذه الزلة التى اقترفها المورياني فإليك عنها البيان :

كان المنصور يحب المال وجمعه كما سبق الحديث عن ذلك ، وعرف افراد حاشيته فيه هذا الميل ، فعاونوه عليه ، واتفق ان رخصت اسعار

(١) الوزراء والكتاب ١١٦ .

الطعام فى عهده رَخصا واضحا ، فأشار ابو ايوب عليه ان يشترى طعام سواد الكوفة وسواد البصرة ، وان يدخره ليباع عندما ترتفع الأسعار ، طمعاً فى الربح ، فأذن المنصور لوزيره فى ذلك ، وجرت الصفقة باسم ابى ايوب الذى كتب على نفسه كتابا بما اخذ من مال المنصور ثمناً للطعام الذى اشتراه ؛ ولكن المنصور لم يكن يعرف من التجارة إلا جانباً واحداً. هو جانب الربح ، ولم يحالف التوفيقُ هذه الصفقة ، إذ تتابع الرخص ، فطالب المنصور وزيره بالمال ، وارهقه بالمطالبة ، فتحمل منه الشيء بعد الشيء ، حتى ساءت حالته المالية دون ان يوفى ما عليه .

وعنَّتْ للمورياني فرصة ليسدد للخليفة دينه ، وليستعيد ولو مؤقتا مكانته ؛ وقصة ذلك ان المنصور كان يحب ابنا له يقال له «صالح» ، ويرقُّ عليه ، وكان اقطع اولاده قطائع خلاه ، فكان يريد اقطاعا له ، فقال مرة لأبى ايوب : ما ترى حال ابنى ليس له ضيعة ! فأجاب ابو ايوب : ياامير المؤمنين، بالأهواز مزارع عاطلة ، تحتاج إلى ثلثمائة الف درهم ، تعمر بها ويقوم منها حاصل جيد ، فأطلق له المنصور ثلثمائة الف درهم ، وامره بعمارتها لابنه صالح ، فأخذ ابو ايوب المال ، فأدى منه صدرا من خسارته فى الطعام ، ولم يعمّر الضيعة ، وصار فى كل سنة يحمل عشرين الف درهم ويقول : هذا حاصل ضيعة صالح .

تلك كانت زلة ابى ايوب ، ولست احاول الدفاع عنه ، ولكنى اسجل اعتقادى ؛ وهو ان المنصور ايضا ملوم ؛ ملوم لأنه قبل ان يتاجر فى اقوات الناس . ولأنه اراد ان يأخذ الربح ولا يتحمل الخسائر فأوقع وزيره فى الشطط .

وعلى أية حال فقد نقل «أبان» أنباء الضيعة الخيالية والتصرف فى الثلثمائة ألف درهم إلى الربيع ، فرحب الربيع بهذه الأنباء ، التى أمل أن يكون فيها حتف الوزير ، وهرع إلى المنصور فأعلمه . فسأله المنصور : من أين عرفت هذا ؟ . فأجاب . من «أبان بن صدقة»! . وهو المصدر الخبير الذى لا يتطرق إلى أخباره شك ، وحث الربيع الخليفة أن يخرج بنفسه لزيارة هذه البقاع ، وليرى كيف غرَّه المورياني وخدعه ، واستجاب المنصور لإلحاح الربيع ، وقال لأبى أيوب : إنى أحب أن أزور الأهواز ، وأن أرى ضيعة صالح ؛ وبدأ رجال الخليفة وعلى رأسهم الربيع يعدون العدة لهذا الشخوص .

وعرف أبو أيوب – بعد فوات الأوان – أن «أبانا» يأتى الربيع كل ليلة فيحدثه بكل شيء ، ويشى بالوزير عنده ، فقال له أبو أيوب : ولم تفعل هذا ؟ إن كان مخلد قد رفع عليك سعاية ، فقد خلّصتك ، فلماذا تريد قتلى ؟ . . فأسفر أبان عن عدائه وقال : إن مخلدا أراد قتلى ؛ فقال له أبو أيوب : فعلتها ، اخرج فلا تقربنى ؛ فقال : آتى الربيع والله ، ثم لا أعود إليك ؛ وخرج حتى أتى الربيع ، وكاشف بالعداء أبا أيوب .

ودبر أبو أيوب أمره وأعمل فكره طلبا للنجاة والسلامة ، وكتب إلى وكلائه بالأهواز أن يعجّلوا بحيلتين :

أولا : أن يغمروا مكان الضيعة بالماء حتى لا يستطيع الخليفة أن يتوغل فيها

ثانياً : أن يعمّروا حافة هذه الضيعة بإقامة القرى والمنازل ، وغرس النخل والأشجار ، وإنبات النبات ، حتى إذا حط الركب رحاله بالقرب منها ، ظن الناظر إليها أنها عامرة مزدهرة .

ونفذ وكلاء أبى أيوب أوامره بكل دقة وإخلاص ، وسار ركب المنصور حتى اقترب من الضيعة ، فقال له أبو أيوب : هذه هى الضيعة ، ولولا فيضان الماء لأمكنك أن تجول فيها ؛ فرأى المنصور العمارة والخضرة ، فكاد الأمر يشتبه عليه ؛ ولكن الربيع يتدارك الأمر فيؤكد للخليفة أن هذا تمويه ، ويحثه على البقاء إلى أن ينحسر الماء ليرى الضيعة بنفسه من الداخل ، وإلا كانت رحلة هباء ؛ فقرر المنصور أن يبقى حيث هو حتى تجف الأرض ليجول فيها بنفسه .

وفى أثناء إقامته بالأهواز ، وهى موطن أبى أيوب الموريانى ، عنت فرصة أخرى للربيع ليثير سخط الخليفة على الوزير ؛ وحكاية ذلك أن المنصور اشتهى هناك سمكا طريا ، فقال له أبو أيوب : ياأمير المؤمنين ، أنى أهوازى سمكى ، ولنا عجائز تُحسن صنعة السمك ، فإن رأيت أن تأذن لى فأهيئه لك ؟ فقبل أبو جعفر وأذن له فى اتخاذه ، فمضى لذلك . وبعد فترة نهض أبو جعفر عن مجلسه ، ودعا الربيع ليصب عليه الماء ليغسل وجهه ، قال الربيع : فبينما أنا أصب عليه ، إذا رُسُل أبى ايوب قد دخلوا بشىء كثير من السلال ، فيها ضروب من خبز الماء والرقاق وخبز الأرز ، وصنوف السمك التى اتخذت ضروبا من الصنعة الحارة والباردة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد علم سليمان ما يريده أمير المؤمنين به ، فهل يأمن أمير المؤمنين أن يكون قد دس له فى هذا الطعام شيئاً ؟ فجزع المنصور ، ودعا بطعام غيره فأكل منه . (١)

وهكذا نجح الربيع فى ان يبلغ بالعلاقة بين المنصور ووزيره هذا

(١) لقد أكل رجال الخليفة من هذا الطعام الشهى ، ولم يجدوا فيه بطبيعة الحال ما يضر .

المحل ، فأصبح الخليفة يخشى أن يسمه الوزير ، ولا نزاع أنه لا يمكن أن تستقيم علاقة بين الاثنين بعد هذا ، ثم وصلت العلاقة إلى أبعد درجات السوء عندما جفت الأرض ، فوجد المنصور أنها عامرة الظاهر غامرة فى الداخل فلم يقل شيئاً ، وعاد إلى بغداد وقد أضمر أمراً .

وفى بغداد استدعى المنصور أبا أيوب وقال له : ياخُوزىّ [١] ، أكنت آمناً أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك ، فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك ، واستباحة نعمتك ، وفى الآجل حلول دار الفاسقين ، ومأوى الظالمين الناكثين ؟.. فقال : ياأمير المؤمنين ، إن للتهم فلتات ترجع بالندم ، ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل السياسة ، وشرف القرابة ، فأقِلْنى ؛ قال : لا يسعنى مع عظيم جرمك ، وجليل ذنبك ، إقالتك ، ولا العفو عنك ؛ وحبسه وحبس أخاه وبنى أخيه ، وطولبوا بالأموال ، وعُذّبُوا وضُيّقَ عليهم ، ثم أمر المنصور بأبى أيوب فقتل ، قال صالح ابن سليمان : سمعت المنصور عقيب ذلك يتحدث أن ملكا من الملوك كان يساير وزيراً له ، فضربت دابة الوزير رجل الملك ، فغضب ، وأمر بقطع رجل الوزير ، فقطعت ، ثم ندم فأمر بمعالجته حتى جف موضع القطع ، ثم قال الملك لنفسه : هذا لا يحبنى ابداً وقد قطعت رجله ، فقتله ، ثم قال : وأهل هذا الوزير لا يحبوننى أبداً وقد قتلتهُ ، فقتلهم جميعاً .

قال صالح بن سليمان فعلمت أنه سيفعل ذلك فى أهل المورياني ففعله وقتلهم جميعاً ، وما عدا ظنى .

وقد قال أبو حبيبات الشاعر الكوفى فى ذلك :

---

(١) نسبته إلى خوزستان ومنها أبو أيوب .

قد وجدنا الملوك تحسد من أعطته طوعا أزمة التدبير
فإذا ما رأوا له النهى والأمر أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأسَ بعد حفصٍ سليمانُ . ودارت عليه كف المدير
أسوأ العالمين حالا لديهم من تسمَّى بكاتب أو وزير

. . . وبموت أبي أيوب خلا الجو للربيع بن يونس ، فجنى ثمار دسه وائتماره ، وأسند له منصب الوزارة ، فظل يشغله حتى وفاة المنصور[1] .

مع أبي عبيد الله معاوية بن يسار :

يقول ابن طباطبا [2] إن أبهة الوزارة ظهرت فى عهد المهدى بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، فإنه رتب الدواوين ، وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة ، وكان يعمل كاتباً للمهدى ونائباً له قبل الخلافة ، ضمه المنصور إليه ، وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدى ، فكان غالباً على أمره ، لايعصى المهدى له امراً ، وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ويأمره بامتثال ما يشير به ؛ فلما مات المنصور ، وجلس المهدى على سرير الخلافة فوّض إليه تدبير المملكة ، وسلم إليه الدواوين ؛ وكان مقدماً فى صناعته ، فاخترع أموراً .

---

(١) وردت قصة هذه المؤامرة مبعثرة وغير مرتبة فى كثير من المراجع ، وما سقناه هنا خلاصة ما ورد فى هـذه المراجع مع تقديم وتأخير وتصرف ؛ ويمكن الرجوع إليها فى الجهشيارى ٩٧ ـ ٩٨ ، ١٠٢ ـ ١٠٣ ، ١١٥ ـ ١١٦ ، ١١٧ ـ ١١٩ ، ١٢٠ ـ ١٢٣ وفى الفخرى ١٥٢ ـ ١٥٣ وابن خلكان ١ : ٢١٥ ـ ٢١٦

(٢) الفخرى ١٥٧ ـ ١٥٨

منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة ، وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم ، فلما ولى ابو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وصنَّف كتاباً فى الخراج ، ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنف كتاباً فى الخراج ، وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج .

ولنعد إلى الوراء قليلا لنرى ماذا حدث قبيل انتقال الخلافة للمهدى :

فى سنة ١٥٨ هـ خرج المنصور حاجا وأخذ معه وزيره الربيع بن يونس ، وفى الطريق إلى مكة عرضت للمنصور علة أجهدته ، ولكنه قاوم ، وسار الركب يحث الخطا ، غير أن المنية فاجأته قبيل دخوله مكة فى السادس من ذى الحجة من نفس العام ، ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع ، فكتم موته ، ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ، فلما أصبح الصبح ألبس الربيع المنصورَ ملابسه وسنده وأجلسه خلف كِلَّة خفيفة ، يُرَى شخصه منها ، ولا يفهم أمره ، وحضر وجوه بنى هاشم فاتخذوا مجالسهم بحيث يرون الخليفة ، وتقدم الربيع إليه فكأنما يحادثه ، ثم عاد الربيع إليهم ينقل أمر الخليفة فى تجديد البيعة للمهدى ، ففعلوا ، ثم أخرجهم الربيع ، وبعد برهة خرج إليهم باكياً ناحباً معلناً موت أبى جعفر المنصور [١] .

هل كان هناك ما يدعو إلى هذا ؟ . . ثم أليس للموت حرمة ؟ . وكيف جاز للربيع أن يسخّر جثمان المنصور هذا التسخير ؟ . لقد استخف المهدى واستخف وزيره أبو عبيد الله معاوية بن يسار

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٢

بالربيع من أجل هذا التصرف ، وقال المهدى للربيع : ما منعتك هيبة أمير المؤمنين من هذا الفعل به . !![1] والعجيب أن الربيع قام بهذا العمل يرجو من ورائه الحظوة عند المهدى ورجاله ، ولكن المهدى ورجاله سخروا به وكرهوا منه هذا التصرف البغيض ، وكان ذلك نقطة التحول فى العلاقات بين الربيع ومعاوية بن يسار .

عاد الربيع من مكة فخوراً بما فعل ، مغتبطا بما قدّم للخليفة الجديد ، ولكن الأخبار كانت قد سبقته ، وتركت فى نفس المهدى ووزيره أثراً سيئاً ، فلما وصل الربيع بغداد ، حضر ساعة وصوله إلى باب أبى عبيد الله ؛ فقال له ابنه الفضل : يا أبى ، تترك أمير المؤمنين ، وتترك أهلك ، وتأتى أبا عبيد الله . ! فقال الربيع : يا بنى ، هو صاحب الرحل والغالب على أمره ، فليس ينبغى لنا أن نعامله كما كنا نعامله من قبل ، فلما وصل إلى الباب وقف عليه وطال وقوفه إلى أن جاءه الإذن ، فهم أن يدخل هو وابنه ، ولكن الحاجب قال له : إنما استأذنت لك وحدك يا أبا الفضل ؛ فقال له الربيع : ارجع فأعلم أبا عبيدالله أن الفضل معى ؛ ثم أقبل الربيع على الفضل فقال : هذا من ذاك[2]، ثم خرج الآذن فأذن لهما جميعاً ، فدخلا ، ولكن أبا عبيد الله لم يحفل باستقبالهما كما كانا يتوقعان ، وجعل يسأل الربيع عن سفره وسيره وحاله ، والربيع يتوقع أن يسأله عما كان منه فى أمر المهدى ، وتجديده بيعته ، فأعرض أبو عبيد الله عن ذلك ، فذهب الربيع ليبتدئه بذكره ؛ فقال له أبو عبيد الله : قد بلغنا نبؤكم فلا حاجة لإعادته ؛ فاغتاظ الربيع ثم قام فخرج ، وقصد منزله منصرفا ، وفى الطريق أقبل على الفضل

(١) الفخرى ١٥١
(٢) أى أن هذا التصرف موحى به من أبى عبيد الله .

فقال له : يابنى ، أنت أحمق ؛ فقال الفضل : ما حمقى ؟ . قال : أنه يدور برأسك الآن أنه كان ينبغى ألا نجىء ، فإذا جئنا وحجبنا كان ينبغى ألا ننتظر ، فإذا دخلنا فلم يأبه بنا كان علينا أن نرجع ولا نكلمه ؛ قال الفضل : نعم ، ذلك ما يدور برأسى ؛ قال الربيع : ذلك هو الحمق بعينه ، ولم يكن الصواب غير ما فعلته كله ، ولكن ، والله الذى لا إله إلا هو لأُخلقَنَّ جاهى ، ولأُنفقَنَّ مالى حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله . (١)

وهكذا يتضح الربيع على حقيقته ، لقد أراد الزلفى إلى المهدى ووزيره عن طريق إظهار الحرص على قيام خلافة المهدى وتجديد البيعة له ، ولكن مواهبه خانته فأَسَفَّ وكبا ، وإذ فشل فى الوصول إلى مأموله عن هذا الطريق ، فليسلك الطريق الذى لا يفشل فيه ، وهو طريق الدس والائتمار ، وليؤكد القسم من أول يوم أن يبذل الجاه والمال ليبلغ مكروه الوزير ، ولنتخط مؤقتاً بعض الأحداث الهامة لنصل إلى حقيقة مروّعة تدل على مدى الانحلال فى نفس الربيع ، تلك هى أن الربيع لم يتمكن من بلوغ أمنيته إلا بعد خمس سنوات أى ابتداء من سنة ١٦٣ هـ ، ومعنى ذلك أن هذه السنوات الخمس لم تخفف من حدة نفسه ومن سخطه البالغ على أبى عبيدالله ، مع أنهما كانا خلال هذه السنوات الخمس يعملان فى بلاط واحد ، ولم تذكر لنا كتب الأدب والتاريخ — فيما قرأت — أن خلافا قام بينهما فى أثناء هذه الفترة ، ، بل بالعكس كان هناك تعاون ومجاملة ، ولكن نفس الربيع الحالكة تحب التشفى ، وتكره أن ترى النعمة على مخلوق ، ولذلك زادتها هذه المدة كراهية فى ابن يسار وعزما على النيل منه .

(١) الجهشيارى ١٥٢ — ١٥٣ والفخرى ١٥٨

ولكن كيف الطريق للنيل من أبى عبيد الله ؟ . لقد جهد الربيع ليجد منفذا فى أخلاقه ، ولكنه باء بالخيبة ، إذ تؤكد المراجع التى بين أيدينا أن ابن يسار كان إلى الكمال أقرب ، فلم يجد الربيع بدآ من أن يلجأ إلى أعداء أبى عبيد الله ، لعله يجد عندهم العون والنصح ، فيما يهدم الرجل ويقوض مكانه وسعادته ، فاستدعى داهية من أعداء الوزير اسمه القُشَيرىّ ، وخلا به وسأله : تعلم ما فعل بك أبو عبيد الله وما فعل معى ، فهل عندك فى أمره حيلة؟.. قال الرجل — والفضل ماشهد به الأعداء — : أبو عبيدالله ليس بجاهل فى صناعته ، وإنه لأحذق الناس ، وما هو بظَـنين فيما يتقلده ، لأنه أعفّ الناس ، حتى لو كانت بنات المهدى فى حجره لكان لهن موضعاً ، وليس بمتَّهم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتىَ من ذلك ، وليس بمتهم فى دينه ، لأن عَقْـده وثيق ، ولكنَّ هذا كله يجتمع لك فى ابنه ، لأنه ردىء الطريقة ، مذموم السيرة ، يُرمَى بالزندقة ، والقولُ يسرع إليه ؛ فانفرجت أسارير الربيع ، وقبَّل الرجل بين عينيه ، ولاح له وجه الحيلة فى الوزير (١)

وكان المهدى كما قلنا آنفا شديدا على الزنادقة ، يعنى بالبحث عنهم ، ويهتم بالفتك بهم ، فدس عليه الربيع من أخبره بزندقة ابن الوزير ، وأكد له ذلك ، فسأله المهدى الوزير عن ابنه فأجاب بأنه حفّظه القرآن ، وعلّمه أمور الدين ؛ ولكن الربيع يواصل دسه وتحدّيه بأن الابن زنديق ، وأنه يشجع سواه من الشبان على الزندقة ، وأن هؤلاء يحتمون به وبجاه أبيه ؛ فجد المهدى فى طلبه حتى جىء به ، فسأله المهدى عن شىء من القرآن فلم يعرف ،

(١) الجهشيارى ١٥٣ والفخرى ١٥٩

فقال لأبيه : ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن ؟ . قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن فارقني منذ مدة فنَسِيَه ، فقال له الخليفة : قم فتقرب إلى الله بدمه ، فقام أبو عبيد الله ولكنه ارتعد وعثر ، فقال العباس بن محمد عم المهدى : إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ، ويتولى ذلك غيرُه ؛ فأمر المهدى بعض من كان حاضرا بقتله ، فضربت عنقه [1]

تلك كانت المؤامرة الأولى التى دبّرها الربيع ضد أبي عبيد الله ، وقد كانت ضربة قاسية للرجل الكهل ، أورثته الذلة والانكسار ، ولكن هذه المؤامرة لم تصل بالربيع إلى ما أراد ، لأن أبا عبيد الله ظل يعمل للمهدى كما كان ، ولم تنقص مكانته قليلا ولا كثيرا ، ومن أجل هذا تتفتق عبقرية الربيع عن مؤامرة أخرى يضرب بها الرجل نفسه ، ويوقع بها بين الوزير وسيده .

قال الجهشيارى [2] : ولما قتل المهدى عبد الله بن أبي عبيد الله ، قال الربيع لبعض خدم المهدى : لك علىّ ثلاثة آلاف دينار ، إن فعلت شيئاً لايضرك ، قال له : وما هو ؟ .. قال : إذا دخل أبو عبيد الله إلى المهدى فصار بحضرته ، قبضت على سيفه ، ومشيت إلى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول : يا أمير المؤمنين ، قتلت ابنه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم ؟ . ففعل ذلك الخادم ، فكان هذا مما أوحش المهدى من أبي عبيد الله .

---

(١) المرجعان السابقان .

(٢) الوزراء والكتاب ١٥٤

وروى ابن طباطبا هذه القصة مع شيء من التغيير فيقول [1] : ودخل أبو عبيد الله يوماً على المهدى ليعرض عليه كتباً قد وردت من الأطراف فتقدم المهدى بإخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع ، فلم يعرض أبو عبيد الله شيئاً من تلك الكتب ، انتظاراً لخروج الربيع ، فقال المهدى : ياربيع أخرج ؛ فتنحى الربيع قليلا ، فقال المهدى : ألم آمرك بالخروج ! . . قال : ياأمير المؤمنين ، كيف أخرج وأنت وحدك ، وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشام اسمه معاوية ، وقد قتلت بالأمس ولده ، وأوغرْت صدره ، فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ . . فثبت هذا المعنى فى نفس المهدى ، إلا أنه قال : ياربيع ، إنى أثق بأبى عبيد الله فى كل حال ؛ ولكن الواقع أن المهدى داخله الشك والحذر ، فلم يأمر الربيع بالخروج ، وإنما قال لأبى عبيد الله : اعرض ماتريد فليس دون الربيع سر . [2]

قال الجهشيارى [3] : ثم صرف المهدى أبا عبيد الله عن وزارته سنة ١٦٣ هـ ، واقتصر به على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل سنة ١٦٧ هـ وقلده الربيع بن يونس ، وقال ابن طباطبا [4] : إن المهدى قال للربيع : إنى أستحى من أبى عبيد الله بسبب قتل ولده ، فأحجبه عنى ، فحُجب عنه ، وانقطع بداره ، واضمحل أمره ، ويضيف ابن طباطبا انه تهيأ للربيع بذلك ما أراده من إزالة نعمة ابن يسار .

(١) الفخرى ١٥٩ ـ ١٦٠
(٢) انظر القصة أيضاً فى الأغانى ٢١ : ٨٠
(٣) الوزراء والكتاب ١٠٦
(٤) الفخرى ١٦٠

وقبل أن ندع الربيع يجدر بنا أن نقرر أن الربيع لم يكن يوقع ويأتمر برجال السياسة فقط ، وإنما كان يفعل ذلك أيضاً مع العلماء والقضاة . حدث العُتبي قال : كان بين شَريك القاضي والربيع حاجب المهدى معارضة فكان الربيع يحمل عليه المهدىّ ، فلا يلتفت إليه ، حتى رأى المهدىّ فى منامه شريكا القاضى مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعا الربيع وقصّ عليه رُؤياه ، فقال الربيع : ياأمير المؤمنين ، إن شريكا مخالفٌ لك وإنه فاطمىٌّ محض ، قال المهدى : علىّ به ، فلما دخل عليه ، قال له : ياشريك ، بلغنى أنك فاطمى . قال له شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى ، إلا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ، قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد (ص) قال : أفتلعنها ياأمير المؤمنين ؟ قال : معاذ الله؛ قال : فماذا تقول فيمن يلعنها ؟ قال عليه لعنة الله ، قال : فالعَنْ هذا — يعنى الربيع — فإنه يلعنها ، فعليه لعنة الله ، قال الربيع : لا والله ياأمير المؤمنين ما ألعنها ، قال له شريك : ياماجن فما ذكرك لسيدة نساء العالمين ، وابنة سيد المرسلين فى مجالس الرجال ؟ قال المهدى : دعنى من هذا فإنى رأيتك فى منامى كأنّ وجهك مصروف عنى وقفاك إلىّ ، وما ذلك إلا لخلافك علىّ ، ورأيت فى منامى كأنى أقتل زنديقا ، قال شريك : إن رؤياك ياأمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وإن الدماء لاتُستحل بالأحلام ، وإن علامة الزندقة بيّنة ، قال وما هى ؟ قال : شرب الخمر والرّشا فى الحكم ... قال صدقت والله أبا عبد الله ، أنت والله خير من الذى حملنى عليك (١) .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٢ : ١٧٨ — ١٧٩

مع البرامكة :

مات الربيع بن يونس أو قتله الهادى ، ولكن مؤامراته ودسائسه لم تتوقف بموته ، لأن الفضل ابنه كان قد حذق هذا الفن ، واستطاع أن يبرهن على أن الولد سرّ أبيه ، وكان الفضل قد شب فى قصر المنصور ، وانحدر منه إلى قصر المهدى ، ورأى أباه يشى ويدبر المؤامرات ،فنهج نهجه ، وسار سيرته ، ومن يشابه أباه فما ظلم ؛ ولكن الفضل امتاز عن أبيه بشىء ، هو أن الأحداث التى قام بها كانت بعيدة المدى ، قوية الصدى ، قاسية النتائج ، فإذا كان أبوه قد تآمر ضد أبى أيوب المورياني ، وأبى عبيدالله معاوية بن يسار ، وشريك القاضى ، فإن مؤامراته كانت ضد أفراد معدودين ، ولم تتسع شهرتها ، أما مؤامرات الفضل فقد كانت ضد البرامكة ، وأثارت الخلاف بين الأمين والمأمون ، ذلك الخلاف الذى ذهب ضحيته آلاف الناس وفيهم الأمين نفسه ، ومثلُ هذه المؤامرات والأحداث ، فضلا عن أنها فتكت بالكثيرين ، اتخذت شهرة واسعة ، حتى ليوشك الإنسان أن يدعى أن غالبية المثقفين فى بقاع الأرض يعرفون عنها كثيرا أو قليلا ، وبخاصة أولئك الذين لهم صلة ما بالدراسات الإسلامية .

ونكبة البرامكة موضوع مطروق لجمهرة من الكتاب والمؤرخين ، وقد كتبوا فيه كثيرا جدا ، والتُمِست العلل والأسباب التى حدتْ بالرشيد إلى أن يوقع بهم ؛ ولذلك أبادر قبل سرد آراء الآخرين فأسائل نفسى : هل من الممكن أن نضيف جديدا إلى ما قيل عن ذلك الموضوع ؟ . . وأجيب بشىء من الثقة والأمل ، أن هذا ممكن ، وأن طبيعة الدراسة التى نقوم بعرضها فى هذا الكتاب توحى لنا بهذا الجديد .

فاولا : جهد المؤرخون والكتاب فى تعرف الأسباب التى دعت الرشيد أن ينكل بالبرامكة ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وأنا أقول إن هذا الاختلاف ، وذلك التلمس للعلل ، يجعلنى أعتقد أنهم كانوا أبرياء، وهذه البراءة أوقعت المؤرخين فى حيرة ؛ لأنهم لم يتصوروا أن قسوة كهذه تنزل بقوم أبرياء بين عشية أو ضحاها ، فراحوا هنا وهناك ينقبون، ويتسقطون الأخبار ، ويتلمسون الدوافع ، ولو كشف عنهم لعلموا أن الرشيد نفسه لم يكن يعرف لما ارتكب سببا جوهريا ؛ ولو فكروا لأدركوا أن الإيقاع بالبرامكة لم يكن أشد عنفا من الإيقاع بأبى سلمة الخلال ، وأبى مسلم الخراسانى ، وأبى أيوب الموريانى ، وغيرهم ممن تنوسى فضلهم على العباسيين ، ثم نُـكّـل بهم وبذويهم أشد ما يكون التنكيل ، وأقسى ما يكون الإيقاع ، دون جريرة تستدعى ذلك ، أو ذنب يقتضيه ؛ ومما يؤيد هذا الاتجاه ما أورده ابن خلكان :[1] أنه لما مات الفضل بن يحى وُجد فى جيبه رقعة كتب فيها بخطه : قد تقدم الخصم [يقصد نفسه] والمدعَى عليه [يقصد الرشيد] فى الأثر ، والقاضى هو الحكم العدل الذى لا يجور ولا يحتاج إلى بينة . فحملت هذه الرقعة إلى الرشيد ، فلما قرأها لم يزل يبكى يومه كله ، وبقى أياماً يتبين الأسى فى وجهه ؛ إذ كان يدرك أنه معتد فيما أوقع بالبرامكة من تنكيل ، دون داع أو سبب .

وثانيا ــ أحب أن أبرز حقيقة هامة هى أن الذى يستعرض أحداث هذا العصر ، يدرك أن البرامكة إذا قيسوا بسواهم من أعلام هذه الفترة كانوا بلا شك أعظم حظاً وأوفر نصيباً من نعيم الحياة ،

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٣٢٥

وإلا فقل لى بربك : مَنْ من وزراء هذا العهد وكبار رجاله غفل عنه الزمن مدة كهذه ، وامتد له الجاه ، دون تعثر طيلة أكثر من نصف قرن من الزمن ؟ . لقد ظهر البرامكة مع ظهور الدولة ، وبدأ نجمهم يتألق منذ سنيها الأولى ، ونالوا من بسطة الحياة ونعيم العيش ما لم ينله سواهم حتى سنة ١٨٧ هـ حيث أوقع الرشيد بهم ؛ فماذا نرى إذا قسنا هؤلاء بأبى سلمة الخلال ، الذى قتل فى نفس العام الذى بدأ فيه النصر ؛ وبأبى مسلم الخراسانى ، الذى نكب ، ودم كفاحه من أجل الدولة لا يزال يقطر من سيفه ؛ وبالفضل بن سهل ، الذى غُدِر به دون أن يجنى أية ثمرة لجهاده الطويل..؟

لا نزاع بعد هذا أن السؤال لا ينبغى أن يكون : لماذا أوقع الرشيد بالبرامكة ؟ بل يجب أن يكون : كيف أفلت البرامكة من عسف المنصور ؟ ولِمَ لَمْ يُرْمَ أحد منهم بالزندقة فى عهد المهدى ؟ . ولماذا غفل عنهم الرشيد سبعة عشر عاما وهو السريع التغير الحاد المزاج ؟ . .

وثالثاً — لم يقتل الرشيد من البرامكة إلا جعفر بن يحيى ، ثم سجن آخرين ؛ وهذا فى تاريخ تلك الحقبة أيسر أنواع التنكيل ، فعهدنا بالإيقاع أن يُقتَل مع الرجل أهله وذووه ؛ وإذاً فلماذا برزت نكبة البرامكة وفاقت فى الشهرة سواها من النكبات والمؤامرات ؟ . . أرى أن الجواب هو أن شهرة الرشيد التى سارت بها الركبان ، أخذت معها شهرة هذه النكبة ، ولولا ما أتيح للرشيد من شهرة عالمية لم تتح لسواه ، وصيت ذائع لم يتوافر لغيره ، لظلت نكبة البرامكة حدثاً عادياً محدود الانتشار .

وقد نال البرامكة من المؤرخين كامل العناية والاهتمام ، وقد صورهم

ابن طباطبا تصويراً بلغ الغاية أو تجاوزها فهو يطلق عليهم «الدولة البرمكية» ، ويبتدىء حديثه عنهم بكلمة قصيرة رائعة ، هاك نصها : اعلم أن هذه الدولة كانت غُرّة فى جبين الدهر . وتاجاً على مفرق العصر ، ضُربت بمكارمها الأمثال ، وشُدّت إليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ، وبَذَلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسعادِها ، فكان يحي وبنوه كالنجوم زاهرةً والبحار زاخرةً ، والسيول دافعةً ، والغيوث ماطرة ؛ أسواقُ الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية، والدنيا فى أيامهم عامرة، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللّهف، ومعتصَم الطريد [1] .

وينسَب البرامكة إلى جدهم برمك ، وكان برمك هذا كاهن بيت النار بمدينة بلخ ، فكان يقوم بالاشراف على هذا البيت ، كما كان قصى وأولاده من بعده يقومون بسدانة الكعبة فى الجاهلية [2] والبرامكة بهذا ينتمون إلى أصل فارسى عريق ، إذ كان جدهم يقوم بأجل وأشرف عمل فى دولة الفرس قبل الإسلام .

وخالد بن برمك أول برمكى اتصل بالعباسيين ، وكان فى عسكر قَحْطَبَة ابن شبيب الذى سبق الحديث عنه فى الفصل السابق ، وكان خالد يتقلد خراج كل ما افتتحه قحطبة من الكور ، وتقلد الغنائم وقسمها بين الجند ، فكان يقال : إنه ما من أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يدٌ ومنّة ، لأنه قسّط الخراج ، فأحسن فيه إلى إهله ؛ وكان خالد مع قحطبة على سطح من سطوح منازل القرية ، التى بها عسكرهم ، فرأى خالد قطعان الوحش تقبل

---

(١) الفخرى ١٢٣

(٢) دكتور حسن ابراهيم ٢ : ٤٩

نحو هذه القرية ، فقال لقحطبة : أيها الأمير قد أُتينا فر من ينادى بالسلاح، فعجب قحطبة منه وسأل : كيف عرفت ذلك . ؟ فقال خالد : لا تتشاغل بكلامى ، ومُرْ بالنداء ، ففعل ، وما هى إلا فترة قصيرة حتى ظهر جيش أموى يقوده البطل « ابن ضُبَارة » ، وانتهت المعركة بهزيمة الأمويين وقتل قائدهم ، وسُئِل خالد : كيف عرفت خبر مقدم جيش الأمويين . .؟ فأجاب : رأيت الوحش ينفر نحونا فعلمت أن شيئاً عظيما أخافه وأذعره . ولما قُتل ابن ضبَارة غلط قحطبة فأرسل رأساً غير رأسه إلى أبي مسلم ، ثم عُرِف رأس ابن ضبارة ، فأراد قحطبة أن يوجه به ، فمنعه خالد بن برمك وقال : إن فعلت ذلك أبطلت الأول والثانى (١) .

ولما عقدت البيعة لأبى العباس ، وحضر خالد بن برمك لمبايعته ، أُعجب السفاح بفصاحة ، فقال له : ممن الرجل ؟ . قال : مولاك خالد بن برمك ، وقص عليه قصته ، وقال أنا كما قال الكميت بن زيد :

وما لى إلا آلَ أحمدَ شيعةٌ ... ومالى إلا مذهبَ الحق مذهبُ

فأعجب به أبو العباس ، وأقره على ما كان يتقلد من الغنائم ، وجعل إليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند ، وكثر فيه حامده وحسن أثره ، وكان سبيل ما يُثبَت فى الدواوين أن يُثبت فى صحف ، فكان خالد أول من جعله فى دفاتر (٢) .

ولما قُتل أبو سلمة الخلال أصبح خالد وزيراً للسفاح ، ويقال إنه تشاءم من لقب الوزارة فلم يقبله ، وإن كان يقوم بأعمال الوزير ، ولم يزل

---

(١) الجهشيارى ٨٧ ــ ٨٨ بتصرف فقد أورد مسألة الرأس قبل الحديث عن المعركة
(٢) الجهشيارى ص ٨٩

على وزارة السفاح حتى توفى هذا ، وتوفى أخوه المنصور ، فأقر خالداً على وزارته ، فبقى سنة وشهوراً ، وكان أبو أيوب الموريانى قد غلب على المنصور، فاحتال على خالد بأن ذكر للمنصور تغلبَ الأكراد على فارس ، وأنه لايكفيه أمرَها سوى خالد ، فندبه إليها ، فلما بَعُد خالد عن الحضرة ، استبد أبو أيوب بالأمر كما سبق [1].

ويقول المسعودى [2] : إنه لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده فى جَوْدة رأيه ، وبأسه ، وجميع خلاله ؛ لا يحيى فى رأيه ، ولا الفضلُ ابن يحيى فى جوده ، ولا جعفرٌ فى كتابته وفصاحته ، ولا محمدٌ فى رأيه وهمته ، ولا موسى فى شجاعته .

قال الجاحظ : وحدثنى ثمامة قال : كان أصحابنا يقولون « لم يكن يرى لجليس خالد دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرَها إن كانت حرة ، ولا دابةٌ إلا وخالد حمله عليها » . وكان خالد أول من سمى المستميحين الزُّوَّار ، وكانوا يسمون قبل ذلك السؤَّال ، فقال خالد : أنا أستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف [3] .

أما عن يحيى بن خالد ، فقد كان محظوظا فى بلاط المنصور والمهدى ، وقد تربى الرشيد فى حجره ، ورضع لبان زوجته ، وأغدق عليه يحيى حبه وعطفه وحنانه ، ومن أجل هذا كان الرشيد يناديه أباه ، ولما شب الرشيد

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٠٦

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٨٢

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٠ والأغانى ٣ : ٣٦

وضعه المهدى تحت كفالة يحيى ، فأحسن هذا تربيته ، ثم أقره الهادى على وضعه أثناء خلافته ، فكان يحيى للرشيد صفيا وأبا رحيما ، وقد استطاع أن يدفع عنه الهادى حينما أراده أن يخلع نفسه ليولى ابنه مكانه ، وقد سجنه الهادى لذلك .[1]

فلما تقلد هارون الخلافة ، دعا يحيى بنَ خالد فقال له : يا أبت ، أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، فإنى غير ناظر معك فى شىء ؛ ودفع إليه خاتمه[2] ، فنهض يحيى ابن خالد بأعباء الدولة أتم نهوض ، وسدّ الثغور ، وتدارك الخَلَلَ ، وجبى الأموال ، وعمّر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة ، وكان كاتباً بليغاً ، لبيباً سديدا ، صائب الآراء ، حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قويا على الأمور ، جواداً يبارى الريح كرما وجوداً ، ممدَّحا بكل لسان ، حليماً عفيفاً ، وقوراً مهيباً ، وله يقول القائل :

لا ترانى مصافحا كف يحيى ... اننى إن فعلت ضيعت مالى
لو يمس البخيل راحة يحيى ... لسخت نفسه ببذل النوال[3]

وكان يحيى يحظى بعطف الخيزران وإقبالها عليه ، وتحبب ابنها فيه ، ومن أجل هذا كان يحيى يعرض عليها أمور الدولة ، ويُورد ويُصدر عن أمرها ،

---

(١) ابن خلدون : العبر ٣ : ٢٢٣
(٢) الجهشيارى ١٧٧ ، وابن الأثير ٦ : ٣٦
(٣) الفخرى ١٧٣ — ١٧٤

فلما ماتت الخيزران سنة ١٧٣ ﻫ استقل يحيى بالأمر ، وأصبح يورد ويصدر عن رأيه .[1]

ومن أعمال يحيى أنه شق نهراً كان يسمى أبا الجنة ، فازدهرت بسببه أرض واسعة كانت جرداء ، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين، وتقدم بحمله من مصر إليهم ، وأجرى على المهاجرين والأنصار ، وعلى أهل الدين والآداب واتخذ كتاتيب لليتامى .[2]

وكان ليحيى بن خالد أبناء أربعة ،هم الفضل وجعفر ومحمد وموسى ، وكلهم سادة نجب ، وعباقرة أمجاد ، وسنذكر عن كل منهم كلمة قصيرة :

الفضل بن يحيى : كان الفضل من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره ، وكان قد أرضعته الخيزران أم الرشيد ، وأرضعت أمُّه زبيدة بنتُ منير الرشيدَ ، وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

كفى لك فخراً أن أكرم حرة غذتك بثدي والخليفةَ واحدِ
لقد زنت يحيى فى المشاهد كلها كما زان يحيى خالداً فى المشاهدِ[3]

وكان الرشيد يدعوه « أخى » وقد أولاه الخاتم ، ثم رأى أن ينقل الخاتم إلى جعفر ، إذ كان الفضل متزمتاً لا يشرب النبيذ ، ولا يميل إلى المرح ، فكان ذلك يباعد بينه وبين الرشيد ، فقال الرشيد ليحيى : إنى احتشمت أن أكتب لأخى الفضل ليعطى الخاتم لجعفر فاكفنيه ؛ فكتب

---

(١) الجهشيارى ١٧٢ وابن خلدون ٣ : ٢٢٣
(٢) الجهشيارى ١٧٢
(٣) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ ـ ٤٠٩ والفخرى ١٧٧

يحي إلى الفضل يقول : قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك ؛ فكتب إليه الفضل : قد سمعت مقالة أمير المؤمنين فى أخى ، وأطعت ، وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه (١) .

وكان الفضل لا يشرب النبيذ مع شيوعه وكثرة شاربيه فى ذلك الحين ، وأثر عنه قوله فى ذلك : لو علمت أن الماء يَنقُص مروءتى ما شربته أبدا (٢) .

وفى سنة ١٧٢ هـ ظهر يحي بن عبدالله ببلاد الديلم على ما سلف ذكره ، وقوى أمره ، فشق ذلك على الرشيد ، فأنهض إليه الفضل ، وقد استطاع الفضل بدهائه أن يستنزل يحي من حصونه بعد أن أمّنه ووعده وأوعده ، وقدم به على الرشيد فأكرمه الرشيد ، كما أبَرَّ الفضلَ وشكر فعله (٣) .

وفى سنة ١٧٦ هـ قلده الرشيد المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك فشخص إلى عمله سنة ١٧٨ ، وودعه الرشيد والأشراف والوجوه وساروا معه ، فلما وصل إلى خراسان ، أزال سيرة الجور ، وبنى المساجد والحياض والربط ، وأحرق دفاتر البقايا ، وزاد الجند ، ووصل الزوار

---

(١) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ ـ ٤٠٩
(٢) الجهشيارى ١٩٤
(٣) الجهشيارى ١٩٠

والقواد والكتاب ، فاستقرت الأمور هناك واستقامت [1] .

وبلغ كرم الفضل الغاية حتى مدحه أحد الشعراء بقوله :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء
علّم المفحَمين أن ينطقوا الشعـ ـر رصيناً ، والباخلين السخاء [2]

وكان الرشيد يثق فيه ويجله ، ومن أجل هذا جعل محمداً ابنه فى حجره ، وأسكنه معه فى قصره المعروف بالخلد وضم إليه أعماله ودواوينه [3] .

جعفر بن يحيى : كان جعفر بن يحيى فصيحاً لبيباً ، ذكياً فطناً ، كريماً حليماً ، وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر ، وجِدِّ أخيه الذى غلب عليه ، فنقل له الخاتم على ما مرَّ ذكره ، فصار جعفر متمكناً عند الرشيد ، غالباً على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى ليقال إن الرشيد اتخذ ثوباً أفضفاضاً ، كان يدخله هو وجعفر جميعاً بلابسهما ، وقلَّده الرشيد بريد الآفاق ، ودور الضرب والطرز فى جميع الكور [4] .

وقد وصف ابن مناذر الألفة بين الرشيد وجعفر بقوله :

قد تُقطع الرحم القريب وتُكفَر النُّـ ـعمى ولا كتقارب القلبين
يُدنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى فإذا هما نفس ترى نفسين [5]

(1) ابن خلكان ١ : ٤٠٩
(2) الجهشيارى ١٩٥
(3) المرجع السابق ١٩٣
(4) الجهشيارى ٢٠٤ وابن خلكان ١٠٧
(5) الأغانى ١٧ : ٢٦

والذى يتطلع إلى الفضل بن يحيى وأخيه جعفر يجد أنهما تقاسما حياة الرشيد ومملكته ، ورُدَّت لهما جميع الأمور فيها ؛ فبينما كان المشرق كله للفضل كما سبق ، كان المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية إلى جعفر ، وقد قُلّده سنة ١٧٦ بالاضافة إلى عمله مع الرشيد ، وقد أقام جعفر مع الرشيد وأناب عنه من أدار هذه البقاع الشاسعة [١] . ثم كما كان محمد الأمين فى حجر الفضل كان عبد الله المأمون فى حجر جعفر ، وقد اهتم به جعفر كل الاهتمام ، وأشار على الرشيد أن يبايع له بالعهد بعد محمد ، وقام بالأمر حتى عقده له ، وأخذ الإيمان على بنى هاشم بذلك ، وكتب به إلى العمال [٢] .

وقد امتاز جعفر بمكانة خاصة لأنه كان سلساً يعرف الجد واللهو ، فكان بذلك أقرب إلى نفس الرشيد من أخيه كما مر ، وقد وصل جعفر إلى مكانة من الرشيد أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ومما يدل على ذلك قصته مع عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس وقد رواها الجهشيارى [٣] والأصفهانى [٤] وابن خلكان [٥] وابن طباطبا [٦] . وهاك موجزاً لها :

قال إبراهيم بن المهدى : جلس جعفر بن يحيى يوما للشرب . وأحب الخلوة ، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، وجلس معهم ، فكنت فيهم ، وقد هيء المجلس ولبسنا الثياب المصبغة . [وكانوا إذا جلسوا فى مجلس

---

(١) الجهشيارى ١٩٠

(٢) المرجع السابق ٢١١

(٣) الوزراء والكتاب ٢١٢ -- ٢١٤

(٤) الأغانى ٥ : ١١١ — ١١٢

(٥) وفيات الأعيان ١ : ١٠٦

(٦) الفخرى ١٨١ — ١٨٢

الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر.]

ثم إن جعفر بن يحيى تقدم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد سوى رجل من الندماء كان قد تأخر اسمه عبد الملك بن صالح، ثم جلسنا نشرب، ودارت الكئوس وخفقت العيدان، فجاء فى هذه الساعة عبد الملك بن صالح بن على الهاشمى، وكان شديد الوقار والدين والحشمة، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه، وبذل له على ذلك أموالا جليلة فلم يقبل، فكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه. فأدخله الحاجب ظانا أنه عبدالملك الذى أذن له جعفر بادخاله؛ فلما دخل عبد الملك ورآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب، وأدرك عبد الملك الحرج الذى وقع فيه جعفر وأصحابه، فدعا غلامه وناوله سواده وقلنسوته، وأقبل على المجلس وسلّم وقال: افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم، فدنا منه خادم فألبسه حريرة، وجاء فجلس ودعا بطعام فأكل، ودعا بنبيذ فأتوه برطل فشرب، وقال: ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا؛ ثم باسطنا ومازحنا، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحي وزال انقباضه وحياؤه. فلما أراد الانصراف قال له جعفر: سل حاجتك فما تحيط مقدرتى بمكافأة ما كان منك؛ فقال: إن فى قلب أمير المؤمنين سخطا، فتسأله الرضا عنى؛ فقال جعفر: قد رضى عنك أمير المؤمنين. قال: وعلىّ... و... و٤ درهم، قال جعفر: إنها لعندى حاضرة، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين فإنها أنبل لك، وأحب إليك؛ قال: وإبراهيم ابنى أُحِب أن أشد ظهره بصهر من أولاد الخلافة؛ قال: قد زوّجه أمير المؤمنين العالية ابنته؛ قال: وأحب أن

يخفق لواء على رأسه ؛ قال : قد ولاّه مصر . وانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على ذلك ، فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وابراهيم بن عبد الملك وخرج ابراهيم وقد خُلع عليه وزوّج ، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك ، وخرج جعفر ، فأشار إلينا باتباعه إلى منزله ، فلما صرنا إليه قال : تعلقت قلوبُكم بأول الحديث من أمر عبد الملك فأحببتم علم آخره ، فإني لما دخلت على أمير المؤمنين ، ابتدأتُ القصة كما كانت من أولها إلى آخرها بدون تغيير ، فجعل يقول : أحسنَ والله ، حتى إذا أتممت خبرَه قال : ماصنعتَ به ؟ . فأخبرته بما سأله ؛ فجعل يقول : أحسنتَ ، أحسنت .

ولما هاجت العصبية بالشام سنة ١٨٠ ﻫ قال الرشيد لجعفر : إما أن تخرج إليها ، أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : أنا أقيك بنفسي : وشخص لها ، فسكّن الفتنة ، وأعاد الناس إلى الأمن والسكون [١] .

وقد زاد اتصال جعفر بالرشيد ، وأصبح يدخل معه فى كل أمر من أموره ، فى الجد واللهو على السواء ، وقد تخوف يحيى على جعفر من ذلك ، وقال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إني أكره مداخل جعفر ، ولست آمَنُ أن ترجع العاقبة عليه فى ذلك منك ، فلو أعفيته ، واقتصرت به على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكان أحبّ إليّ ، وآمن عليه عندى ؛ فطمأنه الرشيد ، وقال له : لا عليك يا أبت [٢] .

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٠

(٢) الجهشيارى ٢٢٤ — ٢٢٥

وقبل أن ندع يحيى وابنيه هذين نسوق عنهم القصة الطريفة التالية :

قال أبو القاسم الزُّهرى : كنت أسير مع يحيى بن خالد وهو بين ابنيه الفضل وجعفر ، فإذا بأبي اليَنْبَغِيّ العباس بن طرخان واقف على الطريق فنادانى : يازهرى ، فاستشرفت له ، فقال :

صحبتُ البرامك عشرا ولاً[1]   وبيتى كراء وخبزى شرا

فسمعه يحيى ، فالتفت إلى الفضل وجعفر وقال : أسمعتما .؟ قال الزهرى: فلما كان من الغد جاءنى العباس فقلت له : ويحك ! ما هذا الذى عرّضت له نفسك بالأمس ؟ . فقال : اسكت ، ما هو إلا أن انصرفتُ إلى منزلى ، حتى جاءتنى من قبل الفضل بَدْرة ، ومن قبل جعفر بَدْرة ، ووهب لى كل واحد منهما دارا ، وأجرى لى ما يكفينى[2].

محمد و موسى : كان هذان من سادة رجال العصر وأمجاده ، ولكنهما لم يصلا إلى مركز الفضل وجعفر ، وقد وصفهما إبراهيم الموصلى مع الفضل وجعفر بقوله : أما الفضل فيرضيك بفضله ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل ما لا يجد[3].

وفى الإخوة الأربعة يقول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهمُ   أربعة ، سيد ومتبوع

---

(١) ولاً : متوالية .
(٢) الجهشيارى ٢٠١ — ٢٠٢
(٣) الجهشيارى ١٩٨

الخير فيهم إذا سألت بهم مفرّق فيهمُ ومجموع .[1]

وكان ليحيي ابن خامس يسمى ابرهيم ، توفى وسنه تسع عشرة سنة ، فلم يكن له دور فى إدارة الدولة ومناصبها ، ومما يتصل به أن يحيى أحضر يوما المؤدبين والمشرفين الذين ضم إليهم ابنه هذا وسألهم : ما حال إبرهيم؟ فقالوا : قد بلغ من الأدب كذا ، ونظر فى كذا ، واتخذنا له من الضياع .. قال : ما عن هذا سألت ، هل اتخذتم له فى أعناق الرجال مِنناً ؟ فسكتوا ؛ فقال يحيى : لقد قصرتم ، هو إلى هذا أحوج ، وأمر بحمل ٥٠٠٫٠٠٠ درهم وتفريقها باسمه فى الناس[2].

هذا هو يحيى وهؤلاء هم أولاده ، كواكب ذلك العهد ، وسادة هذا العصر غير منازعين ، وبينما كان هؤلاء يشغلون هذه المكانة السامية كان الفضل بن الربيع يدس عليهم ، ويشى بهم ، ويؤلب الرشيد وأهله ضدهم على ما سيجيء مفصلا ، وكانت النتيجة لتلك الوشاية أن بدت من الرشيد مظاهر الفتور تجاه البرامكة ، وفيما يلى صور لذلك الفتور :

فى سنة ١٧٩ ﻫ صرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته ، وقلدها الفضل بن الربيع ؛ وكانت أهمية هذا — بالإضافة إلى الانحراف عن البرامكة — أن تمكن الفضل بن الربيع من الخليفة ، وأصبح بحكم منصبه من المقربين إليه المتصلين به وبأهله ، فمكن هذا للفضل ولدسائسه ، وجعل الرشيد أقرب إلى الاستجابة له[3] .

---

(١) المسعودى ٢ : ٢٨٢

(٢) الجهشيارى ١٨٠

(٣) انظر الوزراء والكتاب ص ٢٣٣

وفى تفس السنة عاد الفضل بن يحيى من خراسان ، فاستعمل الرشيد منصور بن يزيد بن مزيد خال المهدى ، وأخذ الرشيد يصرف الفضل عن الأعمال شيئاً فشيئاً ، ثم ظهر من الرشيد فى سنة ١٨٣ﻫ سخط على الفضل ، فشخص إليه إلى الرَّقَّه ، ومعه أمُّه زبيدة بنت منير ، فرضى عنه ، وأقره مع الأمين لحضانته ، ولم يردّ إليه شيئاً من أعماله [١] .

وكان يحيى بن خالد يدخل على الرشيد بغير إذن ، فدخل عليه يوماً وعنده جبريل بن بختيشوع الطبيب ، فسلّم ، فرد الرشيد رداً ضعيفاً ؛ ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال : أيدخل عليك منزلك أحدٌ بدون إذن ؟ . فقال : لا . قال فما بالنا يُدخل علينا بدون إذن ؟ . . فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ما ابتدأت ذلك الساعة ، ولكن أمير المؤمنين خصنى به ، حتى أن كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه ، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ، وإذ قد علمت ، فإنى سأكون فى الطبقة التى تجعلنى فيها ؛ فاستحى هارون ، وقال ما أردت ما تكره [٢] .

وحدث بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد من مدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عَرْض دجلة ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول ، وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ، فقال : جزى الله يحيى بن خالد خيراً ، تصدى للأمور وأراحنى من الكد ، ووفّر أوقاتى على اللذة ، ثم دخلت عليه وقد شرع يتغير عليهم ، وكان الفضل بن الربيع

---

(١) الجهشيارى ٢٢٧ وابن الأثير ٦ : ٤٩

(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٨

بين يديه فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحي بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها إلا اسمها ! ؛ قال : فعلمت أنه سينكبهم ، ثم نكبهم عقيب ذلك [1] .

كان هذا الفتور وذلك الانحراف أول ثمرة يجنيها الفضل بن الربيع لوشايته وإفساده ما بين الرشيد والبرامكة ، ولكن الفضل لم يكتف بذلك ، بل استمر يشى ويأتمر حتى كلل سعيه بالظفر ووصل إلى الغاية التى أجهد نفسه من أجلها ، وتمت نكبة البرامكة ، التى يرويها المؤرخون كما يلى :

كان الرشيد قد حج ومعه جعفر بن يحي ، فلما عادا من الحج ركبا السفن من الحيرة إلى الأنبار ، ثم صحبه جعفر إلى قصر الخلافة بالأنبار ، وهناك ضمه الرشيد وقال له : لولا أنى أريد الجلوس الليلة مع النساء لم أفارقك ؛ فصار جعفر إلى منزله وواصل الرشيد الرسل إليه بالألطاف إلى وجه السحر ، وحينئذ استدعى الرشيد غلامه مسروراً . (وقيل إنما استدعى غلامه ياسراً) وقال : قد انتخبتك لأمر لم أر له محمداً ولا عبدالله ، فحقق ظنى واحذر أن تراجعنى فتهلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، لو أمرتنى بقتل نفسى لفعلت ؛ قال : اذهب إلى جعفر ابن يحي وجئنى برأسه الساعة . فوجم لا يحير جواباً ، فقال له : مالك ؟ ويلك ! ! قال : الأمر عظيم ، وددت أنى مت قبل وقتى هذا ، فقال : امض لأمرى ، فمضى حتى دخل على جعفر وأبو زكار يغنيه :

فلا تبعَد فكل فتى سيأتى عليه الموت يَطرُق أو يُغادى

---

(١) الجهشيارى ٢٢٥ ـ ٢٢٦ والفخرى ١٨٤

وكل ذخيرة لابد يوماً وإن بقيت تصير إلى نفاد
ولو فوديت من حدث الليالى فديتك بالطريف وبالتلاد

فقال جعفر: يامسرور، سررتنى بإقبالك وسؤتنى بدخولك من غير إذن، فقال: الأمر أكبر من ذلك، أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك فقد أمرنى أن آتيه برأسك؛ فوقع جعفر على رجليه يقبلهما، وقال: عاود أمير المؤمنين، فإن الشراب قد حمله على ذلك؛ فقال: ما أظنه شرب اليوم؛ قال: دعنى أدخل دارى وأوصى؛ قال: لا سبيل إلى الدخول، ولكن أوص ما بدا لك؛ قال: لى عليك حق، ولا تقدر على مكافأتى إلا الساعة؛ قال: تجدنى سريعاً إلا فيما يخالف أمر أمير المؤمنين؛ قال: خذنى معك، وأعلمه أنك نفذت أمره، فإن ندم أخبرته بالحقيقة، وإن أصرّ عدت فنفذت ما يريد؛ قال: أما ذلك فنعم. وسار به إلى الرشيد، ثم تركه بحيث يسمع، ودخل على الرشيد فأخبره بقتله، فصاح الرشيد: وأين رأسه يا ابن اللخناء؟. فعاد مسرور إلى جعفر فضرب عنقه وحمل إلى الخليفة رأسه (١).

ووجّه الرشيدُ مَنْ أحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه، وحُوِّل الفضل ابن يحيى ليلا فحبس فى بعض منازل الرشيد، وحبس يحيى فى منزله، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك، وأرسل الرشيد من ليلته إلى سائر البلاد فى قبض أموالهم ووكلائهم، ورقيقهم وأسبابهم وكل مالهم،

(١) الجهشيارى ٢٣٤ والمسعودى ٢ : ٢٨٨-٢٨٩ وابن الأثير ٦ : ٥٨ وابن خلكان ١ : ١٠٩ والفخرى ١٨٦

فلما أصبح أرسل جيفة جعفر إلى بغداد وأمر أن يُنصَب رأسه على جسر، ويُقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر [1].

ولم يوجد ليحيى بن خالد إلا خمسة آلاف دينار، وللفضل إلا أربعون ألف درهم، ووجد لمحمد بن يحيى سبعمائة ألف درهم، ولم يوجد لموسى شيء ولا لجعفر شيء [2].

تلك كانت نكبة البرامكة، فما أسبابها؟ وأحب قبل أن أروى هذه الأسباب أن أذكر أنها لو كانت أسباباً واضحة ترتبت عليها هذه الكارثة لأوردناها قبل إيراد الحادثة نفسها، ولكن الواقع أن نكبة البرامكة تمت، ثم أخذ المؤرخون يتلمسون العلل والأسباب لها بعد حدوثها، فلعل ما نسير عليه هنا هو تصوير للواقع كما كان. أما هذه الأسباب فإليك عنها البيان:

مسألة العباسية: رُوى أن الرشيد كان شديد التعلق بجعفر، ولم يكن له صبر عنه وكان الرشيد أيضاً شديد المحبة لأخته العباسة، وكانت من أعز النساء عليه، ولا يقدر على مفارقتها؛ فكان إذا غاب أحدهما (جعفر أو العباسة) لا يتم له سرور، فرأى أن يُزَوِّج جعفرُ من العباسة ليحل لهما أن يجتمعا، ولكنه اشترط على جعفر أن يكون هذا الزواج لهذا الهدف فقط، وحرم عليه الاجتماع بالعباسة دون أن يكون هو ثالثهما، فتزوجها على ذلك، وظل الحال على ذلك مدة دون أن يرفع جعفر فيها عينَه، ودون

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٨

(٢) الجهشيارى ٢٤١

أن يتبين وجهها ، ثم أرادت العباسة أن تلتقي بزوجها وتخلو به ، ولمحَت له بذلك ، فأعرض كل الإعراض ، فلما أعيتها الحيلة بعثت إلى عتَّابة أم جعفر ، وطلبت منها أن تقدمها إلى ابنها جعفر كأنها جارية من جواريها ، فامتنعت عتابة ، ولكن العباسة طمأنتها وأنذرتها وأغرتها حتى قبلت ، ووعدت ابنها بأنها ستقدم إليه جارية لا ككل الجوارى ، فتعجَّلها جعفر ، وأخذت تسوِّف حتى تشوق جعفر ، فقالت -بعد أن اتفقت مع العباسة- : سأقدمها لك الليلة ؛ فشرب جعفر بعض النبيذ ، والتقى بالجارية الفاتنة ، وتم بين الزوج والزوجة اللقاء ، ثم قالت العباسة له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟ . . قال : وأى بنات الملوك أنت . ؟ . قالت : أنا مولاتك العباسة ؛ فذُعِر جعفر ، وذهب إلى أمه وقال لها : بعتنى والله رخيصاً ، واشتملت العباسة منه على ولد ، وتمارضت حينما ظهر بها الحمل ، ثم استأذنت فى الذهاب للحج فذهبت ووضعته هناك ، وعادت بعد أن وكلت أمره إلى غلام وحاضنة .[1]

حكاية يحيى بن عبدالله : سبق لنا أن تحدثنا عن يحيى بن عبد الله ، وكيف استنزله الفضل وأغراه بالاستسلام بعد أن قوى أمره ببلاد الديلم ، وكتب الرشيد له أمانا ، واستقبله استقبالا حسناً ، ثم وُشىَ بيحيى بن عبدالله فقبض عليه الرشيد وحبسه عند جعفر ، ولما خاف يحيى بن عبد الله أن يفتك الرشيد به

---

(١) المسعودى ٢ : ٢٨٦ — ٢٨٧ وابن الأثير ٦ : ٥٧ وابن خلكان ١ : ١٠٧ والفخرى ١٨٥

اتصل بجعفر وقال له : اتق الله فى أمرى ، ولا تتعرض أن يكون غداً خصمك محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما أحدثتُ حدثاً ، ولا آويتُ محدثا ، فرقَّ له ، وقال : اذهب حيث شئت من بلاد الله ؛ قال : فكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ ؛ فوجَّهَ معه من أبلغه مأمنه .(١)

ويرى ابن خلدون (٢) أن نكبة البرامكة كانت ناشئة عن استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب القليل من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور الدولة ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . . . فعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال .

ويروى ابن خلكان (٣) أن سعيد بن سالم سئل عن جناية البرامكة التى استوجبت غضب الرشيد فقال : والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ، لكن طالت أيامهم ، وكل طويل مملول ، والله لقد استطال الناس أيام عمر بن الخطاب وما رأوا مثلها عدلا وأمنا ، وسعة أموال وفتوح ؛ وقد رأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم ، وكثرة حمد الناس لهم ، ورميهم بآمالهم دونه - والملوك تتنافس بأقل من هذا - فتعنَّت عليهم وتجنَّى ،

---

(١) الأغانى ١٧ : ٤٣ وابن الأثير ٦ : ٥٧
(٢) المقدمة ١١ — ١٢
(٣) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨

وطلب مساوئهم ؛ ووقع منهم بعض الإدلال خاصة جعفر والفضل .

تلك هي الأسباب التي يذكرها المؤرخون، وهي كلها كما يبدو لي أسباب ساذجة يمكن نقدها أو نقضها ، ولكن الأسباب الحقيقية كانت خفية فيما أعتقد ؛ إنها تلك اليد التي تعبث في الظلام ، وهذه الأفعى التي تنفث سمها من وراء ستار ، وقد انتبه لذلك ابن خلدون [1] فقال إنه بسبب نبوغ البرامكة وبعد صيتهم ، كُشفت لهم وجوه المنافسة والحقد ،ودب إلى مهادهم الوثير عقارب السعاية ، وقد تولى كبرَ هذا الأمر الفضلُ بن الربيع وأشياع الفضل بن الربيع ، الذين كانوا يختفون خلف هذه الأسباب ، فيعظمون صغيرها ، ويبرزون خفيها لدى ولى الأمر ، وإليك عن هذا بعض التفاصيل :

في أوائل عهد الرشيد كان الأمر كله متروكا للبرامكة ، ولم يكن للفضل ابن الربيع سلطان يذكر ، وكانت الخيزران — صاحبةُ الأمر والنهى في الدولة — تعمل على إبعاده عن القصر ، خوفا منه ومن وشايته وسعايته ، ولما يئس الفضل من استرضاء الخيزران ، أراد أن يتقرب إلى الرشيد عن طريق زبيدة ، فوثّق بها صلته ، وأظهر لها الخضوع والامتثال ، ولكن زبيدة وزوجها الرشيد كانا قليلي النفوذ في حياة الخيزران ، ومن ثم لم ينل الفضل شيئاً يذكر من نباهة الذكر إلى أن توفيت أم الخليفة سنة ١٧٣ هـ ، يقول ابن الأثير [2] في ذلك انه « لما ماتت الخيزران حمل الرشيد جنازتها ، ودفنها في مقابر قريش ، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم الفضل بن الربيع

---

(١) المقدمة ص ١٢

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٤٠

وأخذه من جعفر بن يحيى » ، ويضيف الخضرى[1] : ان الرشيد قال لابن الربيع : وحق المهدى ، إنى كنت لأهم لك بالشىء من التولية وغيرها ، فتمنعنى أمى ، فأطيع أمرها ، نخذ الخاتم من جعفر . وكان بيده نيابة عن والده .

وهكذا بدأ الفضل بن الربيع يزحف ، غير أن البرامكة كانوا أرسخ قدماً ، وأقوى مركزاً من أن يزحزحهم الفضل بيُسْر أو يتغلب عليهم بسهولة ، ومن ثمَّ احتاج إلى جهد كبير ووقت طويل حتى وصل إلى بغيته ، وكان فى حيله واتماره يتمثل اتجاهات أبيه ويترسم خطاه ؛ فكما كان الربيع يتخذ أبان بن صدقة كاتب أبى أيوب المورياني عينا له على أبى أيوب ، كذلك اتخذ الفضلُ إسماعيلَ بن صبيح كاتب البرامكة عينا له عندهم ، وكما كان الربيع يستعين بالقشيرى عدو معاوية بن يسار ، كذلك استعان الفضل بعلى بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة وأوعز إليه أن يشى لدى الرشيد بموسى بن يحيى بن خالد ، ويتهمه أنه يكاتب أهل خراسان ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة فحبسه الرشيد ثم أطلقه[2] .

وهناك سلاح آخر استعان به الفضل بن الربيع ، ذلك هو زبيدة ، وكان الفضل يعرف شغف الرشيد بها ، ويدرك مكانتها لديه ، فعرَّفها الفضل أن من حقها أن تأمر وتنهى فى القصر كما كانت الخيزران تفعل فى حياة زوجها ، وأنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها ما أرادت ، ثم جدتَّ ظروف ولاية العهد ، ومال يحيى وجعفر — كما سبق — إلى العهد

---

(١) تاريخ الدولة العباسية ص ١٦٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٨

للمأمون ، وشدّد جعفر الأيمان فى الكعبة على الأمين بالوفاء لأخيه ، فاتخذ الفضل من هذا فرصة طيبة ، ليغرى زبيدة بهؤلاء ، وليؤكد لها أن هوى البرامكة مع المأمون على الأمين .

وهناك جانب هام من جوانب هذه القضية ، يحدثنا عنه عبد الله ابن سليمان بن وهب فيقول : إن من أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع ، ومن أمثلة هذا التقصير ما روى أن الفضل بن الربيع دخل على يحيى وقد جلس لقضاء حوائج الناس ، فعرض عليه الفضل عشر رقاع ، فتعلّل يحيى فى كل رقعة بعلة ولم يوقع فى شىء منها ، فاضطرب الفضل غيظاً وخرج وهو يقول :

متى وعسى يثنى الزمانُ عنانه ... بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائف ... وتحدث من بعد الأمور أمور[١]

وهكذا اندفع الفضل بن الربيع يضمر السوء فأخذ « يستر المحاسن ويظهر القبائح » كما يقول ابن خلكان[٢] ، ولهذا نجده خلف الأسباب الساذجة التى سبق إيرادها ، فهو الذى كان ينقلها مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، وهو الذى كان يبرز منها ما خفى ويعظم ما صغر :

فى حكاية يحيى بن عبدالله ، عرف الفضلُ قصة إخلاء سبيله عن طريق العين التى كانت له فى قصر جعفر ، فنقل الخبر إلى الرشيد مع التخويف من يحيى بن عبدالله ، والتحذير من أن يصل إلى الديلم فتتجمع

(١) ابن خلكان ١ : ٤١٢
(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨

حوله الجموع هناك مرة أخرى ، وقد حدث أن التقى الرشيد وجعفر على المائدة فى هذا المساء ، فجعل الرشيد يلقّم جعفراً ويحادثه ، ثم سأله عن يحيى؛ فأجاب: هو بحاله فى السجن؛ فقال: بحياتى؟ ففطن جعفر وقال: لا وحياتك وقص عليه أمره ، وقال : علمت أنه لا مكروه عنده ؛ فقال الرشيد : نِعْمَ ما فعلت ، ما عدوت ما كان فى نفسى . فلما قام جعفر . نظر له الرشيد وقال : قتلنى الله إن لم أقتلك (١) .

وفى حكاية العباسة نجد زبيدة — وقد ملأها ابن الربيع حنقاً على البرامكة ورغبة فى التخلص منهم — تقص على الرشيد خبر اتصال جعفر بزوجته ، دون أن تذكر له حيلة العباسة على جعفر فى ذلك ، وتضيف زبيدة : أن رائحة هذه الفضيحة قد شاعت فى جوانب القصر فلم يبق فيه أحد إلا وقد علم بها (٢) .

ولم يكتف الفضل بن الربيع بهذا بل أخذ يدس إلى الرشيد أن البرامكة يعملون للوصول للخلافة ، وأنهم ملاحدة وثنيون يحنّون إلى دين أبيهم القديم ، وأنهم يؤيدون العلويين سرا ، ويودون نقل الخلافة إليهم ، ويوعز إلى مغن أن يغنى الرشيد بهذين البيتين :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعِدْ	وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مَرة واحدة	إنما العاجز من لا يستبد (٣)

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٥٨ — ٥٩
(٢) المسعودى : مروج الذهب : ٢ : ٢٨٧
(٣) أحمد أمين : هرون الرشيد ١٢٢

ودس الفضل كذلك من رفع إلى الرشيد مقطوعة شعرية بدون توقيع، جاء فيها :

قل لأمين الله فى أرضه ومن إليه الحل والعقدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التى ما بنى الـ ـفرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والندّ
ونحن نخشى أنه وارث ملكك إن غيبك اللحد
ولا يباهى العبدُ أربابَه إلا إذا ما ما بطر العبد

قال ابن خلكان : فلما وقف الرشيد عليها أضمر لجعفر السوء[1] .

وكُتب للفضل النجاح ، وتمت نكبة البرامكة ، ولكن العجيب أن الإيقاع بهم لم يشف غلة ابن الربيع، بل ظل يحقد عليهم ويكره ذكراهم ؛ حدَّث أبو العتاهية قال : ما زال الفضل بن الربيع من أميل الناس إلىَّ . وكنت أدخل عليه فأنشده ، ويستحسن إنشادى ويطلب منى أن أعود إليه للسمر والأنس ، وقد ذهبت إليه مرة فاقبل علىَّ يستنشدنى ، ويسألنى فأحدثه وهو راض مسرور حتى أنشدته :

ولىَّ الشباب فما له من حيلة وكسا ذؤابتىَ المشيبُ خمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطارا؟

(١) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية فى وجهه ، وما رأيت منه خيراً بعد ذلك [1] .

ولما انقضى أمر البرامكة اختلطت الأمور ، وقصد الفضل بن الربيع لخدمة الرشيد فى حضرته ، وأضاع ما وراء بابه ، ثم ندم الرشيد على ما كان منه فى أمر البرامكة ، وتحسر على ما فرط منه نحوهم ، وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم ، وكان كثيراً ما يقول : حملونا على نصحائنا وكفاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا إلى ما أرادوا منا ، لم يغنوا عنا شيئاً ، وينشد :

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم ، أوسدُّوا المكان الذى سدوا

وذكر الفضل بن مروان : أن أمور البريد بعد البرامكة كانت مهملة ، وأن الرشيد توفى وفى الديوان أربعة آلاف خريطة لم تفض [2] .

وقد حرّم الرشيد على الشعراء أن يرثوا البرامكة ، وأمر بالمؤاخذة على ذلك [3] ولعل الرشيد أحس بأنه لو ترك للشعراء العنان لأسرفوا فى رثائهم وذكر مآثرهم ، مما قد يهيج الشعور ضد الخليفة ، ويكرر ذكرى هذا الحادث الأليم ، ولكن الشعراء برهنوا على أن القوة لا سلطان لها على العواطف وخطرات القلوب ، وأنه إذا كان الرشيد استطاع بتاجه

---

(١) الأغانى ٣ : ١٦٤
(٢) الجهشيارى ٢٥٨ ، ٢٦٥ وابن خلكان ١ : ١٠٨
(٣) الفخرى ١٧٤

وصولجانه أن يسجن ويقتل ، فما كان ليستطيع أن يسيطر على جنان الشاعر ولا أن يمسك منه قلمه ، أو يحطم ريشته ، ومن ثم انطلق الشعراء ينظمون في البرامكة الرثاء الدامع الحزين ، ويصورون في أدبهم الخالد ما كان لبني برمك من مآثر وأفضال ، وفيما يلي نماذج من ذلك الرثاء :

قال الرقاشي :

أخيَّ استرحنا واستراحت ركابُنا
وأمسك من يُجدِي ومن كان يَجْتَدِي
فقل للمطايا : قد أمنت من السُّرى
وقطعِ الفيافي فَدْفداً بعد فدفد
وقل للمنايا : قد ظفرت بجعفر
ولن تظفري من بعده بمسوَّد
وقل للعطايا : بعد فضل تعطَّلي
وقل للرزايا : كلَّ يوم تجدَّدي

وقال أيضاً :

هَدَا الخالون من شجو فناموا ... وعيني لا يلائمها منام
وما سَهِرَتْ لأنى مستهام ... إذا أرق المحب المستهام
ولكنَّ الحوادث أرَّقتني ... فلي سهر إذا هجد النيام
أصبت بسادة كانوا نجوماً ... بهم نُسقى إذا انقطع الغمام
أما والله لولا خوف واشٍ ... وعينٍ للخليفة لا تنام

لطفنا حول جزعك واستلمنا كما للناس للحجر استلام
على المعروف والدنيا جميعاً ودولة آل برمك السلام

وقال دعبل الخزاعى كما فى رواية ابن خلكان أو المنذر بن المغيرة كما فى رواية البيهق :

ولما رأيت السيفَ قد قدَّ جعفرا ونادى منـاد للخليفة فى يحي
بكيت على الدنيا وأيقنت أنه قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
أجعفر إن تهلك فرب عظيمة كشفتَ ونعمى قد وصلت بها نعمى
فقل للذي أبدى ليحي وجعفر شماته : أبشر لـتَأتيهمُ العقبى
لئن زال غصن الملك عن آل برمك فما زال حتى أثمر الغصن واستعلى

وقال صالح بن طريف :

يا بنى برمك واهاً لكمُ ولأيامكم المقتَبَلَة
كانت الدنيا عروساً بكمُ فهى الآن ثكول أرملة (١)

ويقول Richard Coke (٢) عن أسرة البرامكة وعن نكبتهم ما يلى :
« وبلغت الإدارة والنظام ذروة النجاح فى عهد الخلفاء العباسيين الأول بفضل الخدمات التى قدمتها أسرة البرامكة العظيمة ؛ تلك الأسرة التى كان أفرادها موهوبين عباقرة ، وقد كان سلطان البرامكة يتلو أو يمـاثل سلطان الخليفة .

---

(١) الجهشيارى ٢٣٦ وابن خلكان ١ : ١١٠ والبيهق : المحاسن والمساوئ ص ١٢٢
(٢) Baghdad, the City af Peace p.p. 68-73 abridged.

«وفى نوبة من نوبات غضب هارون الرشيد ، وبدون سبب واضح ، ألقى بأفراد هذه الأسرة كلهم فى أعماق السجون ، وصادر أموالهم الواسعة، ولم يكتف بقتل جعفر ، بل صلبه على الجسر ، وقد سببت هذه الداهية التى نزلت بالبرامكة إحساساً عميقاً من الأسف ، انعكس على شعر أكثر الشعراء المعاصرين .

«وقد وصل جعفر إلى قمة الشهرة والمجد ، ليس فقط لأنه أقوى شخصية بعد الخليفة ، بل أيضاً لأنه كان كريماً إلى درجة الإسراف ، والأدب العربى يحوى أقاصيص لا نهاية لها عن سخائه وكرم ضيافته ، وجوده الذى كثيراً ما كان إلى الإفراط أقرب ، وهناك أيضاً حكايات تفوق الحصر عن ألفته لهارون وعلاقته به ، وكذلك عن ذكائه وسرعة بديهته فى تصريف الأمور .

«ومن الناحية الاجتماعية والعقلية ، تركت نكبة البرامكة فراغا فى حياة بغداد لم يملأ قط فيما بعد» .

الفضل بن الربيع بين الأمين والمأمون :

تعتبر المؤامرة التى دبرها الفضل بن الربيع هذه المرَّة أفظعَ مؤامرات هذا العهد كله وأقساها ؛ فعهدنا بالمؤامرة تنتهى بالفتك بفرد واحد أو بأفراد قلائل ، ولكن الفضل فى هذه المرة دفع آلاف الناس إلى الموت ، وزج بهم فى حرب طويلة مدمرة ليصل من هذا إلى تحقيق أمله وإرضاء شهواته ، ولكن الحظ لم يحالفه هذه المرة ، بل كُتِب لمسعاه الفشل ، وأصبح الأمين وقوداً لهذه النار التى أشعلها وزيره ، وأجج أوارها ناصحوه ومستشاروه .

ويرجع تاريخ هذه المؤامرة إلى حياة الرشيد ؛ فقد سبق أن ذكرنا

أنه لما ثار رافع بن الليث بخراسان ، وعجزت جيوش الخلافة هناك عن إخماد هذه الثورة ، اضطر الرشيد أن يغادر الرَّقَّة ومعه جيش كبير ليواجه بنفسه ذلك الثائر ، ولكن الرشيد مرض فى الطريق فحط رحاله فى طوس ، ثم أرسل ابنه المأمونَ مع بعض الجند إلى خراسان وبقى هو ومعه وزيره الفضل بن الربيع وأمواله ومتاعه وبقية جيشه على أمل أن تزول عنه العلة فيلحق بالمأمون ، ولكن العلة زادت عليه ، وأحس شبح الموت يقترب منه ، فأحضر وزيره وقواده وكبار رجاله ، وأوصى أمامهم للمأمون بجميع ما فى عسكره ، من مال وأثاث ورقيق وكراع [1] ؛ وأوصى كذلك أن يسير باقى الجيش من طوس إلى خراسان ليساعد المأمون فيما هو فيه من نضال وكفاح ، وأخذ بذلك العهود على الفضل واسماعيل بن صبيح وغيرهما من كبار رجاله الذين كانوا معه . [2]

هذا هو جانب المأمون والرشيد من مشكلتنا ، وهناك جانب آخر كان يدبر أمراً مخالفاً ، ذلك الجانب هو الأمين والفضل بن الربيع ، أما الأمين فما إن عرف مرض أبيه حتى أرسل أحد أتباعه المخلصين وهو بكر بن المعتمر ، وجعل له فى كل يوم ألف دينار وأرسل معه كتبا ظاهرة فيها السؤال عن الخليفة والدعاء له ، وتُسَلَّمُ هذه الكتب إذا كان الخليفة حياً ، وكتبا باطنة إلى الفضل وإسماعيل بن صبيح تسلم بعد وفاة الخليفة وفيها أمرٌ إلى القوم بالقفول إلى بغداد ، والاحتياط على ما فى العسكر بحيث لا يتسرب منه شىء

(١) الكراع : الخيل وقيل اسم يجمع بين الخيل والسلاح
(٢) انظر الجهشيارى ص ٢٧٣ وابن الأثير ٦ : ٧٣

إلى خراسان ، ووصلت أخبار هذه الكتب السرية إلى الرشيد فطلبها من بكر فأنكر وجود شيء منها معه ، فأمر الرشيد بضربه وطلب إلى الفضل تقريره فإن أقر وإلا ضَرَبَ عنقه ، وكان بكر يدرك أن الفضل سيستجيب للغدر وأنه لن يكترث بأوامر الرشيد إذا مات الرشيد ، ومن ثَمَّ أرسل بكر إلى الفضل من يقول له أن يسوِّف فى تنفيذ أوامر الرشيد معه لأنه يحمل من الأمين سراً خطيرا فيه للفضل نفع وخير ؛ واستجاب الفضل كعادته إلى رغبة الأمين الذى قد يصبح خليفة بين عشية وضحاها ، فأرجأ وماطل فى تعذيب بكر وتقريره . (١)

هذا هو الدور الأول الذى لعبه الأمين ، ولا نزاع أنه قام به اطمئنانا إلى استجابة الفضل ، وأما الفضل فقد أوفى بما أراد الأمين وزاد ، فإنه تظاهر بالقسوة على بكر ، ولكن الواقع أنه خفف عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما إن صعدت روح الرشيد حتى استهان الفضل بالميت المسجَّى على سريره - كما فعل أبوه من قبل مع المنصور - وخلع من عنقه طاعته ، ونسى أو أهمل العهود والوعود التى أقسم على الوفاء بها أمامه ، وسارع إلى بكر بن المعتمر وهو فى سجنه فقال للسجان : خلوا عن أبى خُلَيْدَة ؛ فقال بكر : ليس هذا وقتاً تكلمنى فيه ؛ فدعا الفضل بخلع فخلعها على بكر ، وقال له : أعظم الله أجرك فى أمير المؤمنين ، ثم أخذه معه إلى حيث وضع جثمان الرشيد فأطلع بكرا عليه ، وكشف الفضل عن وجه الرشيد ليؤكد لبكر أنه مات ، ثم قال له : هات الكتب التى معك ،

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٣ والجهشيارى ٢٧٣ — ٢٧٤

فأحضر بكر صندوقا للمطبخ قد نُقِّبت قوائمه وجعلت الكتب فيها ، وجُعل الجلد فوقها ، فَشُقّ الجلد وكسرت القوائم ، وسلَّم بكر الكتب إلى أصحابها. وكان بين الكتب كتابٌ إلى الفضل يطلب إليه العودة بالمال والجند والعتاد ، وكتابٌ إلى صالح بن الرشيد يأمره ألا ينفِّذ رأياً أو يبرم أمراً إلا برأى الفضل ، وأقر الأمين الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، وأمر ألا يصرف عطاء أو رزق للعسكر بدون رأى الفضل ، وأقر كل من كان إليه عمل على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجابة ؛ فلما قرءوا الكتب أخذوا يتشاورون فى تنفيذ وصية الرشيد فيلحقون بالمأمون ، أو تنفيذ أمر الأمين فيعودون إلى بغداد ، ولكن الفضل وهو كبير الركب ومدبر أمره صاح فيهم : لا أدع مَلِكا حاضراً لآخر لا أدرى ما يكون من أمره ، واستغل رغبة الجند فى العودة إلى أهليهم ، فأمرهم بالعودة إلى بغداد ، غير مكترث بما عاهد الله عليه ، ولا موفٍ بما وعد أن يقوم به [1] .

وكان من الممكن أن يعفو المأمون عن الفضل ، وأن يغفر له هذه الزلة ، كما عفا عنه فيما بعد مع تراكم الذنوب عليه ، وكثرة الجرائم التى ارتكبها ، ولكن الفضل — كما يقول ابن خلكان [2] — خاف من المأمون إن انتهت الخلافة إليه ، فزين للأمين أن يخلع المأمون من ولاية العهد ، ويجعل ولاية عهده لابنه موسى .

والفضل هنا أنانى بعيد العمق فى الأنانية ؛ لقد أراد أن يضمن لنفسه

(١) المرجعان السابقان .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٤١٢

النجاة ، ولو أدى ذلك إلى الدمار والحرب والخراب وقتل الأبرياء وتيتيم الأطفال ، فقسم العالم الإسلامى معسكرين وانطلقت السيوف والحراب بين الرجل وأهله ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وتساقط الجند فى الميدان ، وقتل القواد والرؤساء ، وتوقفت أعمال العمران ، ومست يدُ الدمار حضارةَ بغداد ، وتعرض سكانها إلى أزمة عنيفة ، وكل هذا ليفدىَ الفضل نفسه ، ويضمن لشخصه السلامة .

ومسألة أخرى نأخذها على الفضل بن الربيع ، وهى تعجيله بإثارة هذه الفتنة ، فقد بدأ يشعل أوارها عقب وصوله بغداد عائداً من طوس ولا يكاد الإنسان يجد سبباً مقبولا لذلك التبكير إلا شغف الفضل بالشغب والمؤامرات وسفك الدماء ؛ أما ما أجمع عليه المؤرخون من أن الفضل خاف أن تفضى الخلافة للمأمون وهو حى فينكل به ، فلا أميل إلى التسليم به لأن الأمين كان فى مقتبل العمر وشرخ الشباب ، وكانت صحته وفتوته مضرب الأمثال حتى ليقال إنه صارع مرة أسداً بدون سلاح فصرعه[1] ، صحيح أن الأعمار بيد الله ، ولكن الظواهر لم تكن توحى بضرورة هذا التعجيل ، وقد كان المنصور يعزم على نقل ولاية العهد من عيسى بن موسى إلى المهدى ، ولكنه لم يُقدم على هذا إلا بعد أحد عشر عاماً من ولايته حينما استقرت له الأمور ؛ فلو أن الفضل أرجأ هذا التغيير بعض الوقت وسعى فى إصلاح ما بين الأخوين ، وحث الأمين أن يستجيب إلى رغبة المأمون فى التقرب والتحبب ، لكان من المحتمل أن تتغير الأحوال ، وأن

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١١٦

تصفو العلاقات ، ولكنه الفضل الذى ورث أباه فى الشغف بالدس والائتمار ، فسلك ذلك الطريق المعوج ، وزج العالم الإسلامى فى هذا الأتون ؛ فما هو ذا التاريخ لاينسى ، وإنما يجدد عليه ذكرى هذا الموقف المشين .

ولم يكن الأمين فى أول الأمر يفكر فى عزل المأمون ولا يميل إليه ولكن الفضل هو الذى فتح هذا الباب ، ولم يزل يصغر عنده أمر المأمون ، ويزين له خلعه ، وقال له : ما تنتظر بعبدالله والقاسم ؟ فإن البيعة كانت لك قبلهما ، وإنما أدخلا فيها بعدك ؛ وأيَّد علىُّ بن عيسى بن ماهان الفضل فيما ذهب إليه ، فوافقهما الأمين ، وعزم على تنفيذ ذلك ، وتحمس له ، حتى إنه قال يوما للفضل : يا فضل أحياة مع المأمون ؛ لا بد من خلعه ؛ فاغتبط الفضل بهذا وأخذ يغريه ويقول له : فمتى ذلك ؛ إذا انتظرت له حتى يغلب على خراسان وما فيها صعب عليك أن تنال ما تحب (١) .

وهكذا اتفق على ذلك الخليفةُ محمد الأمين ووزيره الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان الذى كان الأمين يلقبهُ شيخَ الدعوة ونائبَ هذه الدولة ؛ وعارض هؤلاء جماعة آخرون من السادة والقادة ، ولكن كفتهم شالت أمام كفة الخليفة وأشياعه . (٢)

وبينما كانت بغداد تضطرب بهذه التيارات ، كان المأمون بخراسان يجل العهد الذى قطعه على نفسه ، ويقف من أخيه الأمين موقف الوالى المخلص من الخليفة العظيم ؛ فهو يواتر كتبه له ، ويحشدها بعبارات الإجلال

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٥
(٢) المرجع السابق

والتعظيم ، ثم يواصل إرسال الهدايا العظيمة إليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . [1]

غير أن موقف المأمون لم يغير من الأمر شيئا ، بل اندفع الفضل ابن الربيع ينفذ ما تم الاتفاق عليه مع الأمين وعلى بن عيسى واتخذ لخلع المأمون خطوات متتالية مثابرة أغرى بها الأمين فاستجاب الأمين لاغرائه :

فكان أول ما فعله أن كتب بولاية العهد إلى موسى بن الأمين على أن يكون تالياً للمأمون والقاسم المؤتمن ، وكتب إلى جميع العمال بالدعاء له بعد الدعاء لهما . [2]

ثم استدعى المؤتمن من الجزيرة وعزله عما كان بيده ، فأدرك المأمون أن عزل القاسم ليس إلا تمهيداً لعزله هو أيضاً . [3]

ثم كتب الأمين إلى عامل المأمون على الرى يأمره أن يرسل إليه ببغداد بعض طرف الرى ، وقد كان ذلك تجاهلا لوضع المأمون ، فمن حقه هو وحده أن يتصل بعماله تبعاً لوصية الرشيد ، ولكن الأمين كما ذكرنا بدأ يهمل هذه الوصية ويتمرد عليها ، وقد استجاب عامل الرى للخليفة ، فأرسل إليه الطرف والهدايا ، ولكنه أحس بخطئه فكتم الأمر عن المأمون ، وعن الفضل بن سهل ، ولكن ذلك بلغ المأمون فعزل ذلك العامل وولى آخر مكانه . [4]

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٤ والخضرى ٢ : ٢١٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧٥

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق

ثم أشار إسماعيل بن صبيح على الأمين أن يكتب للمأمون يعرّفه حاجته إليه، ويبلغه شوقه إلى قربه، وإيثاره الاستعانة برأيه ومشورته، ويسأله القدوم عليه، فقبل الأمين هذا الرأى، وأمر إسماعيلَ أن يكتب ففعل، ولكن المأمون أدرك هذه الخدعة، فلم يلتفت إلى الأمين ولم يجبه. (١)

ثم كتب إلى المأمون يسأله التجافى له عن بعض كور خراسان، وأن يطلق له إنفاذ رجل يتقلد البريد من قبله ليكاتبه بأخباره، وأن يرسل إليه كل عام ما يتبقى عنده من المال بعد نفقاته، فاستشار المأمون أصحابه، فأشار بعضهم بالموافقة معللين ذلك بأنهم يطلبون السلامة ويتحاشون الخلاف لسوء ما يؤدّى من عواقب؛ ولكن الفضل بن سهل وأخاه الحسن عارضا هذا الرأى، وقال الفضل: إنا إن أجبنا هذه المرة فسيتجاوز هذا الطلبَ إلى غيره، وسنكون بذلك قد تعجلنا الوهنَ بما أعطيناه، وقال الحسن: لا تهنوا لقلة فيكم؛ فليس النصر بالقلة والكثرة، وجُرح الموت أيسر من جرح الضيم؛ وقال المأمون: إن إيثار الدعة يؤدى إلى فساد العاقبة فى الدنيا والآخرة؛ وكتب يمنع الأمين من ذلك ويدفعه عنه (٢).

ثم وجه الأمين إلى المأمون أربعة أنفس وهم العباس بن موسى بن عيسى بن موسى، وعيسى بن جعفر بن المنصور، وصالح صاحب المصلى، ومحمد ابن عيسى بن نهيك، ومعهم كتاب يطلب الأمين فيه إلى المأمون أن يقدم موسى بن الأمين على نفسه فى ولاية العهد، فلما قرأ المأمون الكتاب

---

(١) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الأثير ٦ : ٧٦

(١) الجهشيارى ٢٨٩ـ٢٩٠ وابن الأثير ٦ : ٧٦

رفض أن يستجيب لهذه الرغبة الجامحة، وأخبر بذلك الرسل، فقال العباس ابن موسى: لقد جرت العادة بذلك أيها الأمير، وهذا جدى عيسى بن موسى قد خلع من قبل، فصاح الفضل بن سهل: اسكت، إن جدك كان أسيرا فى أيديهم، وهذا بين أخواله وشيعته، ثم قاموا، فخلا ذو الرياستين بالعباس بن موسى، ووعده إمرة الموسم ومواضع من مصر، فأجاب سرا إلى بيعة المأمون، ووعد أن يكتب المأمون بأخبار بغداد عند عودته، ثم عاد ومعه أصحابه فأخبروا الأمين بأن المأمون يرفض تقديم موسى عليه؛ وأصبح العباس عينا للمأمون فى بلاط الأمين [1].

وتأكد المأمون أن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، وأنه لا بد أن يتدخل السيف ليكون الحكم الفاصل فى هذا النزاع، فأقفل الحدود بينه وبين العراق، وأمر ألا يسمح لأحد باجتياز هذه الحدود إلا بإذن خاص وبعد تفتيش دقيق، وبهذا صارت أمور المأمون مستورة عن الأمين، ولكن أمور الأمين كانت تتسرب للمأمون بترتيب العباس بن موسى، ثم شرع المأمون بعد ذلك يعد نفسه، ويهيء جنده، وكتب إلى عماله بذلك، وتحبب هو إلى الناس، واتصل بالعلماء والفقهاء، وبينما كان المأمون يفعل ذلك، كان الأمين يملأ وقته باللهو والعبث واللذة والشراب. وسارت الركبان فى الآفاق بغدر محمد الأمين، وبحسن سيرة المأمون، فاستوحش الناس منه وانحرفوا عنه، وسكنوا إلى المأمون، ومالوا إليه [2].

وانتهز الفضل بن الربيع فرصة وقوف المأمون، فى وجه الأمين وعدم

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٦

(٢) الجهشارى ص ٢٩٢

استجابته لرغبة ما من رغباته ، فألح على الأمين فى خلع المأمون ، وتولية ابنه موسى بعده ، فاستجاب الأمين وخلع المأمون والقاسم وولى ابنه موسى وسماه الناطق بالحق ، وكان ذلك فى صفر سنة ١٩٥ هـ ، وكتب الفضل بن الربيع عن الأمين بذلك ، وبالنهى عن الدعاء للمأمون والقاسم على المنابر وأحضر أحد الحجبة وسأله التلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى الكعبة بالبيعة ، ففعل ذلك وسرقهما ، وصار بهما إليه ، فدفعهما الفضل إلى محمد فمزقهما [١] .

وبلغت هذه الأخبار المأمونَ والفضل بن سهل ، فوجهاهما إلى الجند وتزويدهم أحسن زاد ومدهم بأقوى عتاد ، وكوّن ذو الرياستين جيشين عظيمين يقودهما بطلان من خيرة الأبطال هما طاهر بن الحسين وهَرْثَمَة ابن أعين ، وسار الأول يقصد بغداد من الجنوب والثانى يقصدها من الشمال ، وبذل كل منهما جهده ليسيطر على جنده ، وليضمن لقواته النصر .

وحدثت أول معركة بين جيوش الأمين بقيادة على بن عيسى بن ماهان الذى استهان بجيوش طاهر [٢] وبين طاهر بن الحسين . ودارت الدائرة على جيش الأمين ، وقتل على بن الحسين ، فكتب طاهر إلى الفضل بن سهل يقول : أطال الله بقاءك ، وكبت أعداءك ، وجعل من يشنؤك فداءك ، كتبت إليك ورأس على بن عيسى بين يدى ، وخاتمه فى إصبعى وعسكره تحت يدى ، والحمد لله رب العالمين [٣] . فلما قرأ الفضل بن سهل هذا الكتاب ، وصحّ

---

(١) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الأثير ٦ : ٧٧
(٢) انظر المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٩٩ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٩٣ .

عنده الخبر دخل على المأمون فسلم عليه بالخلافة، وأمر أن يخطب له ويخاطب بأمير المؤمنين [1] .

وأحرزت جيوش المأمون انتصارات متلاحقة ، وأخذت تتقدم من فوز إلى فوز ، ومن نصر إلى نصر . ولكن عسكر الأمين اضطرب بعد وفاة على بن عيسى وعم التشوم بغداد ، وكون الأمين جيشاً آخر بقيادة عبد الرحمن بن جبلة لمواجهة طاهر ، ولكنه لاقى ذلك المصير نفسه ، ثم دعا الفضلُ بن الربيع أسدَ بن يزيد بن مزيد ليقود الجند فاشتد أسد فيما ألتمسه من الأموال والعتاد والرجال والسلاح ، فصار به إلى محمد ، وعرفه ذلك ، فغضب وأمر بحبسه [2] .

وحدث أن ولىَّ الأمين عبد الملك بن صالح الشام والجزيرة رجاء أن يمده بالجنود الأشداء ليستعين بهم الأمين فى حربه ضد أخيه ، وذهب عبدالملك إلى الرَّقة ، فكاتب رؤساء أهل الشام وأهل القوة والبأس فجاءوا ، ولكن سوء الحظ كان حليف الأمين ؛ فإن حادثة تافهة حدثت بين هؤلاء الجنود ، فاشتبكوا فى قتال عنيف كان من نتائجه تشتت هذا الجيش وعدم انتفاع الأمين به [3] .

وثار الحسين بن على بن عيسى بن ماهان على الأمين فى بغداد وخلعه فى رجب سنة ١٩٦ هـ وأخذ البيعة للمأمون ، وأيده فى ذلك العباس بن موسى بن عيسى ، ولكن هـذا لم يتم ، إذ عاد بعض الجند فانشقوا على الحسين ،

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٨٥ .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧٩ وما بعدها

(٣) ابن الأثير ٦ : ٨٥ ــ ٨٦

وأطلقوا سراح الأمين ، وأجلسوه على كرسى الخلافة مرة أخرى [1] .

وكان داود بن عيسى بن موسى عاملا للأمين على مكة والمدينة ، فلما رأى نكث الأمين بالمأمون ، وعرف سرقة الكتابين من الكعبة ، جمع الناس بمكة وقال لهم : قد علمتم ما أخذ الرشيد علينا وعليكم من العهد والميثاق عند بيت الله الحرام لابنيه لنكون مع المظلوم منهما على ظالمه ، ومع المغدور به على الغادر ، وقد رأيتم كيف بدأ محمد يظلم ويغدر فنقض بيعة أخويه ، وبايع لابنه الطفل الرضيع ، وأخذ الكتابين من الكعبة فمزقها ظلما ، ولهذا فقد رأيت خلعه والبيعة للمأمون ؛ فأجابه الناس إلى ذلك وكتب لابنه سليمان بالمدينة أن يعلن هذا ففعل ، وكان ذلك فى رجب ١٩٦ هـ [2] .

ورأى الفضل بن الربيع تدبيره يفشل ، ورأى دولة الأمين تضعف وتضمحل ، فظهر بمظهر غير كريم ؛ ذلك لأنه لم يقف بجوار خليفته يطعم معه مرارة العيش فى هذه الأيام الكدرة ، ويشرب معه كأس المتاعب حتى الثمالة ، ولم يبرز ليتحمل بشجاعة مسئولية ما قدّمته يداه ، وإنما استتر فى رجب سنة ١٩٦ هـ تاركا الأمين وحده فى هذه الليالى السود [3] .

ولم يستطع الأمين اللاهى أن يتدارك أمره فأخذ شأنه يضعف ، وفقد المال والرجال ، وحاصرت جيوش المأمون بغداد ، ومرت بعاصمة المسلمين أحلكُ الليالى ، وكثر فيها الخراب والهدم والحرائق ، حتى درست منازل ، واختفت أبنية شاهقة ، وانضم إلى جيوش المأمون كثيرون من

---

(١) المرجع السابق ٦ : ٨٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ٨٨ – ٨٩

(٣) الجهشيارى ٣٠١ – ٣٠٢

أهل بغداد ، ونشط الغوغاء والفساق يسلبون وينهبون ، وكثر القتل والغرق لأهل مدينة السلام ، وانتشر الجوع ، وعمت الآفات ، وقد وصف بعض شعراء بغداد هذه الفترة القاسية وصفاً يغنى عن المزيد من الشرح فقال :

بكيت دماً على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدّلنا هموما من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
وقوم أحرِقوا بالنار قسرا ... ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى : واصباحا ... وباكية لفقدان الشقيق
وحوراء المدامع ذات دل ... مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى انتهاب ... ووالدها يفر إلى الحريق
ومغترب بعيد الدار ملق ... بلا رأس بقارعة الطريق [1]

واشتد الأمر بأهل بغداد ، وتفرق كثير منهم عن الأمين ، وانضم عدد من سادتهم وقادتهم إلى جيوش المأمون المحاصِرة ، وقدموا لها العون والمساعدة . أما الأمين فقد جمع أولاده وأمه زبيدة ومن تبق معه من الجوارى بمدينة المنصور [2] ، وتقدّم طاهر لحصره وأخذ عليه الأبواب وضيق عليه ، ورفع أعلامه على سوارى بغداد ، ثم كاتب الأمينُ هرثمةَ ابن أعين ، وطلب منه الأمان على أن يستسلم إليه ويسلم البردة والقضيب والخاتم ، فقبل هرثمة ، ولكن طاهراً كان للأمين بالمرصاد ، وأراد أن

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٩١ – ٩٢

(٢) هى بغداد التى بناها المنصور وكانت فى عهد الامين تمثل جزءاً صغيراً من العاصمة التى اتسعت اتساعا كبيرا ،

يحظى بشرف النصر ، وأن يحول بين الأمين وهرثمة ، ونزل الأمين إلى دجلة حيث كان هرثمة فى انتظاره فى حراقته ، فأحسن هرثمة استقباله ، واندفعت الحراقة نحو معسكر هرثمة ، ولكن زوارق طاهر لحقت بالحراقة ورمى رجال طاهر الحراقة بالنشاب والآجر فأغرقوها ، وقبضوا على الأمين وذبحوه ، وأخذوا رأسه إلى طاهر ، فأرسل بها إلى المأمون .[1]

وهكذا تلقى الأمين وتلقى أهل بغداد النتائج القاسية لهذه الحرب الضروس التى تسبب الفضل بن الربيع فى إشعالها ، أما الفضل فقد ظل فى مخبئه ، بعيداً عن هذه الكوارث التى أنزلها بالآخرين ، وبمنأى عن الملمات التى حلت بكل بيت من بيوت بغداد وبعشرات الآلاف من شباب المسلمين .

ويبدو من دراسة هذه الأحداث أن الفضل بن الربيع لم يكن يقوى على مواجهة الأحداث الكبار والثبوت أمامها ، وتدبير أمورها ، وإنما كان رجل دعة ونعيم .

والعجيب أنه ظل مختفياً حتى قتل الأمين ، ثم واصل استتاره حينما كان الخلاف ناشبا بين الحسن بن سهل عامل المأمون على العراق وبين العباسيين وأهل بغداد الذين ثاروا — كما سبق القول — لتولية المأمون عليا الرضا عهده ، ولأنه بلغهم أن الفضل بن سهل مسيطر على المأمون وأن المأمون سجين عنده ؛ ولما انتصر العباسيون وأهل بغداد ، وخلعوا المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، لم يتحرج الفضل بن الربيع من الظهور ، والاتصال بإبراهيم بن المهدى ،

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٩٥ — ٩٦ باختصار .

فرسمه إبراهيم بحجابته ، ولكن الأخبار وصلت بغداد بعد حين بأن المأمون في طريقه إليها ، وأنه تخلص من الفضل بن سهل . . . فاختل أمر إبراهيم ابن المهدى، وفي هذه الحال عاد الفضل بن الربيع إلى الاستتار مخليا إبراهيم ابن المهدى ليواجه الأحداث وحده كما خلى من قبل محمدا الأمين (١) .

وظل الفضل مختفيا إلى أن قدم المأمون بغداد واستقر له الأمر ، فتوسل الفضل إلى المأمون أن يغفر له جريمته الكبرى ، فغفر له ، واكتفى بأن أهمله ولم يستعمله ، فكانت مرتبته منحطة في دار المأمون (٢) وظل كذلك إلى أن مات سنة ٢٠٨ ﻫ مخلفاً هذه الذكريات المرة التي تتجدد من حين إلى حين ، والتي تدل على أن الدس والائتمار عاقبتهما الفشل والخيبة .

---

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٢ .

(٢) الأغانى ٣ : ١٥٢ .

الفصل الرابع

دراسة نفسيّة

نحاول فى هذا الفصل أن نقوم بدراسة نفسية ، لعلها تقودنا إلى أعماق الربيع بن يونس وابنه الفضل ، لنستشف الانفعالات التى كانت تضطرب فى نفسيهما ، ونشاهد العوامل التى دفعتهما إلى ارتكاب هذه المؤامرات ، والقيام بهذا الدور القاسى المشين ؛ وقد أتيح للرجلين نعمة سابغة فى قصور الخلافة ، وأسندت إلى كل منهما أرقى المناصب فى الدولة ، فلماذا كانا يجدان اللذة فى السعاية بالشر ، ويحسان بالسعادة فى إشقاء الآخرين ؟

والذى أكاد أجزم به أن مركب النقص (Inferiority Complex) أو الإحساس بالنقص (Inferiority Feeling) كانا آفة هذين الرجلين، وبسببهما حنقا على نظرائهما ، ومشيا فى قصور الخلفاء بالسعاية والوشاية :

ماهو مركب النقص ؟ وماهو الإحساس بالنقص ؟ وكيف يتكون هذا ويوجد ذاك ؟ وما نتائجهما ؟ وأثرهما فى علاقات الفرد بالآخرين ؟

من أجل هذا يتحتم أن نرجع إلى علم النفس ، لنتلقى الإجابة عن هذه الأسئلة :

ونبدأ أولا بتبيان الفرق بين مركب النقص والإحساس بالنقص ، فمركب النقص عقدة لاشعورية ، تبقى كامنة فى لاشعور الفرد وتظهر نتائجها فى تصرفاته ، دون قصد منه أو إعداد شعورى ؛ ويميل كثير من أساطين علم النفس إلى الاعتقاد بأن العقد اللاشعورية عموما تتكون فى طفولة الشخص ، وبخاصة فى السنين الخمسة الأولى من حياته ، والطفل فى حياته الأولى يقظ تماماً ؛ فهو يسجل كل مايحيط به ، على الرغم من أنه يبدو صغيرا ساذجا ، وتتكون عنده فى هذه الفترة العقد النفسية ومركبات

النقص إذا وُجد هناك مايدعو لها ؛ ويبرز Adler [1] الكلام عن الضعف الطبيعي الذى يبدأ به الطفل حياته ؛ ذلك الضعف الذى يتزايد إذا عومل الطفل معاملة سيئة ، أوصادف بيئة يحس فيها أنه غير محظوظ أوغير سعيد ، أو كان به نقص عضوى (Physical) أو إحساس بنقص وإن لم يوجد النقص ذاته ؛ ومن الأمثلة التى يوردها Adler للمعاملة السيئة التى تضاعف عوامل الضعف الطبيعى فى الطفل ، الزجر والانتهار ، والتهكم ، والاستهزاء ، والقسوة .

ويستمر Adler [2] فى كلامه فيقول : إن هذه المضاعفات التى حدثت بالطفل ، وجعلته أكثر إحساساً بضعفه ، وأنشأت مركب النقص فيه ، تدفعه إلى طريق من ثلاثة :

١ – أن يصاب بصدمة عصبية تجعله يميل إلى الإذعان والخضوع إلى بيئته ، والاقتناع بتأخره عن سواه .

٢ – أن يعمل طيلة عمره ليعوض ما به من نقص .

٣ – أن يتصارع مع البيئة التى يعيش فيها ؛ فيكون دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه؛ ويسهل عليه أن يتراجع وينهزم إذا ضعف عن الهجوم .

ويظل الطفل بعد ما يشبُّ متأثراً تأثرا لاشعوريا بما سجله إبان السنوات المبكرة من حياته ، ومن أجل هذا نجد الطفل الذى عومل معاملة سيئة فى طفولته يصير عندما يكبر أباً مستبداً ، أو زوجاً قاسياً طاغية ، لينفس

---

(١) Individual Psychology : Psycho-Analysis p. 200
(٢) Ibid p. 201

عن الضغط الذى احتبسه فى نفسه أيام طفولته [1].

هذا عن مركب النقص ؛ أما الاحساس بالنقص فهو مظهر شعورى، يشعر به كل شخص عادى فى مواقف كثيرة من حياته العادية ، دون توقف على سنٍّ معينة ، وهذا الشعور قد يزيد عن الحد العادى ، فينقلب إلى سمةٍ من سمات الشخصية المرضية ، فيشعر المتصف بهذه السمة دائماً أنه غير قادر على مجاراة غيره بالطرق المشروعة ، فيعمد إلى الوسائل المستترة التى يستطيع عن طريقها أن ينال من منافسه .

ويقرر Adler [2] أن الإنسان يجهد نفسه ليتفوق على الآخرين ، وأن هذه الرغبة فى التفوق تنمو مع نمو الشخص ، لأنها ضرورة ذاتية للحياة نفسها ، فهو دائما يكافح طلبا للغلبة والانتصار ، ولا ينتهى نضاله لينقل نفسه من النقص إلى الكمال ؛ ويستمر الإنسان فى هذا النضال السلمى ما لم تقف عقبة فى سبيل نجاح محاولته ، فإذا اعترضته صعوبات وعقبات من جهة الآخرين ، فإن ذلك يؤدى به إلى الغضب الذى يتمخض عنه سلوك عدائى .

والشخص الذى تكوّن فيه مركب النقص فى طفولته أو أحس بالنقص فى أى فترة من فترات حياته ، وحاول أن يعوض هذا النقص عندما كبر فاعترضته عقبات من جهة الآخرين ، هذا الشخص إذا كان ذكياً موهوباً ، متفوقا تفوقاً ظاهراً فى الناحية العقلية ، فإن اصطدامه بمن يعوقه عن

(١) Ibid p. 207

(٢) Ibid p. p. 223-224

الوصول إلى الكمال يكون عنيفاً قاسياً ، وربما لجأ إلى طرق شتى من الانحراف ، ليعبر عما يخالج نفسه من نزعات مكبوتة كالحيل والكيد ، دون اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية (١)

وهناك ناحية أخرى وثيقة الصلة بموضوعنا الذى نتحدث عنه شرحها بإفاضة Hadfield (٢) وموجزها أن « المطلب الرئيسى الذى يحتاج إليه الطفل هو الحماية والأمن ، وتلك حاجة من الحاجات الطبيعية . إذ أنه خلال طفولته عاجز طبعاً عن حماية نفسه وامدادها بما يحفظ عليها الحياة ، ومن أجل هذا كان محتاجاً لمن يحميه ، ويقيه الخطر ، ويمده بالطعام والشراب ، ويهيء له العناصر اللازمة لحياته ، وحاجة الطفل ليست حيوية فقط ، ولكنها أيضا نفسية ؛ فهو لا يحتاج إلى الحماية والأمن فحسب ، ولكنه يحس بهذه الحاجة .

« والذى يحمى الطفل عادة ويمده بحاجاته هو الأم ، لأنها تستجيب بطبعها إلى هتافه الصامت ، وتكمل نقصه ، وتقوى ضعفه بإحاطته بجو من الحب . فتقضى الأم بذلك حاجات الطفل ، لا على أنها واجبات تؤديها ، وإنما على أنها لذة تمارسها ؛ إذ يدفعها حبها له إلى رعايته ، وتجد فى ذلك سعادة لها ونشوة ؛ هذا من جهة الأم ، وأما من جهة الطفل فإن حاجته إلى الحماية والطعام . . تصبح عنده وسيلة ينشد بها ما هو أعظم عنده منها ، وهو حب أمه وشغفها به ، فهو يبكى لتسرع إليه فيحس أنها تحبه ، ويترتب

(١) انظر الدوافع النفسية للدكتور مصطفى فهمى ١٥٧ — ١٥٨ .

(٢) Psychology and Mental Health p. p. 121 - 124 abridged .

على ذلك أن يصبح حب الأم للطفل أهم مطالبه ، والمحورَ الهام فى حياته ، والهدف الأسمى له من الناحيتين الحيوية والنفسية ، وسيترتب على هذا الحب أن تحميه الأم ، وتمدَّه بما يحتاج إليه .

« وعندما يتأكد الطفل من حب أمه له ، وما يترتب على هذا الحب من حماية ووقاية ، تتربى فيه الثقة بالنفس ، ويستطيع — فى يقين من أنها ترعاه وتحميه — أن يواجه الحياة ، ويلقى بنفسه فى متاعبها دون تهيب ، لأنه واثق من أنها ستنتشله إذا أخفق أو كبا ، وهو بمواجهته للحياة هكذا يهيء نفسه للمستقبل ، ويلائم بين نفسه وبين الحياة ؛ وتتكرر مواجهته للحياة على هذا الوضع ، فيعتاد ذلك ، ويحس بأنه تخلص رويداً رويداً من حاجته للحماية ، ويكوِّن حريته واستقلاله ، ويدخل معمعة الحياة ، ويمارس ألواناً من النشاط ، وصنوفاً من المخاطر ، محتملا العبء والتبعة وحده ، دون اعتماد على شخص آخر .

« والطفل يعكس ما يراه فى طفولته ؛ فإذا أحس بأنه محبوب ، تعلم هو أن يحب الآخرين ، وعلى هذا فالطفل الذى حظى بحب أمه فى طفولته ، ينشأ اجتماعياً ، يحب الناس ، ويصير وفياً لأصدقائه ، قريناً موفقاً فى زواجه .

« فإذا ما حرم الطفل هذا الحب ، كانت نظرته للحياة نظرة مغايرة ، وبدت تصرفاتُه غيرَ عادية ، وغمرته حالةٌ من الاضطراب النفسى ، فتنقصه الثقة ليواجه الحياة بوضوح ، وتشمله حساسية الخشية والخوف ، فيحس أنه غير قادر على تحمل المسئوليات ، ومواجهة الصعاب ، فلا يلقى بنفسه فى المخاطر ، ولا يمارس أنواعاً من التجارب والتدرب ،

لأنه غير مطمئن إلى من ينتشله إذا تورط . فيشب وهو طفل فى حذره وخشيته ، ويكون كبير الاستعداد ليصبح عصبياً حاد المزاج .

« وحرمان الطفل الحب يجعله لا يحب الآخرين ؛ فما دام لا يتلقى حباً لا يستطيع أن يمنحه ، وإذا حرم حب الآخرين فإنه يحب نفسه ليعوضها ما فقدته ، وبهذا يصير أنانياً مبغضاً غيره ، كما تؤدى به هذه الظروف فى الغالب إلى أن يكون عصبياً ثورياً ؛ ثم إن حرمان الطفل مَن يحميه ويقيه ، يجعله يحس بأنه مهدَّد ، عُرْضَةٌ لعدوان الآخرين ، ومن هنا ينظر للعالم نظرة عدائية ، وتشب فيه هذه الخصلة فيتصدى للناس ويعاديهم » .

تلك خلاصة الفكرة الذى أوضحها Hadfield وهى — مع ماسبقها — تضع أيدينا على العلة فى نفس الربيع بن يونس ، هذه العلة التى وَرِثها عنه ابنه الفضل ، وهاك عن هذا بعض البيان :

لقد كانت طفولة الربيع طفوله بائسة حقاً ، طفولة تعسة شقية ؛ فهو كما يقول الأصفهانى [1] نقلا عن آل أبى فروة « لقيط ، وُجِد منبوذاً ، فكفله يونس بن أبى فروة » ، أما الجهشيارى فيروى رواية أخرى فى ذلك الموضوع وهى : كان يونس بن أبى فروة شارياً شاطراً بالمدينة [2] ، فعلِق أَمَةً لقوم بها ، فوقع عليها ، فجاءت بالربيع واستُعبِد ، ولم يكن ليونس خال فيبتاعه (يبتاع الربيع) فابتاعه زياد بن عبدالله الحارثى خال أبى العباس السفاح [3] .

(١) الأغانى ١٧ : ١٢١

(٢) شاريا : نسبة إلى الشراة وهم الخوارج ، وشاطراً : نسبة إلى الشطار وهم جماعة كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب .

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٢٥

ويتحدث الربيع عن نفسه فيقول : كنت فى خمسين وصيفاً أهدوا للمنصور ، ففرقنا فى خدمته ، فصرت إلى ياسر صاحب وضوئه أعاونه فى عمله (١) .

تلك هى طفولة الربيع القاتمة : لقيط منبوذ ، أو عبد اشترى بالمال أو أحد خمسين وصيفاً أهدوا للمنصور ، ثم يكون حظه أن يلتحق بمن يحمل الإبريق للخليفة ؛ وكل هذا يدلنا على أن الربيع عانى طفولة مُرَّة ، وكان هدفاً لكثير من الزجر والانتهار والتهكم والاستهزاء والقسوة ؛ وفى قصر زياد بن عبدالله الحارثى ، ثم فى قصر الخليفة ، رأى غيره من الأطفال السعداء الباسمين المحظوظين ، ووازن بين ذلك وبين حرمانه وتعاسته وما يعانيه من إهمال وازدراء ، فتكوَّن عنده مركب النقص ؛ هذا عن الربيع أما عن الفضل فقد كان مثقلا بالعبء الذى ورثه له أبوه ؛ لقد كان ابن لقيط ، وطالما عانى فى طفولته من جراء هذا العار .

والربيع بن يونس ذكى موهوب بلا مناضل ، ولذلك لم يقنع بالحالة المتواضعة التى نشأ فيها ، كما لم يرقه أن يبذل العمر كله مُجداً ليعوض ما به من نقص ، وإنما أراد الطفرة ، وحاول أن يصل بسرعة إلى هدفه وبغيته ، ولذلك لجأ إلى الطريق الأخير الذى تحدث عنه Adler فتصارع مع البيئة التى عاش فيها ، وكان دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه عن الوصول إلى غرضه ، وسار الفضلُ بن الربيع سيرة أبيه ، واتضحت فيه نظرية Adler سالفة الذكر لأنه عندما فشل لم يثبت للعاصفة ، وإنما تراجع واختفى .

---

(١) الأغانى ٦ : ٨٢

وهكذا عانى الربيع وابنه الفضل طفولة تعسة كوَّنت فيهما مركب النقص فإذا سرنا معهما إلى عهد الرجولة ، وجدنا أنه لم يتوافر لهما فيه راحة النفس ورضا الضمير ، على الرغم من أن الظروف قذفت بهما إلى المجد ، ووضعتهما فى أسمى المناصب ؛ وعلى العكس قذفت بهما هذه المناصب إلى العيش مع لدات وأتراب يفضلونهما فى كثير من الصفات التى كانت ذات خطر عظيم فى تلك الأيام ، لقد عاشا مع البرامكة ومع آل سهل ، ومع معن بن زائدة ومع معاوية ابن يسار ، ومع طاهر بن الحسين وغيرهم من السادة والقادة والنابهين ، فظهر فى الربيع وابنه إحساس بالنقص بالقياس إلى هؤلاء الأتراب ، ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، إذ لم يغفُل أترابُ الربيع وابنه عن انحطاط هذين وانحدارهما عن النظراء واللدات ، فكثيرا مانكأ هؤلاء جراح الربيع والفضل ، وكثيراً ماقذفوهما بالحقيقة المرة ، قال الربيع يوما لرجل كرَّر الترحم على أبيه فى حضرة المنصور : كم تكرر ذكر أبيك وتترحم عليه ؟ . فقال له الرجل : إنك معذور فى نقدك ؛ لأنك لم تذق حلاوة الآباء (١) . وتنازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى فى حضرة الرشيد ، فقال جعفر للفضل : يالقيط ؛ فاضطرب الفضل ، وقال اشهد يا أمير المؤمنين، فقال جعفر للرشيد : تراه عند مَنْ يقيمك هذا الجاهل شاهدا يا أمير المؤمنين ، وأنت حاكم الحكام . (٢) فهو فى هذه القصة طَعَنه فى نسبه وطعنه فى علمه ومعرفته بمخاطبة الملوك .

وأراد الربيع وابنه أن يكتمل لهما المجد ، ولكن هيهات أن يتم هذا

---

(١) الفخرى ص ١٥٣

(٢) الجهشيارى ٢١٦ ، وابن خلكان ١ : ٤١٢

وفى القصر معاوية بن يسار ، والبرامكة ، وغيرهم من الأمجاد المغاوير ؛ ويقول ابن خلكان [1] انه لما آل الأمر للرشيد ، واستوزر البرامكة ، كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من المقدرة مايدرك به اللحاق بهم ، فكان فى نفسه إحن وشحناء ، فسعى بهم وأوغر قلب الرشيد عليهم .

لقد تكوَّن مركب النقص فى الربيع وابنه منذ طفولتهما التعسة ، فلما شبا وقذف بهما حظهما وذكاؤهما إلى الأمام صُدما بالبيئة الجديدة التى كونت فيهما الإحساس بالنقص ولم يكن لهما من المقدرة ما يشجعهما على مواجهة هذه الظروف وجها لوجه ، ثم كان لهما تفوق ظاهر فى الناحية العقلية ، ومن أجل هذا ظهر فيهما الانحراف فى التعبير عما بنفسيهما من نزعات مكبوتة ، فلجآ إلى التحايل ، والكيد ، والدس ، دون أى اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية .

ومسألة أخرى نستقيها من كلام Hadfield سالف الذكر ؛ لقد سبق القول أن الربيع كان لقيطاً ، أو أنه كان ثمرة لالتقاء غير شرعى بين يونس ابن أبى فروة الشاطر الشارى وبين أَمَة لقوم بالمدينة . . . واشتراه زياد بن عبد الله ، وسواء أكان هذا أم ذاك فقد حُرِم الربيع أمّه أو حُرم حبَّ أمّه ، وهذا الحرمان — كما سبق القول — جعل الربيع حذراً ، لايواجه العالم بصراحة ، وإنما يواجهه بغموض والتواء ، كما جعله أنانيا ، مبغضاً لغيره ، عصبياً ثورياً ، يحس بأنه هدفٌ لهجوم الآخرين ، فيبادر هو

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٤١٢

بالهجوم عليهم ، وتتعمق فى نفسه نظرة عدائية بالنسبة للعالم ؛ وقد توافرت كل هذه الخصال فى الربيع ، كما ورثها ابنه الفضل .

دراسة مقارنة بين آل الربيع وأتراب آل الربيع

بقى علينا بعد هذا أن نقوم بدراسة مقارنة ، تبيّن لنا مركز الربيع ، والفضل بين اللدات والأتراب فى هذه البيئة الجديدة ، والذى أبادر فأسجله أن الدراسة التى قمت بها لأفذاذ الرجال فى هذا العصر بيَّنتْ لى بوضوح ، أن لدات الربيع والفضل ونظراءهما كانوا يفضلونهما فى الصفات السامية التى كان يتغنى بها الشعراء ويمجدون ذويها ؛ فى المحتد ، والكرم ، والبلاغة ، وقيادة الجيوش ، وسياسة الدولة ، وغيرها من الصفات التى تلزم أول ماتلزم ليتحلى بها من يتصدى لشغل هذه المناصب الرفيعة ، وإدارة هذه الدولة الفسيحة . ولنبدأ هذه الدراسة التى كونت الإحساس بالنقص فى نفسى الربيع والفضل :

المحتد :

كان المحتد وطيب الأرومة من أهم دواعى الفخر والتباهى فى تلك الأيام وكان الناس فى ذلك العصر — كشأنهم فى أغلب العصور التاريخية — يتفاخرون بالأجداد ، ويهتمون بعزة المنبت ، وكان أقسى مايرمى به شاعرٌ شاعراً أو قبيلةً أن يصفها بأن أصلها غير عريق ، وأن منبتها غير طيب ، والذى يطالع مثلا نقائض جرير والفرزدق يرى أن كلا الشاعرين تحدث عن حسبه ونسبه فى أكثر قصائده ، وفيما يلى مقتطفات قصيرة من أقوال الشعراء تدل على الاعتداد البالغ بالنسب والأرومة ؛ قال الأعشى :

جَروا على ماعُوّدوا ولكل عيدان عصارة (1)

(1) حماسة أبى تمام ص ٣٥١

وقال الأعجم :

قالوا : الأشاقر تهجوكم ؛ فقلت لهم : ما كنت أحسبهم كانوا ولا خُلقوا
وهم من الحسب الزاكى بمنزلة كطُحلُب الماء لا أصل ولا ورق

ويقول الفرزدق يهجو جريراً :

كم من أب لى يا جرير كأنه قمر المجرّة أو سراج نهار
ورث المكارم كابراً عن كابر ضخم الدسيعة يوم كل فخار (١)

ويقول جرير للفرزدق :

خالى الذى اعتسر الهذيل وخيله فى ضيق معترك وضيق مجال
جئنى بخالك يا فرزدق واعلمن أن ليس خالُك بالغاً أخوالى (٢)

وقال البعيث وهو حداش بن بشر يهجو جريراً :

وكل تراث المجد أورثنى أبى إذا ذكر الغالى من الحسب الجَزْل
أغرُّ يبارى الريح فى كل شتوة إذا اغبرّ أقدام الرجال من المحل
وإن لنا جداً كريماً ونجوة تتم نواصيها إلى كاهل عَبَل (٣)
وعمى الذى اختارت معدّ فحكّموا فألقوا بأرسان إلى حكم عدل (٤)

فإذا ما انتهينا من تقرير أهمية المحتد والأرومة ، فماذا تذكر لنا المراجع عن محتد الربيع وابنه وعن محتد نظرائهما من كبار الرجال فى بلاط العباسيين ؟ . .

---

(١) النقائض ٣٣٠
(٢) المرجع السابق ٣٢٤
(٣) نجوة : مرتفع من الأرض لا يناله السيل ، كاهل : شرف ، عبل : ضخم .
(٤) النقائض ١٣٧ — ١٣٩

لقد مر الحديث عن نسب الربيع وأرومته ، ولكنا لا ندعه قبل أن نضيف إلى ماسبق رواية هامة يوردها ابن طباطبا ، قال [1] « ... وبلغنى أن علاء الدين بن الجوينى صاحب الديوان كان ينتسب إلى الفضل ابن الربيع ، فإن كان قد انتحل هذا النسب ففضيحة ظاهرة ، وإن كان حقاً فلقد كان العقل الصحيح يقتضى ستره ، فإنه نسب لا يوجد أرذل منه ، فإن جده أبا فروة كان ساقطاً ، وكان عبداً للحارث حفار القبور بمكة ، والحارث مولى عثمان بن عفان ، فأبو فروة عبدُ عبدِ عثمان ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وإن وِلا كيسان للحارث الذى ولِى زمنا حفر القبور بيثرب

وأبو فروة خرج عَلىَ عثمانَ يوم الدار ، وكفاه بذلك عاراً ، فانظر هل ترى نسباً أسقط أو أرذل من هذا ؟ » .

ذلك هو أصل الربيع بن يونس وابنه ، وهذا هو محتدهما ، وقد كانا يشغلان أرقى المناصب فى قصور الخلفاء العباسيين الأول التى كانت تزدان بطائفة من ذوى الأصل العريق ، والمحتد الرفيع ، ومن هؤلاء :

البرامكة : ينتسب البرامكة — كما سبق القول — إلى أصل فارسى عريق ؛ إذ كان جدهم برمك سادن النُّوبَهار ، وهو معبد المجوس ، فكان يقوم بالإشراف الكامل عليه ، وبخاصة على الشئون الدينية مثلما كان قصىّ وأولاده من بعده ، يقومون بسدانة الكعبة ، وهذا العمل من أمجد وأشرف الأعمال [2] وفى نسب البرامكة يقول أبو الحجناء :

(١) الفخرى ١٥٣ — ١٥٤

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣٢١ ، والدكتور حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسى ٢ : ٤٩

عند الملوك مضرة ومنافع وأرى البرامك لا تضر وتنفع
إن العروق إذا استسرّ بها الثرى أشِر النبات بها، وطاب المزْرَع
وإذا جهلت من امرئ أعراقه وقديمَه فانظر إلى ما يصنع [1]

بنو سهل: بنو سهل ينحدرون من محتد عريق، وأرومة شامخة، يقول عنهم ابن طباطبا [2] إنهم من أولاد ملوك الفرس قبل الإسلام.

طاهر بن الحسين: توضح القصة التالية سمو العنصر الذى ينتسب إليه طاهر، حدث الجهشيارى قال: [3] ندب الفضلُ بن سهل طاهرَ بن الحسين لقيادة جيش المأمون، ومواجهة جيوش الأمين، فلما عرف الحسين ابن مصعب والدُ طاهر ذلك، أنكره، وقال لطاهر: الفتن لا يتعرض فيها إلا كل خامل، لا أصل له ولا نباهة، ليُذكر فيها أو يُعطب فلا يبالى، وأنت فلَكٌ قديم مؤثَّل؛ فقال طاهر لأبيه: لم يذهب علىّ ما قلت، ولكنى خفت إن لم أقبل ما دُعيتُ إليه، أن يقلَّد الأمرَ غيرى، وأُضَمَّ إليه. فلأن أكون متبوعاً أفضل من أن أكون تابعاً.

تذكير الملوك بذمام متقدم:

نستعير هذا العنوان من ابن عبد ربه؛ [4] فقد أثبته، وأورد تحته ما يدل على أن الملوك كثيراً ما يقدِّرون الصنيعة التى قُدِّمت لهم قبل أن يكون لهم الملك، ويذكرون العون الذى أمدَّهم به سواهم إبان كفاحهم من أجل

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص ٢٠٣
(٢) الفخرى ص ١٩٦
(٣) الوزراء والكتاب ص ٢٩١
(٤) العقد الفريد ج ٢ ص ١٦٧ طبعة لجنة التأليف

إقامة الدولة ؛ وقد كانت الدولة العباسية دوله ناشئة فى ذلك الحين ، وكان نجاح دعوتها أثراً من آثار الكفاح والنضال لبعض رجالات هذا العصر ، كما كان بعض الخلفاء العباسيين يحسون بأنهم مدينون لبعض أتباعهم ممن أمدُّوهم بالعون قبل الخلافة ، أو عملوا على تصيير الخلافة لهم ؛ فمن الطبيعى إذاً أن يفخر هؤلاء بما قدموا من جهد ، وأن يحس سواهم بأنه أقل قدراً ومقاماً ؛ ويمكن القول على هذا أن الذين كانت لهم سابقة جهد ومؤازرة حظوا بدالة على الخلفاء ، ومنزلة سامية لديهم ترجح كثيراً منزلة هؤلاء الذين جاءوا ليجنوا ثمرة دون أن يبذروا بذوراً أو يغرسوا غرساً ؛ ومما حكاه ابن عبدربه [1] أنه لما صارت الخلافة إلى أبى جعفر كتب إليه رجل من إخوانه :

إنا بطانتك الألى كنا نكابد ما تكابد
ونُرَى فنُعرفَ بالعدا وة والبعاد لمن تُباعدْ
ونبيت من شفق عليـــك ربيئةً والليل هاجدْ
هـــذا أوان وفاء ما سبقت به منك المواعِدْ

فوقع أبو جعفر على كل بيت منها : صدقت صدقت ؛ ثم دعا به وألحقه بخاصته .

فإذا استقر لنا هذا المعنى فإننا نتساءل : ماهو الدور الذى قام به الربيع وابنه فى إقامة هذه الدولة ؟ أو ما هى اليد التى كانت لهما عند أحد الخلفاء ؟ ثم ما هو دور الآخرين فى ذلك ؟ .

(١) المرجع السابق ص ١٦٨

إن التاريخ يقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الربيع وابنه ليس لهما أى فضل فى إقامة هذه الدولة ، ولم يظهر الربيع وابنه إلا بعد أن تم النصر للعباسيين ، بل انهم كانوا حتى عهد المنصور خدماً أو مساعدين للخدم ، وقد مرّ بنا ماحكاه الربيع من أنه كان فى خمسين وصيفاً أهدوا للمنصور ففرقهم فى خدمته ، فصار إلى ياسر صاحب وضوئه . . . ثم أعجب به المنصور لخفته وذكائه فأعتقه وأحله محل ياسر [١] .

وإذ فات الربيعَ وابنَه هذا الشرفُ فإنهما حاولا جاهدين أن يكون لهما نصيب فى تصيير الخلافة إلى بعض الخلفاء ؛ ولكنهما فشلا فى كل محاولة قاما بها ؛ فمن المحاولات التى قام بها الربيع ما سبق أوردناه عن موقفه بعد موت المنصور وإجلاسه إياه جلسة الأحياء وهو ميت . . . وكان بذلك يطلب الحظوة لدى المهدى ، ويظن أنه يقدم للخليفة الجديد يداً عظيمة ، ولكن نصيبه من المهدى كان الازدراء والتأنيب . فما كان له أن يسخّر هكذا جثمان الخليفة الراحل .

وهناك محاولة أخرى قام بها الفضل ، وهى إيعازه للأمين أن يخلع المأمون والقاسم ويجعل ابنه موسى ولياً للعهد ، وكان بذلك يرجو أن تكون له الحظوة فى قصر الأمين وبعده فى بلاط ابنه ، ولكن هذه المحاولة أيضاً باءت بالفشل ودفع الأمين رأسه ثمناً للغدر الذى أوعز به الفضل بنُ الربيع.

وإذ سلب التاريخُ الربيعَ وابنه هذا الشرف ، فماذا سجل لسواهما من رجالات القصر الآخرين :

(١) الأغانى ٦ : ٨٢

البرامكة : للبرامكة دور هام فى إقامة الدولة العباسية تحدثنا عنه كثيراً ، وكان نصيب خالد بن برمك فى ذلك نصيب الأسد ، فلقد كان يخوض المعمعة ضد الأمويين ، وبفضله استطاع الجيش العباسى الانتصار على الجيش الأموى الذى كان يقوده ابن ضبارة . هذا عدا تنظيمه الخراج للدولة الناشئة ، وجمع المال بيسر وسهولة للمناضلين من آل البيت .

وبعد خالد يجيء دور يحي الذى استطاع أن يحفظ الخلافة للرشيد ، وما كان الرشيد لينالها لولا يحي بن خالد . وقد عبر الرشيد بنفسه عن ذلك أدق تعبير فى قوله ليحي : يا أبت أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ، ويمنك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر [1] .

أبو أيوب المورياني : كان المنصور — كما سبق — يحس بفضل أبى أيوب المورياني عليه ، فأبو أيوب هو الذى شفع له لدى سليمان ابن حبيب ، فلما لم يقبل سليمان شفاعة أبى أيوب وانهالت السياط على المنصور ، ألقى أبو أيوب بنفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى أمسك عن ضربه ، ويقول ابن خلكان [2] : « فاعتدها المنصور له » .

طاهر بن الحسين : ينحدر طاهر من أسرة كافحت فى جانب العباسيين منذ بدء حركتهم يقول الجهشيارى [3] : وكان المتولى لمكاتبة الامام عن الدعاة والقيّم بأمرهم ، وقراءة الكتب إليهم بمحضر جماعتهم ، طلحة

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٢٢

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٢١٦

(٣) الوزراء والكتاب ص ٨٤

ابن زريق ، أخو مصعب بن زريق جد طاهر بن الحسين ويقول ابن خلكان[1] : كان مصعب بن زريق جد طاهر كاتباً لسليمان بن كثير صاحب دعوة بنى العباس ؛ فكان بذلك خير معين على نجاح الدعوة ، وتصيير أمورها إلى النصر .

قيادة الجيوش وفنون الحرب :

تعتمد الدولة الناشئة على القوة فى تثبيت دعائمها ، وتأمين حدودها ، ولهذا كان من الطبيعى أن يحظى القواد الأبطال المغاوير بمكانة عظيمة لدى الخلفاء والملوك . فهل كان الربيع بن يونس وابنه الفضل ممن لهم خبرة بقيادة الجيوش وفنون الحرب ؟

الإجابة هنا تنطلق قوية ، لا تردد فيها ، وهى أن هذين الرجلين لم يكن لهما فى ميادين الحروب مجال ، ولنعد إلى يوم الهاشمية بشىء من التفصيل لنرى موقف الربيع فيه ، ولنسمع رأى المنصور ، ومعن بن زائدة فى الربيع ؛ حدث الأصفهانى [2] قال : خرج المنصور راكباً بغلة يمسك بزمامها الربيع بن يونس ، فوثب الراوندية على المنصور ، وتغلبوا على غلمانه ، وكادوا يقتلونه ، فوثب معن بن زائدة وهو متلثم ، فانتضى سيفه ، وقاتل ، فأبلى بلاء حسنا ، ودفع القوم عنه حتى نجا المنصور ، ثم جاء تجاه المنصور ، وقال للربيع : تنح فإنى أحق باللجام منك فى هذا الوقت وأعظم فيه غناء ، فقال المنصور : صدق فادفعه إليه ؛ فأخذه فلم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت ؛ لله أبوك ؟ قال :

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٢٣٧

(٢) الأغانى ٩ : ٤١

أنا طلبتك يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة ، قال : قد أمنك الله على نفسك ومالك فمثلك يصطنع ، وأخذه معه وخلع عليه .

وليس بغريب بعد هذا الذى سجله الأصفهانى ، أن ينقضى ذلك العصر كله بما فيه من حروب ووقائع دون أن نجد الربيع يقود جيشاً أو نرى الفضل يتقدم جنداً ؛ فإذا تركنا الربيع وابنه إلى سواهما من الأتراب والنظراء ، فماذا نرى ؟

معن بن زائدة : نسير خطوة أخرى مع معن بن زائدة ، مستكملين رواية الأصفهانى عنه[1] قال : ثم دعا جعفر معن بن زائدة يوماً ، وقال له : إنى قد أمّلتك لأمر ، فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يحبُّ أمير المؤمنين ؛ قال : قد وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى تعود إلى الطاعة والهدوء ، قال : أبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين ، فولاه اليمن ، وتوجه إليها وبسط فيها السيف حتى كان له فيها ما تمنى وما أرضى أبا جعفر المنصور .

يزيد بن مزيد : هو ابن أخى معن بن زائدة ، وكان سيفاً من سيوف بنى العباس ، يلقون به فى خضم الأحداث فيكسب النصر ويحرز الفوز ، وقد كان يزيد وعبد الله بن مالك وغيرهما من القواد أغروا الهادى بخلع الرشيد وتولية ابنه جعفر ولاية العهد[2] فأحفظ ذلك قلب الرشيد على يزيد ، ولكنه عفا عنه لبأسه وقوته ولحاجته إلى مثله ، وقد سبق أن تحدثنا عن بطولة يزيد فى حرب الخوارج والإيقاع بالوليد بن طريف ، وفى يزيد وشجاعته يقول مسلم بن الوليد :

---

(١) المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

(٢) الجهشيارى ص ١٧٤

سد الثغورَ يزيد بعد ما انفرجت بقائم السيف لا بالختل والحيل
يغدو فتغدو المنايا فى أسنته شوارعا تتحدى الناس بالأجل
قد عوّد الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه فى كل مرتحل
إذا انتضى سيفه كانت مسالكه مسالك الموت فى الأبدان والقلل
الزائديون قوم فى رماحهم خوف المخيف وأمن الخائف الوجل
كبيرهم لا تقوم الراسيات له حلماً وطفلهمُ فى هدى مكتهل
اسلم يزيد فما فى الملك من أَوَدٍ إذا سلمت ولا فى الدين من خلل
وافخر فما لك فى شيبان من مثل كذاك ما لبنى شيبان من مثل
لله من هاشم فى أرضه جبلٌ وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل[1]

البرامكة : سبق أن تحدثنا عن خالد بن برمك من ناحية خبرته الحربية، وموقفه فى يوم ابن ضبارة، ولن نعود للحديث عن ذلك، ولكننا نضيف إلى خالد موقفاً آخر من مواقفه الحربية الناجحة؛ حدث الجهشيارى[2] قال : «أغزى المهدى ابنه هارون الصائفة سنة ١٦٣ هـ وأنفذ معه خالد ابن برمك وقلد كتابته ونفقاته وتدبير أمر عسكره يحيى بن خالد فَفُتِح عليهم وحسن أثرُ يحيى فيما قام به، وأُحمِد فعلُه، وتدبيره إياه» وكانت سن الرشيد فى ذلك الحين خمسة عشر عاما فلا نزاع أن أمور الجيش كانت فى يد خالد من الوجهة العملية، وأن ما حصل عليه الجيش من نصر إنما كان وليد خبرة خالد ومعرفته بشئون الحرب .

(١) ديوان مسلم بن الوليد ص ٤٧ وأبو هلال العسكرى: ديوان المعانى ١: ١١٦ـ١١٧
(٢) الوزراء والكتاب ص ١٥٠

وكان الفضل بن يحيى قائداً مبرزاً . وقد سبق أن ذكرنا أن الرشيد ندبه سنة ١٧٦ هـ لمواجهة يحيى بن عبد الله حينما اشتد أمره ببلاد الديلم ، وقد استطاع الفضل أن يستنزل يحيى من حصونه بعد أن استعمل معه أساليب التحذير والترغيب والترهيب وغيرها حتى استسلم دون حرب مكتفياً بأمان الرشيد وحماية الفضل (١) .

وقد سجل نصيب الشاعر هذه الحادثة فى قصيدة رائعة منها :

قاد الجياد إلى العدو كأنها ... رِجْلُ الجرادِ تسوقهن جَنُوبُ (٢)
من كل مضطرب العنان كأنه ... ذئب يبادره الفريسةَ ذيبُ
تهوى لكل مغـاور عاداته ... صدق اللقاء فما له تكذيب
حتى صبحن الطالبي بعارض ... فيه المنايا تغتدى وتئوب
خاف ابنُ عبدالله ما خوفتَه ... فارتد ثم أتاك وهو منيب
ولقد رآك الموتَ إلا أنه ... بالظن يخطئُ مرة ويصيب
فرمى إليك بنفسه فنجا بها ... أجلٌ إليـه ينتهى مكتوب
فكسوته ثوب الأمان وإنه ... لا حبله واه ولا مقضوب (٣)

ولجعفر بن يحيى موقف كموقف أخيه ، فإنه لما هاجت العصبية بين النزارية واليمنية بالشام وأصبحت الدولة كلها مهددة بذلك الشر وتلك الفتنة ، قال الرشيد لجعفر : إما أن تخرج أنت إليها ، وإما أن أخرج أنا ، فخرج

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٤١
(٢) رجل الجراد : الجماعة الكثيفة منه ، والجنوب : ريح الجنوب .
(٣) الأغانى ٢٠ : ٣١

جعفر ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال ، فلما وصل الشام ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد ، وشرّد آخرين ، وسرعان ما ملأت هيبته النفوس ، فسكنت الفتنة واستقامت الأمور (١) وقد مدحه مسلم بن الوليد بقصيدة طويلة بعد أن هدأ الثورة وألف بين القلوب جاء فيها :

استفسد الدهرُ أقواماً فأصلحهم   مَحْمَلٌ نكبات الدهرِ محتمِلُ
به تعارفت الأحياء وأتلفت   إذ ألَّفتهم إلى معروفه السبل
كأنه قمر أو ضيغم هَصِرٌ   أو حية ذَكَرٌ أو عارض هطل (٢)

وعن موسى بن يحيى يقول أستاذنا الخضرى (٣) : وأما موسى بن يحيى فكان أشجع القوم ، وأشدهم بأساً ، لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر إلا أنه كان فى تلك الدولة عاملا سرياً وقائداً باسلا ، وقد ولاه الرشيد الشام لما هاجت بها الفتن وظهر العصيان قبل الحادثة التى ذهب فيها أخوه جعفر ، فذهب إليه ومعه القواد والأجناد فاستطاع أن يخمد الثورة ويضع حداً للفتن ، وفى هذه الحادثة يقول الشاعر :

قد هاجت الشام هيجاً   يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها   بخيله وجنوده
فدانت الشام ذعراً   من بأسه وحديده

شئون السياسة والإدارة :

تحتاج الدول إلى ساسة حكماء ، وعباقرة موهوبين ، وذوى خبرة

(١) المرجع السابق ، والجهشيارى ص ٢٨
(٢) ديوان مسلم بن الوليد ص ٥٧
(٣) محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ٢٥٩ ـ ١٦٠

وكياسة يدبرون أمرها ، ويتصدون لحل مشكلاتها ، ويسهرون على سلامتها ، وحسن سير الأمور فيها . فلننظر نظرة إلى كبار رجال هذا العصر ، لنرى النصيب الذى أسهم به كل منهم فى تدبير هذه الشئون ، ورعاية هذه الدولة :

الربيع بن يونس وابنه الفضل : سنرى فيما يلى كيف كانت سياسة الربيع وابنه سياسة فاشلة ، قصيرة النظر ، والحقيقة إن الإنسان ليلتمس لهما العذر ، فالسياسة علم عميق يحتاج إلى سعة اطلاع وخبرة ودربة ، وأنى للربيع ذلك وقد كان بالأمس القريب خادماً صغيراً ووصيفاً حقيرا ؟ وكيف يقاس بالبرامكة فى هذا الشأن ؟ والبرامكة ذوو المجد المؤثل ، قرءوا حكمة الفرس ، وعرفوا سياسة الدول قبل أن يصلوا إلى خلفاء بنى العباس .

وأقرر أنه ليس للربيع بن يونس — فيما قرأت — موقف واحد يُذكر فيشكر ، ويدل على سداد الرأى ، وعلو القدم فى شئون السياسة ، ومن خطل سياسته موقفه من جثمان المنصور عقب وفاته ، وقد مر الحديث عنه .

أما الفضل بن الربيع فقد أغرق فى الفشل وأبعد فيه ، وقد سجل التاريخ عليه أموراً تدل على عدم معرفته بسياسة الدول ، وتدبير الأمور فيها ، وقد أشرنا فى مواضع متفرقة إلى بعض تلك الأمور ، ونعود هنا فنستوفيها موجزين القول فيما سبق أوردناه :

لما انقضى أمر البرامكة اختلت الأمور ، ولم يقو الربيع على الإشراف على قصر الخليفة وعلى مملكته إذ شغلته خدمة الخليفة وتدبير شئونه الخاصة ، فأضاع ما وراء ذلك من الشئون والأمور ، فتعطلت المصالح

واضطربت الأمور ، وكانت الصحف التى ترد من الولايات لا تجد من يفضها ويجيب عنها ، وكان الرشيد يرى ذلك فيتمثل بقول الشاعر :

أقلوا عليهم - لا أبا لأبيكم -

من اللوم أو سدوا المكان الذى سدوا

ومن خرق الفضل أنه أسند قيادة جيش الأمين إلى على بن عيسى ابن ماهان ، وقد كان هذا والياً على خراسان فأساء السيرة ، وعبث بالأموال والرجال ، فما إن ولاه الفضل قيادة جيش الأمين حتى جدَّ الخراسانيون فى حربه خوفاً من أن يعود إليهم شره وعدوانه .

ولجأ الفضل بن الربيع إلى بطل من أبطال العرب هو أسد بن يزيد ابن مزيد ليتولى قيادة جيوش الأمين ، ولكن أسداً - فى سبيل تقوية جنده - اشترط شروطاً خاصة فى الأموال والعتاد والرجال ، فغضب الفضل ، وصار به إلى الأمين ، وأخبره بذلك فأمر بحبسه [١] .

وكان الحسين بن على بن عيسى بن ماهان قد ثار على الأمين وخلعه ، ودعا للمأمون فى بغداد ، ولكن جند الأمين تغلب بعد حين على جند الحسين . وأعيد الخليفة ، وقُبض على الحسين وجىء به إلى الأمين فعفا عنه ، ثم ظهر سوء تدبير الفضل وخرقه إذ عَين الحسين هذا قائداً لجيوش الأمين التى تحارب المأمون ، ولكن نفس الحسين ما كانت تكنْ أى لون من الوان الولاء للأمين بعد أن خلعه وحارب جنده ، ولذلك نجده يسارع بالهرب [٢] .

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٩٤

(٢) ابن الأثير ٦ : ٨٦ — ٨٧

فإذا تركنا الربيع وابنه لنعرج على الآخرين من النظراء والأنداء فإننا نجدهم أبرع سياسة، وأكثر حكمة، وأعمق فهما للأمور، ونسارع — ونحن لازلنا على ذكر من موقف الفضل بن الربيع من أسد بن يزيد بن مزيد — فنروى ما فعله الفضل بن سهل فى موقف مماثل ؛ روى الجهشيارى (١) أن الفضل بن سهل ندب طاهر بن الحسين لقيادة جيوش المأمون فرآه متثاقلا ، فقال له : ما أمنيتك ؟ قال : أمنيتى أن أخطب على منبر فوسنج [البلدة التى كانت تسكنها أسرته بخراسان] ويكون فى صندوقى مائة ألف درهم . فولاه فوسنج وأمر له بمائة ألف درهم . وتركه أياما ثم دعاه إلى الشخوص فأجابه ، فقال الفضل : إذا نال الرجل المنى ، خاض الدماء .

وقبل أن ندع الفضل بن سهل نروى ما ذكر عنه من أنه أمضى ثلاثين سنة وهو يعذب نفسه فى تعلم الحكمة والمروءة والأدب فلا غرو إذاً إذا كتب له النجاح فيما قام به من أعمال (٢)

ونترك الآن الفضل بن سهل إلى معاوية بن يسار والبرامكة :

معاوية بن يسار : داهيــة من كبار الدهاة ، وسياسى من أساطين الساسة ، شهد له عدوه القشيرى — والفضل ما شهدت به الأعداء — بأنه ليس بجاهل فى صناعته ، وأنه لأحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، وأنه لأعف الناس ؛ كان يقوم بأمر المهدى فى حياة المنصور فجاءه المهدى يوما فرحا مستبشراً ، وأخبره أن المنصور ذكر له أنه كبر

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٩٠ — ٢٩١ .
(٢) انظر الجهشيارى ٢٨٠ — ٢٨١ .

وعجز عن مباشرة الأعمال ، وأنه ينوى أن يدع الأمر له ، فقال معاوية : أيها الأمير ، اتق الله ولا تظهر لأمير المؤمنين قبولا ، فانه إنما سبرك بما عرض عليك . وعلّمه إجابة يلقيها إذا عاد المنصور لحادثه فى هذا ؛ وبعد أيام قال المنصور للمهدى : هل فكرتَ فيما قلت لك ؟ قال المهدى : والله لا أتعرض لهذا الأمر ، ولا أنهض به ، ولا أغُرُّ أمير المؤمنين من نفسى ، ويُبقى الله أمير المؤمنين ، ويمتعنا بحياته ، قال المنصور : من صدّك عنه ؟ ومن ناظرت فيه ؟ فقال شاورت معاوية ؛ فاستدعى المنصور معاوية وسأله وأمّنه فقال معاوية : إنى أدركت أنك ما عرضت عليه ذلك وأنت تريده ، وإنما أردت أن تختبر عقله ، قال المنصور : وكيف عرفت ذلك ؟ قال : من حرصك على العمل ، وحبك له ، وشغفك به ، وبَذْلِك الجهد فى الليل والنهار للنظر فيه ، فعلمت أنك لاتدع شيئاً يكون موقعه منك هذا الموقع لتؤثر به غيرك ؛ قال المنصور : ما كنت أحسب أن أحدا يدرك ما أدركت ، وقد أصبت الرأى ، بارك الله عليك (١) .

البرامكة : لقد مرت بنا ألوان رائعة ، وأمثلة مونقة ، تدل دلالة واضحة على براعة البرامكة وتفوّقهم فى شئون السياسة ، وإدارة الدولة وقد ورث هذه البراعة كابرٌ منهم عن كابر ، ونحن فيما يلى نورد مُثُلاً قليلة اكتفاء بما سبق ذكره عن هؤلاء الرجال الأفذاذ :

أمرت الخيزران أن يُقتل من كان تسرّع إلى خلع الرشيد . ودعا إلى بيعة جعفر بن الهادى ، فقال لها يحيى : أو خير من ذلك ؟ قالت :

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٢٨ ـ ١٢٩ .

وما هو ؟ قال : يُرمى بهم فى نحور الأعداء ؛ فإن أصابهم العدو استرحت منهم ، وإن دفعوا العدو كان لنا منهم خيرٌ ، ولهم فى ذلك عنا شغل ؛ فأذنت له فى ذلك ، فنجا القوم جميعاً . (١) .

وقد سبق أن تحدثنا عن الموقعة التى دارت بين الرشيد ونقفور وصورنا كيف هُزم الأخير وطلب الصلح على مال يؤديه ، ثم عاد فغدر ونقض العهد ظانا أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه ، وقلنا إن هذا النكث كان شديد الوقع على قادة المسلمين حتى أن أحدا منهم لم يجرؤ أن ينقله للرشيد ، ولكن يحيى بن خالد كان فطنا حكيما ، فعرف بسياسته ودهائه كيف يخبره ، وكيف يصور له هذا الأمر على أنه بشرى وغنم ، فأوعز إلى الحجاج المكى بهذه المعانى فصاغ هذا منها قصيدة مطلعها :

نقض الذى أعطيته نقفور   فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه   غنم أتاك به الإله كبير

فقال الرشيد ليحيى : قد علمت أنك احتلت فى إسماعى هذا الخبر على لسان المكى ، ونهض نحو الروم فافتتح هرقلة (٢).

وحينما كان الفضل واليا على خراسان ، ومقيما بها ، ورد على الرشيد — ويحيى بن خالد بين يديه — كتاب صاحب البريد يذكر فيه أن الفضل ابن يحيى متشاغل بالصيد واللذات ، فلما قرأ الرشيد الكتاب ، ألقى به إلى يحيى ، وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إليه بما يردعه ، فمد يحيى يده إلى دواة الرشيد ، وكتب إلى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد :

(١) الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ١٧٨ .
(٢) الطبرى ١٠ : ٩٩ ، والجهشارى ص ٢٠٧

« حفظك الله يا بنى وامتع بك ، قد انتهى إلى أمير المؤمنين مما أنت عليه ما أنكره ، فعاود ما هو أزين بك ، فإنه من عاد إلى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به والسلام

إنصَبْ نهارا فى طلاب العلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل أتى مقبلا ... واستترت فيه وجوه العيوب
فكابد الليل بما تشتهى ... فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكا ... يستقبل الليل بأمر عجيب
أرخى عليه الليل أستاره ... فبات فى لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة ... يسعى به كل عدو رقيب »

وكان يحيى يكتب ، والرشيد ينظر إليه ، فلما فرغ قال الرشيد : أبلغت يا أبت. فلما ورد الكتاب على الفضل كان يلزم المسجد والجد طيلة النهار(١).

البلاغة والأدب :

تحدث ابن عبد ربه عن أثر البلاغة والأدب فقال(٢) : « سحر البيان يمازج الروح لطافة ، ويجرى فى النفس رقة ، والكلام الرقيق مصايد القلوب ، وإن منه لما يستعطف المستشيط غيظاً ، والمندمل حقداً ، حتى يطفىء جمرة غيظه ، ويسل دفائن حقده ، وإن منه لما يستميل قلب اللئيم ، ويأخذ بسمع الكريم وبصره . . . وكم مَنْ تخلَّص من أنشوطة الهلاك ، وتفلت من حبائل المنية ، بلطيف التوصل ، ولين الجواب ، حتى عادت سيئاته حسنات ، وعيض بالثواب بدلا من العقاب »

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ١ : ٤٠٩ . والمسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٨٢
(٢) العقد الفريد ٢ : ١٢٢ وما بعدها (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم ، فأخذ السياف ينفذ أمره ، ثم قُدِّم منهم شاب فقال : والله يا حجاج لئن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو ؛ فقال الحجاج : أفّ لهذه الجيف ، أما كان فيهم من يقول مثل هذا ؟ وأمسك عن القتل[1] .

وكان الرشيد يكره الشيعة ويقتلهم ، وكان مسلم بن الوليد (صريع الغوانى) قد رُمى عنده بالتشيع فأمر بطلبه ، فهرب منه ، ثم أمر بطلب أنس بن أبى شيخ ، فهرب منه . ثم قبض عليهما وهما عند قينة ببغداد ، فلما عرف الرشيد ذلك قال : الحمد لله الذى أظفرنى بهما ، ياغلام ، أحضرهما فلما دخلا قال الرشيد : إيه يامسلم ، أنت القائل :

أنِسَ الهوى ببنى على فى الَحشَا ... وأراه يطمح عن بنى العباس

قال : بل أنا الذى أقول يا أمير المؤمنين :

أنِسَ الهوى ببنى العمومة فى الَحشَا ... مستوحشاً من سائر الإيناس
وإذا تكاملت الفضائل كنتمُ ... أولى بذلك يا بنى العبـــاس

فعجب الرشيد من سرعة بديهته ، ثم سأله أن يقول شعراً فى أنس وذعره فقال :

تلمظ السيف من شوق إلى أنس ... فالموت يلحظ والأقدار تنتظر
فليس يبلغ منه ما يؤمِّله ... حتى يؤامر فيه رأيك القدر

وبهذا استطاع مسلم أن يسترضى الرشيد فعفا عنه ، وأجازه ، وأما أنس فقد لقى حتفه[2] .

---

(١) العقد الفريد ٢ : ١٧٣ ــ ١٧٤
(٢) المرجع السابق ١٨٠ ــ ١٨٢

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » .

وقالت العرب : أنفذُ من السهم كلمة فصيحة .

وقال الراجز :

لقد خشيتُ أن تكون ساحرًا راويةً حيناً وحيناً شاعرًا

وقالوا : البيان بصر، والعي عمى ، وقالوا : ليس لمنقوص البيان بهاء[1] .

وقال يحي بن خالد : ما رأيت رجلا قط إلا هبته حتى يتكلم ؛ فإن كان فصيحاً عظم فى صدرى ، وإن قصّر سقط من عينى [2] .

وكان البيت من الشعر يرفع ويخفض ؛ إذ كانت البلاغة قوية التأثير على الجماهير ، ومما يدل على ذلك هجاء جرير لنمير بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فلم تكن كعب ولا كلاب بأسمى محتدا من نمير ، ولكن الشاعر ألصق بهم هذه التهمة ، فذاعت ، وتلقاها الناس كأنها حقيقة مسلم بها .

ومن تأثير الشعر ما رواه ابن هشام [3] أن الرسول (ص) بعد أن نفذ أمره بقتل النضر بن الحرث استمع إلى القصيدة التى رثته بها أخته قتيلة ، والتى منها :

أمحمدٌ يا نجل خير كريمة فى قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرّك لو مننت وربما منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال الرسول : لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه .

---

(١) المرجع السابق ١٢٢ ـ ١٢٣

(٢) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ٤٠

(٣) السيرة النبوية على هامش الروض الأنف ٢ : ١١٨ ـ ١١٩

وبعد ، لعلنا بهذا صورنا خطر البلاغة والبيان فى هذه العصور ، لنستطيع أن نضع فى الميزان كبار الرجال فى قصور العباسيين ؛ ولعلنا أعربنا أوكدنا أن نعرى الربيع بن يونس وابنه الفضل من التفوق والامتياز فيما أسلفنا من فصول ، وذلك لأنها كانت محددة المعالم واضحة كالحتد والذمام المتقدم... ولكننا هنا ونحن نتحدث عن البلاغة والأدب لا نستطيع أن نصدر حكما فاصلا كالأحكام التى سبق إيرادها . ذلك لأن لكل إنسان نصيباً من البلاغة والأدب ، فما ظنك بالربيع بن يونس وابنه ، وقد عاشا فى القصور التى كانت تزدان بالمجالس الأدبية ، وتتجاوب فيها قصائد الشعراء ، ويقصدها البلغـــاء والفصحاء؟ ولكننا مع ذلك نؤكد بنزاهة وثقة أن حظ الربيع وابنه من البلاغة والأدب كان ضئيلا جداً ، بالقياس إلى هؤلاء الأتراب والنظراء ، وحجتنا فى ذلك قوية إلى حد كبير ، فقد اعتمدتُ فى بحث هذه القضية على مراجع ثلاثة هامة ؛ أولها جمهرة رسائل العرب ، هذه الرسائل التى قام بجمعها من المراجع المتعددة الأستاذ أحمد زكى صفوت ، ورتبها ترتيباً دقيقاً ، وخصص الجزء الثالث من أجزائها الأربعة لرسائل العصر العباسى الأول ، وهو مجلد ضخم يقع فى ٥٦٠ صفحة من القطع الكبير ، وبه رسائل رائعة لأعلام الناس فى ذلك العهد ، ولكن المؤلف مع سعة قراءته واستقصائه وبذله الجهد لم يجد أية رسالة تنسب إلى الربيع بن يونس ، ولم يجد للفضل بن الربيع إلا رسالة واحدة قصيرة بعث بها إلى المأمون يستعطفه ويسأله الرضا عنه (١) وفى هذا

---

(١) اقرأها ص ٤٣٣ .

المجلد سبع قطع من روائع الأدب العربى منسوبة إلى أبى عبيد الله معاوية ابن يسار [1] وسبع قطع ممتعة منسوبة إلى يحيى بن خالد [2] وست قطع جزلة قوية لطاهر بن الحسين [3] وسبع قطع فى أرقى درجات البيان والفصاحة منسوبة إلى الحسن بن سهل [4] وغير هذه من رسائل الفضل ابن سهل ، وهرثمة ، وجعفر بن يحيى ، والفضل بن يحيى وغيرهم من أنداد الربيع وابنه ونظرائهما .

والمرجع الثانى الذى اعتمدت عليه هو العقد الفريد ، وقد عقد ابن عبد ربه فيه باباً طويلا أسماه «كتاب التوقيعات والفصول» ، وأورد فيه جملة كبيرة رائعة من التوقيعات وفصول العتاب والشكر وحسن التواصل والبلاغة وغيرها ، وقد خلا ذلك الباب كله من أى شىء يسند إلى الربيع ابن يونس أو ابنه الفضل ، ولكنه حفل بأفانين من القول مسندة إلى أتراب الربيع وأتراب الفضل ، ومن عاشوا معهما فى قصور الخلفاء [5].

والمرجع الثالث هو كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى ، وطبيعة موضوع هذا الكتاب تجعله يعنى عناية كبيرة بالوزراء : بيئتهم الأولى ، وكيف وصلوا إلى مناصب الوزراء ، والأعمال الجسام التى قاموا بها ، وما أثر عنهم من أدب رائع يستحق التسجيل ، ولكن الجهشيارى لم يذكر

---

(١) انظرها من ص ١٦٣ إلى ص ١٦٨

(٢) انظرها فى الصفحات الآتية : ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

(٣) إقرأها فى الصفحات الآتية: ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ، ٤٩٧

(٤) إقرأها فى الصفحات الآتية: ٤٠٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٧٣

(٥) إقرأ هذا فى العقد الفريد : كتاب التوقيعات والفصول ج ٤ ص ١٥٥ إلى ٢٤٨ طبعة (لجنة التأليف)

للربيع بن يونس أو لابنه الفضل شيئاً يتصل بالأدب أو البيان ، مع أنه أورد لسواهما من المعاصرين تحفاً غالية من الأدب الرفيع .

وعن أدب البرامكة يتحدث الجاحظ فيقول : حدثنى سهل بن هرون قال : والله إن كان الناس سجعوا الخطب ، ونظموا القريض ، فما هم إلا عيال على يحي بن خالد وجعفر بن يحي ، ولو كان كلام يُتَصوّر دراً ، أو يحيله المنطق جوهراً ، لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما . . . ولقد عبرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا انقادت إلا لهم[1].

وبين يدىَّ وأنا أكتب هذه السطور فصول رائعة من أدب البرامكة وغيرهم من معاصرى الفضل بن الربيع وأبيه ، وبودى لو اتسع المجال لعرض هذه النماذج الممتعة ، القوية البيان ، الرصينة الأسلوب ، الحلوة العبارة ، ولكن هيهات ؛ فلنكتف إذاً منها بما قلت ألفاظه ، وسمت قيمته ، وأرجو أن أوفق فى الاختيار ، فإن من العسير أن تختار أروع جمانة إذا كان كل ما بين يديك قطعاً من الجمان الفذ الفريد :

من كلام أبى عبيد الله معاوية بن يسار : التماس السلامة بالسكوت ربما كان أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أيسر من قمع بطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة ، أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وعز الغنى مانع من الإنصاف إلا لمن كان فى غريزته فضل كرم ، وفى أعراقه علو همة[2].

---

(١) العقد الفريد ٥ : ٥٨

(٢) الجهشيارى ١٠٦

ومن كلام يحيى بن خالد : العجب للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزكيه ، ويشهد بأنه محسن [١].

وكان يقول : لست ترى أحدا تكبّر فى إمارة ، إلا وقد دل على أن الذى نال ، فوق قدره ، ولست ترى أحدا تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه أكبر مما نال .

ومن قوله أيضاً . لا أرحام بين أحد وبين الملوك [٢].

وأوصى يحيى ابنه جعفرا بقوله : يابنى انتق من كل علم شيئا ، فإنه من جهل شيئاً عاداه ، وأنا أكبرك أن تكون عدوا لشىء من الأدب .

ومن قوله : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ، وفينا لمن بعدنا عبرة .

وكان جعفر بليغا كاتبا ، وكان إذا وقّع نسخت توقيعاته ، وتدورست بلاغاته ، حتى أنه جلس للمظالم فوقع فى ألف قصة ونيف ، ثم أخرجت فعرضت على العمال والقضاة والكتاب ، فما وُجد فيها شىء مكرر ، ولا شىء يخالف الحق .

ومن توقيعاته لرجل لا يعرفه قصَدَه يأمل بره : هذا يمتُّ بحرمة الأمل ، وهى أقرب الوسائل .

ووقع على رقعة محبوس : العدوان أوبقه ، والتوبة تطلقه [٣]

---

(١) المرجع السابق ١٧٩
(٢) المرجع السابق ص ٢٠١
(٣) انظر المرجع السابق ٢٠٢ ـ ٢٠٥

ووقع لبعض عماله وقد شُكِي منه : كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت [١] .

ووقع فى قصة محبوس : لكل أجل كتاب .

وفى قصة متظلم من أحد عماله : انى ظلمتك دونه .

وفى قصة رجل سأل أن يعاد ابنه من الغزو فقد طالت غيبته : غيبة يوسف كانت أطول .

ووقع لمنصور بن زياد وقد كتب يعتذر : لم نزرعك لنحصدك [٢] .

وكان الفضل بن يحيى أديباً شاعراً ، حدث عبدالله بن ياسين عن أبيه قال : كنا عندالفضل بن يحيى ، فخضنا فى الشعر ، فإذا هو من أروى الناس له ، وأجودهم طبعاً فيه ، فقلت له : أصلحك الله ؛ لو قلت شيئاً من الشعر ، فإنه يزيد فى الذكر ، ويُنبه ؛ فقال : هيهات ! شيطان الشعر أخبث من أن أسلطه على عقلى [٣] .

وقال طاهر بن الحسين لكتابه وهو يحارب الأمين : اكتبوا إلى أبى عيسى بن الرشيد كتابا تتقربون به إليه وتتباعدون ، ولا تطمعوه ولا تؤيسوه ؛ فقالوا : إن رأى الأمير أن يُعَلِّمنا كيف ذلك ويَحُدَّه لنا فعل ؛ فقال : اكتبوا ، وأملى عليهم كتاباً تقرب فيه وتباعد ، ولم يُطمِع ولم يؤيس [٤] .

---

(١) ابن خلكان ١ : ١٠٥

(٢) العقد الفريد ٤ : ٢١٩

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٩٧

(٤) اقرأه بجمهرة رسائل العرب ٣ : ٣٧١ ـ ٣٧٢

ولما عزم جعفر بن يحي على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، قرظه يحي بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصله إلىّ ؛ فلما وصل أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد إلى يحي نظرة منكر لاختياره ؛ فقال له الفضل : يا أمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قلبَه رهبة سيده ؛ فقال له الرشيد : لئن كنت سكتَّ لتصوغ هذا الكلام لقد أحسنت ، ولئن كانت بديهة لهو أحسن وأحسن [1] .

الكرم :

الكرم فى الجاهلية والإسلام ، وفى البلاد المختلفة من العالم المعمور ، خصلة من أكرم الخصال ، وسجية من أعظم السجايا ، وإذا كان الكرم كذلك فى كل مكان ، فإن قدره أسمى فى منبت الإسلام الأول ، ذلك لأن تلك الصحارى الجرداء والفيافى القاحلة يلزم فيها السخاء والقِرى أكثر مما يلزم فى أى مكان آخر ، ومن أجل هذا تغنّى العرب بحلية الكرم ، وعدوا السخاء أصلا هاماً من أصول المحاسن ، ثم استمر معهم هذا الاتجاه أين ذهبوا وحيث أقاموا ، ولو كان مقامهم فى البلاد المتمدينة المتحضرة .

ومما يروى عن الكرم والحث عليه ما ذكره نافع قال : لقى يحي ابن زكريا ابليس ، فقال له : أخبرنى بأحب الناس إليك ، وأبغضهم إليك ؛ قال : أحبهم إلى كل مؤمن بخيل ، وأبغضهم إلى كل منافق سخى ؛ قال يحي: ولم ذاك ؟ قال ابليس : لأن السخاء خلق الله الأعظم ، فأخشى أن يطلع عليه فى بعض سخائه فيغفر له [2]

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢٣١

(٢) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ٥٨ .

ومن الحث على الكرم قوله تعالى «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»[1] وقوله صلى الله عليه وسلم : تجاوزوا عن ذنب السخى ، فإن الله آخذ بيده كلما عثر ، وفاتح له كلما افتقر . وقول بعض السلف : منع الموجود سوء الظن بالمعبود . تبعاً لقوله تعالى «قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه»[2] وقول أكثم بن صيفى: صاحب المعروف لا يقع ، وإن وقع وجد له متكأ. وقد وجد مكتوباً على حجر : اعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك ؛ فكم من جامع لبعل حليلته[3] .

وقد ذهب بعض العرب فى السخاء مذهبا جعل الحديث عن سخائهم أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة ؛ حكوا عن حاتم أنه خرج فى الشهر الحرام إلى أرض عنزة ، فلما وصلها هتف به أسير فيهم : يا أبا سفانه ، قد أكلنى الإسار والقمل ؛ قال حاتم : والله ما أنا فى بلادى ، ولا معى شىء ؛ وقد أسأتَ إلىّ أن نوهت باسمى ؛ ثم ذهب إلى العنزيين وساومهم فيه واشتراه منهم ، وقال : خلوا عنه ، وأنا أقيم مقامه فى قيده حتى أؤدى ثمنه ؛ ففعلوا ، وأرسل حاتم إلى قومه من جاءه بالفداء[4] .

وحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم يزورونه ، فباتوا عند قبره ، فرأى رجل منهم صاحبَ القبر فى المنام يقول له : هل لك أن تبيعنى بعيرك بنجيبى ؟ فقال الرجل : نعم ؛ قال الميت : إذاً ،

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٩١ .
(٢) سورة سبأ الآية رقم ٣٩ .
(٣) المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٥٧
(٤) الجاحظ : المحاسن والأضداد ص ٦١

أقسمت عليك إلا قمت فذبحت بعيرك للأضياف الذين باتوا بساحة قبرى، وسيأتيك نجيبى حالا ؛ فقام الرجل وذبح بعيره ونال هو ومن معه من لحم البعير ، وفى اليوم التالى أبصروا ركبا قادمين نحوهم ، فتقدم من الركب شاب فنادى : هل فيكم فلان ؟ فقال صاحب البعير : نعم ، أنا فلان ؛ فقال : هل بعت من فلان الميتِ شيئاً ؟ قال : نعم ، بعته بعيرى بنجيبه فى النوم ، وذبحت البعير طوعاً لإرادته ؛ قال الشاب : هذا نجيبه فخذه ، وأنا ولده ، وقد رأيته فى النوم يأمرنى أن أدفع لك هذا النجيب [1].

هذه فيما يبدو قصة موضوعة ، ولكنها بدون شك تصور الشغف بالكرم ، الذى اتصف به واضع القصة وراويها ومدوّنها ، وذلك عند النقاد يفوق فى الدلالة على الميل للسخاء كون الحادثة حقيقة واقعة .

وقد تغنى شعراء العرب بالكرم ، وسجلوا عنه آيات من الشعر الخالد الذى نورد فيما يلى طرفا منه :

فلا الجود يُفنى المال قبل فنائه ... ولا البخل فى مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس رزقا بعيش مقتر ... لكل غد رزقٌ يعود جديد

إذا ما أتاه السائلون توقدت ... عليه مصابيح الطلاقة والبشر
له فى ذرا المعروف نعمى كأنها ... مواقع ماء المزن فى البلد القفر

لا تكثرى فى الجود لائمتى ... وإذا بخلت فأكثرى لومى
كَفَى ، فلست بحامل أبداً ... ماعشت همّ غد إلى يومى

وهبنى جمعت المال ثم خزنته ... وحانت وفاتى ، هل أزاد به عمرا
إذا خزن المال البخيلُ فإنه ... سيورثه غما ويعقبه وزرا

(١) المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٦٧ ـ ١٦٨

ذلك هو الكرم ، وهذا هو مذهب القوم فيه ، وإجلالهم له ولذويه ، فماذا عندنا عن كرم الربيع وابنه الفضل ، وعن كرم سواهما من الأتراب والنظراء ؟ .

أما عن الربيع بن يونس فأقرر مطمئناً أنه لم يكن له فى ميدان الكرم والسخاء مجال ، وقد أصدرت هذا الحكم بعد الاطلاع على مظان وردت بها فصول خاصة للحديث عن الكرم والكرماء ، مثل كتاب المحاسن والمساوىء للجاحظ [1] . والعقد الفريد لابن عبد ربه [2] . وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى [3] . والمحاسن والمساوىء للبيهقى [4] . والمستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى [5] . ومحاضرات الأدباء لأبى القاسم الأصفهانى [6] بالاضافة إلى عدد كبير من كتب الأدب والتاريخ والتراجم ، وأنا لا أقول إن الربيع كان بخيلا ، لأنى فى الحقيقة لم أعثر على ما يدل دلالة واضحة على بخله ، وإن كنت قد عثرت على ما يدل على أنه كان إلى المنع وحرمان الآخرين أميل ؛ حدث الأصفهانى قال [7] : التقى العسس فى عهد المنصور بأبى دلامة الشاعر فى أحدى الأمسيات وقد شرب وسكر ، فقبضوا عليه ، وخرقوا ثيابه وساجه ، وجاءوا به إلى أمير المؤمنين ، فأمر أن يوضع

---

(١) انظر محاسن السخاء من ص ٥٨ إلى ص ٦٦

(٢) انظر كتاب الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد ج ١ من ص ٢٦٢ إلى ص ٢٧٣

(٣) انظر كتاب المبالغة فى أوصاف خصال الإنسان المحمودة من الجود والشجاعة ... ج ١ من ص ١٠٣ إلى ص ١٥٧

(٤) انظر محاسن السخاء من ص ٢٠٠ إلى ص ٢٦٩ .

(٥) انظر الباب الثالث والثلاثين فى الجود والسخاء وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد ١ : من ص ١٥٦ إلى ص ١٧١ .

(٦) انظر ما جاء فى الجود والأجواد ج ١ من ص ٤٠٠ إلى ص ٤٠٦ .

(٧) الأغانى ٩ : ١٢٣ .

فى حظيرة الدجاج ، فلما أفاق أبو دلامة من سكره نادى غلامه وجاريته فلم يجبه أحد إلا السجان فإنه قال له : ما شأنك ؟ فقال أبو دلامة : من أنت ؟ وأين أنا ؟ فقال السجان : أنت فى الحبس ، وأنا فلان السجان . قال : ومن حبسنى ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ومن خرّق طيلسانى ؟ قال : الحرس . قال أبو دلامة للسجان ! إيتنى بدواة وقرطاس ؛ ففعل . فكتب إلى أبي جعفر :

أمير المؤمنين فدتك نفسى … علام حبستنى وخرقت ساجى ؟
أمن صفراء صافية المزاج … كأن شعاعها لهب السراج
وقد طبخت بنار الله حتى … لقد صارت من النطف النضاج
تهش لها القلوب وتشتهيها … إذا برزت ترقرق فى الزجاج
أقاد إلى السجون بغير جرم … كأنى بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لكان سهلا … ولكنى حبست مع الدجاج
وقد كانت تخبرنى ذنوبى … بأنى من عقابك غير ناج
على أنى وإن لاقيت شراً … لخيرك بعد هذا الشر راج

فلما قرأ الخليفة هذه المقطوعة الشعرية دعا بأبي دلامة وسأله : أين حُبست ؟ قال : فى بيت الدجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أقوقىء معهن حتى أصبحت . فضحك الخليفة وخلّى سبيله وأمر له بجائزة . فقال الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ، أما سمعت قوله : وقد طبخت بنار الله يعنى الشمس . فقال أبو دلامة : والله ماعنيت إلا نار الله الموقدة التى تطلع على فؤاد الربيع . فضحك المنصور . وقال : خذها ياربيع ، ولا تعاود التعرض .

أما الفضل بن الربيع فلم يرد له ذكر أيضاً فى المظان التى سبق ذكرها ، كما لم تسجل له أغلب كتب الأدب والتاريخ شيئاً فى مجال الجود . ولكن الأصفهانى أورد ما يدل على كرم الفضل مع أبى العتاهية بوجه خاص ؛ حدث أبو الفرج قال : [٢] دخل أبو العتاهية على الرشيد فأنشده :

الله هوَّن عندك الد ... نيا وبغَّضها إليكا
فأبيتَ إلا أن تصغِّـ ... ـر كل شيء فى يديكا
ما هانت الدنيا على ... أحد كما هانت عليكا

فقال الفضل للرشيد : يا أمير المؤمنين ، ما مُدِحَت الخلفاء بأصدق من هذا المدح ؛ فقال : يافضل ، اعطه عشرين ألف درهم ، فغدا أبو العتاهية على الفضل فأنشده :

إذا ما كنت متخذاً خليلا ... فمثل الفضل فاتخذ الخليلا
يرى الشكر القليل له عظيما ... ويعطى من مواهبه جزيلا
أرانى حيثما يممت طرفى ... وجدت على مكارمه دليلا

فطرب الفضل وقال : لولا أن أساوى أمير المؤمنين لأعطيتك مثلها ، ولكنى سأوصلها إليك فى دفعات ، ثم أعطاه ما أمر له به الرشيد ، وزاد له خمسة آلاف درهم من عنده .

ولست أدرى كيف طرب الفضل لهذا الشعر المتداعى الهزيل ، فهو عندى إما قليل المادحين ، فسُرَّ بأن مدحه شاعر ، أو غير خبير بالشعر وفنون الأدب .

ولننتقل إلى موقف آخر بين الفضل وأبى العتاهية، وهو أيضاً مما سجله

(٢) الأغانى ٣ : ١٥٤

الأصفهانى ، قال [1] حدث حبيب بن الجهم النميرى قال : حضرت الفضل ابن الربيع متنجزا جائزتى وفرضى ، فلم يدخل عليه أحد قبلى ، فإذا عون حاجبه قد جاء فقال : هذا أبو العتاهية يسلم عليك ، وقد قدم من مكة ، فقال الفضل للحاجب : اعفنى منه الساعة حتى لايشغلنى عن ركوبى ، فخرج إليه عون فأخبره بذلك ، فأخرج أبو العتاهية من كمه نعلا فدفعها إلى عون ليوصلها إلى الفضل ، وقد كتب على شراكها مكتوب ، قال حبيب ، فدفعها الفضل إلىّ لأقرأ له ما على شراكها فقرأت :

نعل بعثت بها ليلبسها قرم بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشركها خدى جعلت شراكها خدّى

فقال الفضل لحاجبه : احملها معنا ؛ فحملها ، فلما دخل على الخليفة قال له الخليفة : يا عباسى ، ماهذه النعل ؟ فقال : أهداها إلىّ أبو العتاهية ، وكتب عليها بيتين ، وأمير المؤمنين أولى بلبسها لما وُصف به لابسها ، فقال الخليفة وما هما ؟ فقرأهما له الفضل ، فقال : أجَاد والله ، هبوا له عشرة آلاف درهم .

وأرى وربما شاركنى هذا الرأىَ كثير من الناقدين أن الفضل هنا احتال ليدفع جائزة أبى العتاهية من مال سواه ، وذلك موقف لا يشرف الفضل من قريب أو من بعيد .

على أن كرم الفضل مع أبى العتاهية لم يدم طويلا ، حدث أبو العتاهية قال : مازال الفضل بن الربيع من أميل الناس إلىّ ، وقال لى مرة : أنت تعرف شغلى ، فعد إلىّ فى وقت فراغى أقعد معك وآنس بك ، فلم أزل

---

(١) الأغانى ٣ : ١٥٩ — ١٦٠

أراقب أيامه حتى كان يوم فراغه فصرت إليه ، فبينما هو مقبل علىّ يستنشدنى ويسألنى فأحدثه إذ أنشدته :

ولىّ الشباب فماله من حيلة وكسا ذوائبى المشيب خمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطاراً

فلما سمع ذكرى البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية فى وجهه ، فما رأيت منه خيراً بعد ذلك (١) .

وفى الفضل بن الربيع يقول اسماعيل القراطيسى .

لئن أخطأتُ فى مَدْحِك ما أخطأتَ فى منعى
لقد أنزلت حاجاتى بواد غير ذى زرع (٢)

فإذا ما تركنا الربيع وابنه وقصدنا إلى الحديث عن كرم سواهما من الأتراب ، وجدنا ثروة ضخمة من القول عن هؤلاء النظراء وبخاصة معن ابن زائدة والبرامكة ، وإنى لأوشك أن أكف عن ذكر شىء فى هذا الصدد لشهرته وكثرة تردده فى كتب الأدب والتاريخ وبخاصة فى المظان سالفة الذكر ، ولكنى استيفاء للبحث سأذكر نماذج قليلة جداً لهذا السخاء العريض .

معن بن زائدة : يروى ابن عبد ربه (٣) أنه كان يقال فى معن : حدّث عن البحر ولا حرج وحدّث عن معن ولا حرج . ويَروِى أنه أتاه رجل

(١) الأغانى ٣ : ١٦٤ وقد سبق إيراد هذه القصة فى الفصل الثانى ، ولكن إعادتها هنا هامة

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٩٩

(٣) العقد الفريد ج ١ ٣٤٩ — ٣٥٠

يسأله أن يحمله ، فقال معن لغلامه : ياغلام ، اعطه فرسا وبرذونا وبغلا وعَيرا (العير : الحمار) وبعيرا وجارية ، وقال : لو عرفت مركوبا غير هؤلاء لأعطيتك .

وأتى أحد الشعراء مَعْنًا وهو عامل البصرة ولكنه لم يستطع لقاءه فقال لبعض الخدم : إذا دخل الأميرُ البستان فعرِّفنى ؛ فلما دخل أعلمه بذلك ، فكتب الشاعر بيتا ونقشه على خشبة ، وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، حينما كان معن جالسا على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها :

أياجود معن ناج معنا بحاجتى فليس إلى معنٍ سواك شفيع

فقال معن : من الرجل ؟ فأتى به إليه ، فأعطاه عشر بدر فأخذها الرجل وانصرف ، وفى اليوم التالى رأى معن الخشبة فاستدعى الرجل وأعطاه عشر بدر أخرى ، وفعل كذلك فى اليوم الثالث ، فلما حصل للرجل هذا المال الوفير ، أخذه وترك البصرة حذرا أن يُسترد منه كله أو بعضه ، فلما كان فى اليوم الرابع طلب معنٌ الرجلَ ، فلم يجده ، فقال معن : لقد والله ساء ظنه بنا ، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى عندى درهم ولا دينار (١) .

وفى معن يقول الشاعر :

يقولون معن لا زكاة لماله وكيف يُزكى المالَ من هو باذله
تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت نائله

(١) الأصفهانى : محاضرات الأدباء حـ ١ ١٦٠ — ١٦١

تعوّد بسط الكف حتى لو انه أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن فى كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله (١)

ومن قول معن :

دعينى أنهب الأموال حتى أُعفّ الأكرمين عن اللئام (٢)

ويُحكى أن المهدى خرج يتصيد فلقيه الحسن بن مطير الأسدى فأنشده :

أضحت يمينك من جود مصوّرة لا ، بل يمينك منها صورة الجود

فقال المهدى : كذبت يافاسق ، وهل تركت فى شعرك موضعا لأحد ، مع قولك فى رثاء معن بن زائدة :

فياقبر معن كنت أول حفرة من الأرض خطت للمكارم مضجعا
وياقبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا
ولكن حويت الجود، والجود ميت ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا (٣)

ومما قيل فى رثاء معن أيضا :

أقمنا باليمامة بعد معن مُقاما لا نريد به زوالا
وقلنا : أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا (٤)

يزيد بن مزيد الشيبانى : حكى أبو قدامة القشيرى قال : كنا مع يزيد ابن مزيد يوما ، فسمع صائحاً يقول : يا يزيد بن مزيد ؛ فطلبه يزيد ، وقال له : ما حملك على هذا الصياح ، فأجاب : فقدت دابتى ونفدت نفقتى ، فتذكرت قول الشاعر :

---

(١) الثعالبى أحسن ما سمعت ص ١٢٥
(٢) الأبشيهى . المستطرف فى كل فن مستظرف ج ١ ص ١٦١
(٣) ذيل ثمار الأوراق على هامش الجزء الثانى من محاضرات الأدباء ص ٧٩
(٤) الاغانى ج ٩ ص ٤٢

إذا قيل من للجود والمجد والندى فناد بصوت : يا يزيد بن مزيد

فأمر له يزيد بفرس أبلق كان معجباً به وبمائة دينار وخلعة سنية (١).

ويقول مروان بن أبي حفصة في يزيد بن مزيد :

أفنيت مالك تعطيه وتنهبه يا آفة الفضة البيضاء والذهب (٢)

البرامكة : أنها ثروة ضخمة يجدها الباحث عن كرم البرامكة فى كتب الأدب والتاريخ ، ولا شك أن الانسان يحار فيها ؛ أيها يأخذ وأيها يدع ، وهى فى الحقيقة بالخيال أشبه ، حتى أن بعض المعاصرين من الكتاب يشكون فى صحة الأرقام التى أوردتها كتب الأدب والتاريخ مشيرة إلى عطاياهم وهباتهم ، وقد وقع مثل هذا الشك لبعض الأقدمين ؛ ذكروا أن أحد وزراء العباسيين فى العصر الرابع قال لجلسائه : إن هذه الأرقام من مبالغات الوراقين والأدباء المملقين ، تعمدوها ليصطادوا بها أموال الأمراء والوزراء ، ويستدروا بها أكف أولى الأريحية من الأغنياء ؛ وكان فى المجلس أحد الأذكياء ، فقال له : يا سيدى ، لماذا لا يكذب الناس على مولانا الوزير ؟ فلم يحر الوزير جواباً (٣).

ولا يتفق الباحثون والنقاد فى هذه المسألة على رأى موحد ، ويبدو لى أنه ليس من السهل أن نتشكك فيما بين أيدينا من تراث أدبى واسع ، وبخاصة أن كرم البرامكة موضوع متفق عليه من جميع الكتاب

---

(١) الابشيهى : المستطرف ج ١ ص ١٦٧

(٢) العقد الفريد ١ : ٢٩٤

(٣) طه الراوى : بغداد مدينة السلام ص ١٨

والمؤرخين ، وإنى لأميل إلى رد هذه التهمة التى تنقض ما قيل عن كرم البرامكة؛ إذ أن الوراقين الذين تحدثوا عن ذلك الكرم، هم أنفسهم الذين سجلوا شح المنصور وحرص الربيع بن يونس ؛ ولو كان الغرض الحثّ على العطاء ما فعلوا ذلك ؛ فالنتيجة التى أميل إلى الأخذ بها هى تلك التى أخذنا بها عند حديثنا عن مجون الأمين وخلاعته، وهى أن البرامكة كانوا كراماً بلاشك بدليل أنهم أفنوا كل ثرواتهم ، ولم يكن بخزائنهم عند وقوع النكبة بهم ما يُغنى ، وقد كانت لهم مواقف فى الكرم بعيدة المدى ، غير أن الكتَّاب فيما يظهر ، اتخذوا من كرم البرامكة موضوعا للمبالغة والإطناب ، فأضافوا إلى الحقائق الباهرة ، أقاصيص أخرى سارت بها الركبان ، ولكن هذا يجب ألا يؤثر فى طبيعة هذه المسألة وهى أن البرامكة كرام إلى حد يقرب من السرف ، إن لم يكن هو السرف ذاته .

وكرم البرامكة مشهور منذ جدهم خالد بن برمك الذى سمى طلاب الأعطيات زوارا وكانوا يُسمون من قبل سؤّالا كما سبق القول .

وقد وضع يحيى دستورَ البرامكة فى الكرم فقال : أعط من الدنيا وهى مقبلة فإن ذلك لا ينقصك منها شيئاً ، وأعط منها وهى مدبرة ، فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئاً [1] فهو يحث على الإعطاء فى كل حال .

ولم يكن البرامكة ينتظرون شكر الناس على ما يمنحون ، ومن طرائف يحيى فى ذلك أنه قيل له : إن ها هنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفا ، فقال : هؤلاء يشكرون معروفا فكيف لى بشكر شكرهم [2] .

---

(١) المستطرف ١ : ١٦٣ وابن خلكان ٢ : ٣٢٤
(٢) العقد الفريد ١ : ٣٢٢

وكان يحيي أستاذاً فى الكرم فهو يعلم الرشيد السخاء ، فإن لم يكن السخاء ممكنا لزمت الحيلة لمداراة قلة البذل ؛ حدث ابن خلكان قال[1] : كان يحيي يساير الرشيد يوما فوقف له رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، عطبت دابتى ؛ فقال الرشيد : يُعطى خمسمائة درهم ؛ فغمزه يحيي ؛ فلما نزلوا ، قال الرشيد له : يا أبت ، أومأت إلىّ بشىء ولم أعرفه ؛ فقال يحيي : مثلك لا يجرى هذا القدر على لسانه ، إنما يَذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، أو عشرة آلاف ألف ؛ فقال الرشيد : ولكن إذا سئلت سؤال صاحب الدابة كيف أقول ؟ فقال يحيي : تقول : تُشترى له دابة .

ولم يكن كرم البرامكة عن غنى وانما عن طبع ، وربما دفعوا كل ما عندهم ليسدوا ثغرة ، أو ليبنوا معروفا ، رُوى أن الرشيد دعا صالحا صاحب المصلى وقال له : اخرج إلى منصور بن زياد فقل له : قد صحّت عليك عشرة آلاف ألف درهم ، فاحملها إلىّ فى يومك هذا ، فإن هو دفعها كاملة قبل مغيب الشمس ، وإلا فاحمل رأسه إلىّ ، وإياك ومراجعتى فى شىء من أمره . قال صالح : فخرجت إلى منصور فعرّفته الخبر ؛ فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله ماعندى منها ثلاثمائة ألف ، دعنى أوص ، ثم خذ فى عملك ؛ ودخل ليوصى فارتفع الصراخ من منازله وحُجَر نسائه ، ثم خرج وما فيه لحم ولا دم فقال : امض بنا إلى يحيي بن خالد . فمضيت معه فدخل على يحيي وهو يبكى ، قال يحيى : ماوراءك ؛ فقص عليه القصة . فقلق يحيي بأمره ثم دعا خازنه وقال له : كم عندك من المال ؟ قال خمسة آلاف ألف ، فقال : هاتها ، ثم وجه إلى الفضل برسالة يقول فيها :

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٣٢٥

إنك قد أعلمتنى أن عندك ألفى ألف درهم ، قدرتَ أن تشترى بها ضيعة وقد أصبتُ لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها ، وتحمد ثمرتها ، فوجِّه إلينا بالمال ؛ فوجَّـــه به . ثم قال للرسول : امض إلى جعفر فقل له : ابعث إلىّ بألف ألف درهم لحق لزمنى ، ففعل جعفر ، فقال صالح : هذه ثمانية آلاف ألف . ثم أطرق يحيى إطراقة المفكر ، لأنه لم يكن بقى عنده شىء ، ثم رفع رأسه إلى خادمه ، وقال : امض إلى دنانير فقل لها : وجِّهى إلىّ بالعقد الذى عندك فبعثت به ، وكان ثمنه أكثر من مائة ألف دينار . فأخذ صالح الأموال والعقد وترك منصور وانصرف : فلما وضع المال أمام الرشيد وأخبره الخبر . قال الرشيد : أما إنى قد علمت إنه إن نجا لم ينج إلا بأهل هذا البيت ، اقبض المال ، واردد العقد على دنانير .

وكان منصور بن زياد هذا عاقا فلم يشكر إحسان يحيى له ، وانقاذه أياه من الموت ، وإنما تمثل عند خروجه بقول الشاعر :

فما بُقيا على تركتمانى   ولكن خفتما صرد النبال

قال صالح : فكرهت فيه عقوقه وخبث سريرته ولم تطب نفسى أن أدع يحيى دون أن أعرفه خبر ذلك الرجل سيىء الطبع ، فعدت إلى يحيى فى اليوم التالى وأخبرته خبر منصور ، فقال يحيى : ياصالح ، إن المنخوب القلب ربما سبقه لسانه بما ليس فى ضميره ، وقد كان الرجل فى حال عظيم ، فقال صالح : والله ما أدرى من أى أمريك أعجب ؟ أمن كرمك أم من عفوك ؟ ولكنى أعلم أن الدهر لا يُخلف مثلَك أبدا (١)

ومما يُحكى عن الفضل أن رجلا من أتباعه سار مع رجل كوفى ؛ من

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢٢٢ — ٢٢٤

الكوفة إلى خراسان ؛ فسأل الكوفىُّ عن أفعال الفضل فأخبره التابع بإنهابه الأموال الجليلة فى العطايا ؛ فقال الكوفى : خبّرنى عن هذه الأموال التى ينهبها ؛ هل يراها وينظر إليها ؟ فقال : لا . فقال الكوفى : فمن هنا تهون عليه ، فلما وصلا ذكر التابع للفضل حديث الكوفى ، وكان الفضل متكئا فاستوى جالسا ، وقال لغلامه : ياغلام ، إيت بصاحب بيت مالى ، فأُتى به . فسأله عما عنده ، فقال عشرة آلاف درهم . قال الفضل تحُمل إلى الساعة وتشُق عنها البدر شقا وتُنثر فى وسط الدار . ففعل ذلك ثم قام الفضل وأحضر الرجل الكوفى ، وأخذ الفضل يعبث بالمال بيده ، ويفرقه على زواره وعلى المحتاجين ، وأعطى الكوفى منه مبلغا كبيرا وقال له : هذا لك لتنبيهك إياى على هذا الفعل (١)

وكان جعفر يكره البخل والبخلاء ،ومما يروى عنه فى ذلك أنه قال يوما لخادمه : احمل معنا ألف دينار فإنى أريد أن أمر بالأصمعى ، فإذا حدثنى وأضحكنى فضع الكيس فى حجره ، ثم سار إليه ومعه أنس بن أبى شيخ ، فحدثه الأصمعى بكل شىء فلم يضحك ؛ وانصرف دون أن يضع الخادم المال ، فقال أنس لجعفر : إنه قد أضحكك بجهده فلم تضحك ، وليس عادتك رد شىء قد أمرت بإخراجه من بيت مالك ، فقال له جعفر : ويلك ! قد وصلنا هذا بخمسمائة ألف درهم ، ولم أدخل بيته قبل هذه المرة ، وقد رأيت جرّته مكسورة ، ومُصلاّه وسخا ، وكلّ ما عنده رثا. فعلام أعطيه الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ؟ ثم أنشد

(١) البيهقى : المحاسن والمساوىء ٢٢٧ — ٢٢٨

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب[1]

وفى كرم جعفر يقول أشجع السلمى :

يحب الملوك ندى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم فى الغنى ولكن معروفه أوسع
وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع[2]

ونختم هذا البحث بأبيات قليلة مما قيل فى كرم البرامكة ، قال أبو النضير :

إذا ما العطايا لم تكن برمكية فتلك العطايا ما تزين وما تحلى[3]

وقال نصيب الشاعر وقد نفحه الفضل ثلاثين ألف درهم

جاد الربيع الذى كنا نؤمّله فكلنا بربيع الفضل مُرتبع
كانت تطول بنا فى الأرض نجعتنا فاليوم عند أبى العباس ننتجع
إن ضاق مذهبنا أو حل ساحتَنا ضنكٌ وأزم فعند الفضل متسع
ما سلم الله نفس الفضل من تلف فما أبالى أقام الناس أم رجعوا[4]

بنو سهل : كان بنو سهل يسيرون سيرة البرامكة فى كرمهم وخلالهم كلها ، ومما يؤثر عن الحسن بن سهل أنه قيل له : لا خير فى السرف . فقال : لا سرف فى الخير[5]. وقال له رجل مرة : لقد صرتُ لا أستكثر كثيرك

(١) أبو هلال العسكرى : ديوان المعانى ١ : ١٢٩ والجهشيارى ٢٠٦
(٢) الجهشيارى ٢١٥
(٣) البيهقى : المحاسن والمساوىء ٢١٨
(٤) الأغانى ٢٠ : ٣١
(٥) المستطرف ١ : ١٥٧

ولا أستقل قليلك : قال الحسن : وكيف ذلك ؟ قال الرجل . لأنك أكثر من كثيرك ، ولأن قليلك أكثر من كثير غيرك [١]

وصنف سهل بن هارون كتاباً يمدح فيه البخل ويذم الجود ليُظهر قدرته على البلاغة ؛ ثم أهداه للحسن بن سهل فى وزارته للمأمون ، واستماحه ، فكتب إليه الحسن : لقد مدحتَ ما ذمّه الله ، وحسّنت ما قبّحه الله ، وما يقوم صلاح لفظك بطلاح معناك ، وقد جعلنا ثواب مدحك قبول قولك فيه ، فما نعطيك شيئاً [٢]

وقد سبق لنا القول أن الفضل بن الربيع تجهّم لأبى العتاهية عندما أنشده هذا قصيدة منها :

أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطارا

وقد ذكر أبو العتاهية هذا الحديث للحسن بن سهل فقال له الحسن : لئن كان ذلك ضرّك عند الفضل بن الربيع ، لقد نفعك عندنا ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وعشرة أثواب وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم ؛ فلم تزل دارّة عليه إلى أن مات [٣] .

وحسب الحسن بن سهل كرمه الفياض عندما زوّج بوران ابنته ، من المأمون الخليفة حينما بذل من الأموال ، ونثر من الدرر ما يفوق حد الكثرة ، حتى أنه عمل بطاطيخ من عنبر وجعل فى وسط كل واحدة منها

---

(١) العقد الفريد ٢ : ١٣٥

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣ : ٤٧٣

(٣) الأغانى ٣ : ١٦٤

رقعة بضيعة من ضياعه أو فرس من خيوله ونثرها فمَنْ وقعت فى يده بطيخة منها فتحها، وتسلم ما كتب فيها [1] .

ومما قيل فى الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد ... يُقصِّر عنها المثل
فباطنها للندى ... وظاهرها للقُبل
وبسطتها للغنى ... وسطوتها للأجل [2]

صور أخرى من السجايا :

لا تزال هناك صفات كثيرة تشيل فيها كفة آل الربيع ، وترجح كفة الآخرين عند إجراء أية مقارنة ؛ وليس عندنا من الفراغ ما يتيح لنا أن نتتبع كل هذه الصفات على النسق الذى اتبعناه فيما مضى ، ولذلك نكتفى فى ختام هذه المقارنة بأن نسجل صوراً سريعة لهؤلاء وأولئك .

سبق أن تحدثنا عن الربيع والفضل ابنه من ناحية تشجيعهما للوشاية وإغرائهما للواشين ، وهنا نضع بجانب ذلك دستور جعفر بن يحيى تجاه الوشاة ، فقد روى عنه أنه قال : أنا للذى يوشَى به كما قال الشاعر :

وإذا الواشى أتى يسعى بها ... نفع الواشى بما جاء يضر [3]

أما دستور الفضل بن سهل فقد ذكره فى قوله لرجل جاء يسعى بآخر :

---

(١) الفخرى ٣ : ١٩٧
(٢) المرجع السابق .
(٣) الجهشيارى ٢٠٨

إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبناك ، وإن استقلتنا أقلناك [1] .

وكان الربيع وابنه لا ينسيان الإساءة ، ولا يصفحان عن مذنب ، كما سبق القول ؛ ولكن العفو كان صفة لازمة لكثيرين من أنداد الفضل وأبيه ، فلقد حكى أن أبا الهول الحميرى كان قد هجا الفضل بن يحيى ، ثم أتاه راغباً إليه معتذراً ، فقال له الفضل : بأى وجه تلقانى؟ فقال: بالوجه الذى ألقى به الله عز وجل، وذنوبى إليه أكثر من ذنوبى إليك، فضحك الفضل ووصله [2]

وفى رواية ابن طباطبا [3] أن هذا الشاعر اعتذر للفضل بقصيدة منها :

وما لى إلى الفضل بن يحيى بن خالد ... من الجرم ما يخشى على مثله الحقد
فجد بالرضا لا أبتغى منك غيره ... فما لى إلى غير الرضا منكمُ قصد

فقال له الفضل : لا أحتمل تفريقك بين رضاى وإحسانى ، فهما مقرونان ، ثم رضى عنه ووصله .

ومما أعُدُّه من الدهاء الرخيص ومن عدم الوفاء لوصايا الخلفاء وارشاداتهم ، ما حكاه الأصفهانى عن الفضل بن الربيع قال : كان ابن جامع من أصحاب الهادى إبان حياة المهدى ، وكان المهدى يخشى على ابنه أن يفسده ابن جامع ، ولهذا ضربه المهدى وطرده من بغداد فرحل هذا إلى مكة ، فلما مات المهدى وتولى الهادى سارع الفضل بن الربيع وأرسل رسولا من قبله وأعطاه دنانير وقال له : إذهب إلى مكة فأتنى بابن جامع واحمله فى قبة ولا تعلم بذلك أحدا؛ ففعل الرسولُ ما أُمِر به ؛ ووضع ابن جامع فى بيته واشترى

(١) المرجع السابق ٣٠٨
(٢) ابن خلكان ١ : ٤٠٩
(٣) الفخرى ١٧٧

له جارية . فقد كان ابن جامع صاحب نساء ، فقال الهادى ليلة لجلسائه : أما فيكم أحد يرسل إلى ابن جامع وقد علمتم موقعه منى ؟ فقال الفضل ابن الربيع : هو والله عندى يا أمير المؤمنين ، وقد فعلتُ ما أردتَ ، وبعث الفضل إليه فأتى به فى الليل ، فوصل الهادى الفضلَ بعشرة آلاف دينار وولاّه حجابته (١)

وكان الربيع وابنه إلى الشر والإغراء به ، أميل منهما إلى الخير ومَنْحه ، حدث ابن مناذر قال : حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة ، وحج معه الفضل ابن الربيع ، وكان مضيقاً عملقا (٢) ، فهيأتُ فى الرشيد قولا أجدت تنميقه ، ودخلت عليه فوجدته يسأل عنى ويطلبنى ؛ فبدرنى الفضل بن الربيع قبل أن أتكلم وقال : يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البرامكة ومادحهم ؛ فتنكر الرشيد وعبس وجهه ؛ فقال الفضل : مره يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك

فقال لى الرشيد : أنشد ؛ فأبَيْتُ ، فتوعدنى حتى أنشدت :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك ... فياطيب أخبار ، ويا حسن منظر
إذا وردوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

ثم قلت : يا أمير المؤمنين كانوا أولياءك فمدحتهم قبل أن يلقاهم سخطك وتحل بهم نقمتك ولم أكن فى ذلك مبتدعا ، ولا خلا أحد من مدحهم . . . فأمر بى فلطمت على وجهى وسُحبت من المجلس (٣) .

(١) الأغانى : حـ ٦ ص ٧٠
(٢) هذا دليل واضح على شح آل الربيع يضاف لما سبق أن أوردناه
(٣) الأغانى ١٧ : ٢٥ — ٢٦

وبجانب هذا الذى تسبب فيه الفضل بن الربيع نسُوق القول عن موقف مماثل للفضل بن سهل ؛ كان عبدالله التيمى الشاعر قد وصف للأمين غلامه كوثرا فقال :

ما لمن أهوى شبيه فبه الدنيـا تتيه
وصلُه حلو ولكن هجرُه مرٌّ كريه
من رأى الناسُ له الفضـ ـلَ عليهم حسدوه
مثل ما قد حسد القا ئمَ بالملك أخوه

وقد شاع البيت الأخير حتى سمعه المأمون ، فلما قتل الأمين قدم التيمى على المأمون ليمدحه ، فلم يأذن المأمون له ، ولكن الفضل بن سهل يتدخل فى الأمر ، ويخفف من غضب المأمون على الشاعر ويسأله العفو عنه ، ويستجيب المأمون لرغبة وزيره ويأذن للشاعر بالمثول بين يديه ومدحه ، وحينئذ يقول المأمون : قد وهبت جريرتك لله ولأخى الفضل بن سهل ، وأمر له بعشرة آلاف درهم [1] .

ولنجعل خاتمة القول فى هذه المقارنة أن نسوق هذه السطور القلائل التى تدل على وفاء يحيى بن خالد وسمو خلقه ؛ حدث الجهشيارى [2] قال : كان ليحيى قبل الوزارة حاجب يقال له « سَماعة » فلما تقلد الوزارة رأى أحدُ اخوانه أن سماعة يقل عن حجابته ، فقال له : لو اتخذت حاجباً غيره؟ فقال : كلا ، هذا يعرف إخوانى الأقدمين .

---

(١) المرجع السابق ١٨ : ١١٧ — ١١٨
(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٠٢

وبعد : هذه صفحة الفضل وأبيه ، وتلك صفحة النظراء والأنداد ، فهل كان من الممكن أن يعيش الربيع وابنه فى هذا الجو دون أن تتصارع فى نفسيهما العوامل المختلفة ؟ ودون أن يدفعهما الحقد والحسد إلى الوشاية والسعاية بهؤلاء وأولئك ؟ ، . إن هذه الأحداث التى برزت للعيان وتلك المؤامرات التى أوقعت الموت بالأفراد والجماعات ، كانت نتائج طبيعية للدوافع التى كمنت فى نفس الربيع وابنه والتى شرحناها بكثير من التفصيل .

وهكذا كان العالم الإسلامى يرى ايقاعا بالمورياني وأهله ، ويشهد نكبة البرامكة ، ويئن تحت عبء الحرب بين الأمين والمأمون ، وهو لا يدرى أن الربيع وابنه يقفان من وراء ستار ؛ يحدثان هذه النكبات ، ويقذفان العالم الإسلامى بكثير من الشرر .

مراجع الكتاب

أولا – المراجع العربية

ملحوظتان :

١ – المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التي أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة

٢ – الطريقة التي اتبعت في تنظيم هذه القائمة ، بنيت على عدم اعتبار للملحقات [أبو – ابن – ال] فيما عدا بعض الأسماء التي تعد هذه الملحقات بعضا منها مثل أبي بكر في التعريف بأبي بكر الصديق .

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان الطبع وتاريخه
١ – الابشيهي	: المستطرف في كل فن مستظرف	« القاهرة ١٩٣٥ »
٢ – أبو تمام	: الحماسة	« القاهرة ١٩٢٧ »
٣ – أبو تمام	: ديوان أبي تمام	« تحقيق محي الدين الخياط »
٤ – أبو عبيدة	: النقائض	Leipzig 1924
٥ – أبو الفدا	: البداية والنهاية	« القاهرة الطبعة الأولى ١٩٣٢ »
٦ – أبو الفدا (صاحب حماة)	: المختصر في تاريخ البشر	« القاهرة ١٣٢٥ هـ »
٧ – أبو الفرج الأصفهاني	: الأغاني	« طبعة الساسي »
٨ – أبو نواس	: ديوان أبي نواس	تحقيق الأستاذ محمود كامل ٩٣٣
٩ – أبو هلال العسكري	: ديوان المعاني	« القاهرة ١٣٥٢ هـ »
١٠ – ابن أبي أصيبعة	: طبقات الأطباء	Ed. August Muller 1884.
١١ – ابن أبي الحديد	: شرح نهج البلاغة	« طبعة دار الكتب العربية »
١٢ – ابن الأثير	: الكامل في التاريخ	« القاهرة بدون تاريخ »
١٣ – دكتور احمد أمين	: ضحى الإسلام	القاهرة « الطبعة الثانية »

١٤ — دكتور احمد أمين : هارون الرشيد «القاهرة ١٩٥١»

١٥ — أحمد زكى صفوت : جمهرة رسائل العرب «القاهرة ١٩٣٧»

١٦ — « « « : العلوم والمعارف فى العصر العباسى (القاهرة ١٩٢٩ وما اقتبس هنا من هذا الكتاب يمكن الرجوع إليه فى مقدمة ابن خلدون ص ١٣)

١٧ — دكتور احمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية دار الكشاف ببيروت ١٩٥٤

١٨ — الأصفهانى (حسين) : محاضرات الأدباء «القاهرة ١٢٨٧ هـ»

١٩ — البيهقى : المحاسن والمساوىء تحقيق فردريك شوالى ٣٢٠ هـ

٢٠ — الثعالبى : أحسن ما سمعت القاهرة (الطبعة الثانية) ٩٥٢

٢١ — الجاحظ : الحيوان تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

٢٢ — « : التاج تحقيق احمد زكى باشا القاهرة ١٩١١

٢٣ — « : المحاسن والأضداد «القاهرة ١٩٣٢»

٢٤ — جميل نخله مدور : حضارة الإسلام فى دار السلام «الطبعة الأميرية ببولاق ٩٣٦»

٢٥ — الجهشيارى : الوزراء والكتاب «تحقيق الأساتذة السقا والابيارى وشلبى القاهرة ٩٣٨»

٢٦ — جولد زيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن : ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر «القاهرة ١٩٤٤»

٢٧ — حاجى خليفة : كشف الظنون «Leipzig 1835»

٢٨ — دكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى «القاهرة ١٩٤٩»

٢٩ — الخضرى : محاضرات تاريخ الدولة العباسية «الحلبى ١٩٣٠»

٣٠ — الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد «القاهرة ١٣٤٩ هـ»

٣١ — ابن خلدون : المقدمة طبعة عبد الرحمن محمد «بدون تاريخ»

٣٢ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر «القاهرة ١٢٨٤ هـ»

٣٣ — ابن خلكان : وفيات الأعيان «القاهرة ١٢٩٩ هـ»

٣٤ — دوايت دونلدش : عقيدة الشيعة « القاهرة ١٩٤٦ »
٣٥ — الذهبي : دول الإسلام «حيدر آباد ١٣٣٧هـ»
٣٦ — السبكي : طبقات الشافعية الكبرى «القاهرة ١٣٢٤ هـ »
٣٧ — السيوطي : تاريخ الخلفاء «القاهرة ١٣٠٥ هـ »
٣٨ — ابن طباطبا : الفخرى تحقيق على الجارم بك ومحمد عوض إبراهيم «القاهرة ١٩٣٨»
٣٩ — الطبري : تاريخ الأمم والملوك « طبعة القاهرة »
٤٠ — طه الحاجري : قصر الرشيد «دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٩»
٤١ — طه حسين : من حديث الشعر والنثر « القاهرة ١٩٤٨ »
٤٢ — طه الراوي : بغداد مدينة السلام « دار المعارف بالقاهرة » (سلسلة إقرأ العدد ٢٧)
٤٣ — ابن عبد ربه : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر) «الطبعة الأولى»
٤٤ — دكتور عبد اللطيف حمزه : ابن المقفع « القاهرة الطبعة الثانية »
٤٥ — دكتور العدوى : الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية «القاهرة ١٩٥١»
٤٦ — دكتور على حسن عبد القادر : نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى «القاهرة ١٩٤٢»
٤٧ — غوستاف لوبون : حضارة العرب (ترجمة عربية) «مطبعة الحلبي ١٩٤٥»
٤٨ — الفخر الرازى : تفسير الفخر الرازى « القاهرة ١٣٠٨ هـ »
٤٩ — فريد رفاعى : عصر المأمون « القاهرة ١٩٢٧ »
٥٠ — الفيروزابادى : القاموس المحيط «المطبعة المصرية ١٩٣٥»
٥١ — القالى (أبو على) : ذيل الأمالى «مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦»
٥٢ — ابن قتيبة : الإمامة والسياسة « الحلبي ١٩٣٧ »
٥٣ — ابن قتيبة المعارف «القاهرة ١٩٣٤»
٥٤ — قدامة بن جعفر : الخراج « ليدن ١٣٠٦ هـ »
٥٥ — القفطى : أخبار الحكماء Leipzig 1320 H.

٥٦ ــ القلقشندى	: صبح الأعشى	« القاهرة ١٩١٣ »
٥٧ ــ الماوردى	: الأحكام السلطانية	« القاهرة ١٩٠٩ »
٥٨ ــ المبرد	: الكامل	مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٥ هـ
٥٩ ــ محمد المرتضى الحسينى	: تاج العروس	« القاهرة ١٣٠٦ هـ »
٦٠ ــ المسعودى	: مروج الذهب	« المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ »
٦١ ــ مسلم بن الوليد	: ديوان مسلم بن الوليد	تحقيق المرحوم الاستاذ حسن البنا
٦٢ ــ دكتور مصطفى فهمى	: الدوافع النفسية	« القاهرة ١٩٥١ »
٦٣ ــ المقدسى	: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	« ليدن ١٩٠٦ »
٦٤ ــ ابن نباته	: سرح العيون	« القاهرة ١٢٧٨ هـ »
٦٥ ــ ابن النديم	: الفهرست	« Leipzig 1871 »
٦٦ ــ ابن هشام	: السيرة النبوية	« القاهرة ١٩١٤ »
٦٧ ــ ياقوت	: معجم البلدان	« القاهرة ١٩٠٦ »
٦٨ ــ اليعقوبى	: تاريخ اليعقوبى	Ed. Houtsma 1883
٦٩ ــ «	: كتاب البلدان	« ليدن ١٨٦٠ »
٧٠ ــ يوسف العش	: تصدير كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادى	« دمشق ١٩٤٩ »

ثانياً – المراجع الأجنبية

٧١— Adler : Individual Psychology, Home University Library.

٧٢— Bolus : The Influence of Islam, London 1932

٧٣— Hadfield: Psychology and Mental Health, London 1950.

٧٤— Khuda Bukhsh: Islamic Libraries, The Nineteenth Century.

٧٥— Nicholson : A Literary History of the Arabs, Cambridge 1930.

٧٦— Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge 1930.

٧٧— Philip Hitti: History of the Arabs, Macmillan Fourth Edition.

٧٨— Richard Coke: Baghdad : the City of Peace. London 1927.

٧٩— Sayed Ameer Ali: A Short History of the Saracens London 1916.

٨٠— Thomas Arnold Ed.: The Legacy of Islam, London 1947.

فهرس الأعلام

ملحوظة : تحاشياً للإطالة لم أضمّن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها فى ذيل صفحات الكتاب .

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

فهرس الأمكنة والبلدان



Date Due

